يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية



الابن الضالّ

أروع ما كتب

هنري بوردو

قصة الشاب الطائش في كل زمان ومكان !

هنري بوردو

الإبن الضال



LES ROQUEVILLARD

PAR

HENRY BORDEAUX

عدد ممتاز ـ ٢٥٠ صفحة

الثمن : ١٢ قرشا

مطبوعات

كتابى

التـرجمة الـكاملة لشوامخ الـكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الـكتاب الثانى والعشرون

الابن الضـــال

تأليف : هنرى بوردو
ترجمة : كليم أبو سيف

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن تسعة وخمسون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وفيما يلى قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى • قلب عذراء • الهاربة من الجنة • حواء الجديدة • أحدب نوتردام • جريمة حب • عشيقة نابليون • مذكرات كيوبيد • صنم تحطم • حديقة الله • عندما تحقد المرأة • لعبة الحب والموت • توبة خاطئة • أيها الربيع ترفق • الشيطان على الأرض • ليدى هاملتون • الأرملة المرحة • حياة جورج صاند • حياة سارة برنار • رباعيات عمر الخيام • حياة بتهوفن • حياة موسولينى • كوخ العم توم • الزوج والعشيق • البوهيمية • فتاة لها ماض • ترويض النمرة • فن الحب • الجريمة والعقاب • المنافق • أميرة مصر • الأمطار • أفروديت • أقنعة الحب السبعة • سالومى • الأعداد من ٣٦ – ٥٩

• وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريد المسجل ، ماعدا العدد العاشر وثمنه عشرون قرشا ، والأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الأعداد الستة الأولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

• ملحوظة : ترسل قيمة الأعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الأولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأ للحب ، جين اير (ثلاثة أجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل . وثمن كل من الأول والرابع والسابع والتاسع عشر ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون والحادى والعشرون ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل) .

هذه القصة الجبارة !

عزيزي القارىء ...

• **عندما** فرغت من قراءة هذه القصة – فى أصلها الفرنسى – بعد أن عشت فى جوها ، وفى صحبة أبطالها ، أياما ممتعة لاتنسى .. بلغ اعجابى بها حدا لم أتردد معه فى اختيارها من فورى كى تترجم وتقدم اليك فى هذه السلسلة ، مؤثرا اياها على عشرات غيرها من القصص والكتب غير القصصية التى قرأتها ثم تركتها متناثرة فى أرجاء مكتبى ، تشاغل ناظرى ، أو سواها من الكتب التى مافتئت تراود فكرى وان غابت عن عينى !

آثرت هذه القصة على غيرها من القصص التى كنت أرشحها لعدد هذا الشهر من (مطبوعات كتابى) ، لأنها تمثل لونا من الأدب القصصى لم أقدمه اليك فى هذه السلسلة من قبل .. وأعنى به هذا الأدب الواقعى المعاصر الذى تحس – وأنت تقرأه – بريح الصدق والواقعية الصارخة تهب عليك من خلال سطوره ، وكأنك تعيش مع أبطال القصة فى الجو الذى يعيشون فيه ، وتعانى من الانفعالات التى يعانون منها ، وتنتابك المشاعر التى تنتابهم ، وتضطرب فى محيط الحياة التى يضطربون فى غمرتها ..

بل ان فى بعض مواقف هذه القصة مايملك عليك مشاعرك الى حد تنسى معه أنك تقرأ أدبا مفروضا انه من نسج خيال مؤلفه ، فتخال كأنك تعرف هؤلاء الأشخاص الذين تتلاعب أحداث حياتهم بعواطفك ، فتأسى لأحزانهم حتى لتنحدر دموعك من مآقيك مشاركة لهم ، أو تفرح لفرحهم وكأنك أنت من أصابه الحادث المفرح ! .. **أو يخفق قلبك حبا لمحبوبهم ، فتحس بنفسك قد رددت الى شبابك الباكر رداعنيفا لا هوادة فيه ، واذا أنت مستغرق فى أحلام الهوى ، وأوهام الشباب ، ونزوات الحب الطائش الذى أنسى بطل القصة كل اعتبارات التعقل ، والاحتكام للضمير ، والاخلاص للصديق أو الأهل والأقرباء .. بل الاخلاص**

للذات ، ولو بغية حمايتها من التردى الى الهاوية التى تصل اليها فيها يد القانون وسطوته الباطشة !

على أنى لن أطاوع نفسى فأسترسل فى التحدث اليك عن موضوع هذه القصة الجبارة ، أو عن أسلوب مؤلفها الفذ الذى بلغ غاية الاعجاز فى التوفيق بين النقيضين : بين الواقعية فى تصوير المواقف والانفعالات ، وتحليل المشاعر والنزعات ٠٠ وبين الابداع والدقة فى وصف الأشياء والمناظر والمرئيات ، الى حد يرفعه الى مستوى و (رومانتيكية) « لامرتين » و «شاتوبريان» ، والى دقة « ديكنز » ، أعظم أديب « وصافة » عند الانجليز !

حجم هذا العدد ٠٠ وسعره

◆ بقى أن أختم حديثى اليك بالاشارة الى اعتبار اعتدت أن أتبادل فيه الرأى معك فى كل مناسبة ٠٠ ذلك أننى حين شرعت فى تقديم هذا العدد اليك ، واجهتنى مشكلة معقدة ، انتابتنى ازاءها حيرة مرة : **فقد وضعنى طول القصة ، والتزامى بمبدأ الترجمة « الكاملة » التى لا تغفل فقرة أو سطرا من الأصل كما كتبه المؤلف ـ هذا المبدأ الذى هو شعار « مطبوعات كتابى » كما تعلم ـ أقول وضعنى ذلك فى مأزق لم يكن له غير مخرج من ثلاثة :** أحدها أن أنشر القصة كلها بالبنط الصغير ، الذى طالما شكوت من أنه يتعب نظرك ويرهق عينيك ٠٠ أو أنشر القصة على جزءين صغيرين ، بسعر مخفض ، بحكم أنها ليست من القصر بحيث يكفيها جزء واحد عادى ، ولا هى من الطول بحيث تشغل جزءين عاديين كاملين! ٠٠ **أما المخرج الثالث ، فهو أن أقدمها اليك فى جزء واحد ضخم ، كالذى بين يديك ، مع رفع سعرها رفعا ضئيلا ، فى أضيق الحدود ، (رغم الارتفاع الفاحش فى أسعار الورق ، الذى اضطر جميع الصحف والمجلات الأخرى الى خفض عدد صفحاتها بنسبة كبيرة ، دون خفض أسعارها)**

وقد اخترت المخرج الثالث ، الذى أرجو أن تقرنى عليه !

والله ولى التوفيق **حلمى مراد**

الإبن الضال

للروائى العالمى المعاصر : "هنرى بوردو"



القسم الأول



١ ـ حصاد الكروم

◆ من قمة التل الصغير ، ارتفع صوت مسيو « فرانسوا روكفيار » يخاطب حاصدات العنب اللواتى انتشرن على طول الطريق المنحدر ، يخففن الكروم من أثقال عناقيدها السوداء : « لقد أقبل الليل ، فهيا الى جولة أخيرة »

قالها صاحب الضيعة فى صوت رقيق ـ ولكنه آمر ـ بعث النشاط فى الايدى ، وأحنى من جديد ظهور العاملات المتباطئات .. فاذا بهن قد أقبلن على العمل ! .. ثم أضاف السيد فى لهجة مرحة : « انهن فى الصباح أكثر خفة ورشاقة من العصافير ، فاذا أقبل العصر تحولن الى ثرثارات ! »

واستثارت هذه الملاحظة ضحكهن جميعا ، فأجبن فى صوت واحد : « أجل ، أيها السيد المحامى »

لم يكن صاحب مزرعة « البرج » يخاطب من فلاحيه الا بهذا اللقب . وكانت المزرعة ضيعة جميلة تتألف من قطعة

واحدة ، مزروعة بالغابات والحقول والكروم ، تقع فى أقصى مقاطعة (كونيان) ، على مسافة ثلاثة أو أربعة كيلومترات من مدينة (شامبيرى) ، ويمكن الوصول اليها بالسير فى طريق زراعى وعبور قنطرة قديمة قائمة على نهر (الايير) ذى المياه المنخفضة ٠ وهى تطل على الطريق المؤدى الى مدينة (ليون) ، الذى كان فيما مضى يربط مقاطعة (السافوا) بالاقاليم الفرنسية المجاورة ، عبر صخور (ايشيل) المنحوتة ٠ وقد أطلق عليها اسم مزرعة « البرج » نسبة الى برج قديم كان يتوج قمة تلك الصخور ، ولم يبق منه الآن أى أثر ٠ **وتملك المزرعة منذ قرون عديدة أسرة « روكفيار » التى دأبت على توسيع رقعتها شيئا فشيئا ، كما يدل على ذلك المنزل الريفى المقام فيها ، وسائر المبانى التى تتكون من وحدات وحجرات غير متجانسة ، وان كانت « معبرة » ، كوجه الشيخ الذى تتلخص فى تجاعيده حياة بأكملها !٠٠** فهنا يتمثل ماضى أسرة عريقة ، وفية لأرض الآباء والأجداد ٠ وقد كان آل روكفيار جميعا ، أبا عن جد ، من رجال القانون : فكان منهم نقباء للمحامين ، وقضاة ، ورؤساء لمجلس الشيوخ الاقليمى القديم ٠٠ كما كان منهم مستشار فى محكمة الاستئناف الجديدة بلغ به تعلقه بموطنه ، وحرصه على أن يموت فى مسقط رأسه ، حدا جعله يرفض كل ترقية !٠٠ ومن هنا درج أهل البلدة على اعتبار أسلاف « روكفيار » جميعا — بلا تفرقة — من المحامين ، مستمدين من تسميتهم هذه معنى الحماية ! وقد زاد من جدارة المالك الحالى للضيعة — مسيو « فرانسوا روكفيار » — بهذه التسمية ، انه مارس مهنة المحاماة زهاء أربعين عاما ، اكتسب خلالها الماما دقيقا بالقانون ، ولسانا ذربا بليغا فى الدفاع !

وكانت كروم العنب متراصة فى صفوف منتظمة تجعل مهمة الاشراف على الحصاد سهلة ٠ وكان اللون الذى اصطبغت

به أوراق الكروم ينبىء بحلول شهر أكتوبر · وفوق التلال بدت الارض أقوى ضياء فى مواجهة السماء الشاحبة · ومن خلال الاغصان الوضاءة ، كانت عناقيد العنب القاتمة تسترعى الالتفات · وكانت حاصدات العنب وهن يسرعن الخطى ، وقد شهرن فى أيديهن السكاكين المخضبة بدماء العناقيد ، يشبهن الكهنة الذين يعاجلون الذبائح بضربة قاضية مفاجئة! ·· فاذا ما هوت العناقيد تحت ضرباتهن ، القين بها فى السلال · وكن جميعا يرفعن ملابسهن ويثبتنها الى الخلف لتسهل عليهن الحركة فوق تلك الارض الرخوة ، وقد عصبن رؤوسهن بمناديل تقيهن حرارة الشمس · وبين وقت وآخر ، كانت الواحدة منهن تنصب قامتها فتبرز فوق مستوى الكروم ، كالسمكة التى تقفز فوق سطح الماء لتتنفس قليلا ثم تغوص فى جوف الماء من جديد · وكانت بينهن عجائز مقوسات الظهور ، مجعدات الوجوه ، بطيئات الحركة ، يابسات الاجسام ، ومع ذلك فقد كن يتمتعن بقدرة على التحمل ، وبيقظة واعية لكل ما كان يدور حولهن ، حرصا منهن على الاحتفاظ بآخر فرصة لهن فى العمل بعد أن لم يعد يستخدمهن أحد

كما ضمت صفوف الحاصدات فتيات فى نحو العشرين أكثر انتصابا فى القامة وخفة فى الحركة من الاخريات ، وقد عرضن ـ بلا خوف ـ وجوههن وسواعدهن عارية لوهج الشمس الذى راح يلثم بشرتهن · وكانت هناك ـ الى جانبهن ـ صبايا لم يكتمل نموهن بعد ، فهن أقل جلدا على العمل ، يقفزن من مكان الى مكان ، فيحدثن اضطرابا فى الصفوف ، أو يجلسن فى دعة وهدوء وقد غمرتهن غبطة التلميذات الصغيرات فى الاقسام الداخلية من المدارس ، حين يسمح لهن بالخروج فى يوم العطلة المدرسية ، وقد انثنت أعطافهن انثناءة أغصان الكروم الرخصة فى أيديهن !

وأخيرا كان هناك صبية صغار سرحتهم أمهاتهم من البيوت

ليسترحن من شغبهم وضوضائهم ، فجاءوا الى الحقل يعيشون فيه فسادا ، ويحصدون العنب ولكن لحسابهم الخاص ! فكانوا يأكلون ما يحصدون ، ويلطخون به شفاههم وخدودهم ، كسكارى ماجنين ٠٠ ولكن قبل الاوان !

* * *

◆ **وفى** الطريق الذى يتوسط المزرعة ، وقفت عربة شد اليها ثوران كبيران أشقران ، لهما قرنان انتصبا على شكل قيثارة ٠٠ وكانت هذه العربة تنتظر ـ فى صبر ـ ساعة اطلاقها الى المعصرة ، بعد أن حملها الزراع بما يفوق طاقتها من أكداس العنب ٠٠ ولم يكن هؤلاء الزراع يغرقون فى الضحك كالفتيات ، وانما اكتفوا بتبادل بعض العبارات والايضاحات المختصرة ٠ وكان الصغار منهم يضعون على رؤوسهم قلنسوات بيضاء ، ويرتدون ثيابا من التيل لا تعوق حركاتهم ، على نسق زى صيادى جبال الالب الذى انتشر بين فتيان اقليم (السافوا) بدافع المحاكاة ٠٠ وبعد أن أنفذ القوم عصا خشبية صلبة فى أذنى الوعاء الطافح بالعنب حتى حافته ، تعاونوا جميعا على رفعه الى أكتافهم ، وساروا به فى خطى خفيفة متزنة ، حتى رفعوه فوق العربة ، التى وقف على سطحها شيخ مسن ذو لحية بيضاء ، أخذ يضغط بيديه القويتين العنب الذى أفعم به الوعاء ٠ وبين آونة وأخرى كان ينصب قامته ، فتبدو يداه فى شكل يبعث على التقزز ، وقد تخضبتا بدماء العناقيد

وفى مواجهة مزرعة « البرج » ، كانت أطياف المساء قد بدأت تغزو تلال (فيمين) و (سان سوبليس) القريبة من سلسلة جبال (ليبين) التى كانت تستقبل الشمس الغاربة ٠٠ بينما بدا ـ الى أسفل ـ وادى (سان تيبو دوكو) ، ووادى (ايشيل) المتعرجان ٠ **واغرق ضياء الغروب الكرم بأصباغ**

من الارجوان والذهب ، فكشف حاصدات العنب فى صفوفهن المتراصة ، وأحاط بهالاته رؤوسهن المتشحـة بالمناديل ، وراح يتراقص على قرون الثيران ، وأضرم « النار » فى لحية « خولى الضيعة » الغبراء ووجهه الاحمر ، وهو واقف فوق العربة ٠٠ كما أضــاء وجه مسيو روكفيار الذى بدا ممتلئــا بالحيوية تحت حافة قبعته ٠ والى أعــلى ، انعكس الضياء عــلى برج « مونتاينول » الشــامخ ليرتمى آخر الامر فى جــراة ، متـوجا صخرة (مونت جرانييه) ذات الشهرة الخرافية القديمة

وكانت العاملات قد تجمعن حول بعض الكروم الباقيــة يقطفن عناقيدها الأخيرة ٠ ولم يكد الوعاء الاخــير يرفع الى العربة ، حتى صاح الشيخ المسن « جيريمى » من فوقها متهللا : « ها نحن قد انتهينا أخيرا يا سـيدى المحامى » ٠٠ فســأله السيد : « كم بلغ عدد العربات ؟ »

ــ اثنتا عشرة

فقال : « انها سنة طيبة » ٠٠ وأردف ، وقد بدأت الثيران سيرها ، تتبعها جموع العاملات : « فلأمض أنا بدورى ! »

وبلغت العاملات قمة التل وهن يحملن سلالهن فى أذرعهن وسكاكينهن أو مناجلهن فى أيديهن ٠٠ وهناك ، أحطن بمسيو روكفيار ، الذى غرس عصاه الحديدية فى الارض ، وأخرج من جيبه كيسا صــغيرا تناول منه قطعا من النقود النحاســية والفضية ٠٠ **فــكفت من كانت تتـكلم منهن ، ولذن جميعـا بالصمت ٠٠ كانت لحظة لها رهبة خاصة ٠٠ لحظة توزيع الاجور !**

وخلف الجمع الحاشد ، كانت ألواح من الزجاج وأسطح من الأردواز تعكس ــ كالمرايا ــ آخر ومضات الشمس الغاربة ٠٠ وأخذ صاحب الضيعة ينادى كل عاملة باسمها المجرد فى غير ما كلفة ٠٠ فقد اعتاد رؤية المسنات منهن طوال حياته ، كما عرف الأخريات منذ حداثتهن ٠ وأقبلن جميعـــا يتسلمن أجر يومهن ، مشفوعا بكلمة رقيقة منه كن يجبنه عليها بقولهن :

« شكرا ياسيدى المحامى » •• أما اذا صادف عاملة منهن أظهرت كسلا ، أثناء العمل ، فانه كان يخصها بكلمة توبيخ ، تخفف من وقعها لهجته الرقيقة ، كى يظهر لها أن عين السيد يقظة لا تغفل !•• ومع أن الأطفال كانوا يتقاضون أجرهم عينا ـ من العنب ـ فانه لم يبخل عليهم أيضا ببضعة دراهم تدخل السرور على قلوبهم

* * *

◆ **وقال** مسيو روكفيار مداعبا ، أثناء انهماكه فى دفع الأجور : « فلتلتزم اللواتى قبضن أجرهن ناحية اليسار حتى لا يختلط على الامر فأكرر الدفع الى ما لا نهاية ! » •• فأجابته فتاة حسناء فى نحو الثامنة عشرة أو العشرين : « لا ضير فى ذلك على أية حال !» •• ولم تكن تلك الفتاة تغطى رأسها كزميلاتها ، وكأنما كانت تتحدى بشبابها حرارة الشمس •• وقد تدلت على جبينها خصلات من شعرها الاشعث ، ونمت سمات وجهها على أنها من طبقة العامة •• غير أنها كانت موفورة الصحة ، ذات فم بالغ الاتساع ، وعينين حادتين ، وبشرة ذهبية فى لون حبات العنب البيضاء الممتلئة ، التى صيرتها الحرارة شقراء ، والتى بدت كما لو كانت مفعمة باكسير الشمس

وحدجها مسيو روكفيار بنظرة فاحصة ، ثم قال لها : « لكم ترعرعت بسرعة يا كاترين ! •• فمتى تتزوجين ؟» •• فارتج القول على الفتاة ازاء هذه المفاجأة العلنية • ثم لم تلبث أن أجابت وقد احمر وجهها سرورا : « هذه مسألة تحتاج الى تفكير !» •• فضحك السيد وأردف يقول : « **انك تروقين للعين على كل حال يا كاترين** » • ونفحها بقطعة من النقود شفعها بهذه النصيحة فى لهجة حازمة : « **كونى عاقلة أيتها الصغيرة، فان الفضيلة أهم من الجمال !** » •• فأمنت على قوله بغير ابطاء:

« هذا صحيح يا سيدى المحامى »

وبعد أن فرغ مسيو روكفيار من عملية دفع الأجور ، نظر الى الجميع متسائلا : « أمسرورات أنتن جميعا ؟» • واذا بعشرين صوتا تجيبه معا بكلمات الشكر • وهنا أشار طفل بأصبعه الى امرأة عجوز انتحت مكانا قصيا فى خجل وانكسار ، وقال: « ها هى ذى مدام فوشوا ! » •• ولم يأبه أحد لاشارة الطفل، وكأن العجوز لم تؤد عملا تستحق عليه أى أجر •• بينما استأنف مسيو روكفيار حديثه الى العاملات ـ قائلا بصوته اللطيف : « والآن أسعد الله مساءكن ، سوف تصلن الى (سان ـ كاسان) و (فيمين) قبل هبوط الظلام » ، فرددن عليه قائلات : « أسعد الله مساءك أيها السيد المحامى »

ووقف السيد روكفيار فى مكانه يرقب حاصدات العنب وهن يبتعدن ، وقد أخذت ظلالهن تتضاءل ـ أمام الشمس الغاربة ـ حتى تلاشت تماما ، بينما ظلت أصواتهن تتصاعد اليه من أسفل التل •• ثم انقسمن الى فريقين : فريق اتجه الى (فيمين) ، والآخر الى (سان ـ كاسان) •• وراح هذا الفريق الثانى يردد الاناشيد والأغانى الريفية الشائعة •• وكانت الشمس المحتضرة قد لامست الجبل فى تلك الاثناء

أما المرأة العجوز ـ « مدام فوشوا » ـ فقد ظلت واقفة الى جانب السيد ، لا تتحرك أو تطالب بشىء ، فناداها باسمها قائلا : « بيبريت ! » •• واذ ذاك مالت برأسها الى الامام ، فبدا وجهها وقد ارتسمت عليه دلائل الألم والقلق أكثر مما ارتسمت عليه تجاعيد الشيخوخة ، وتمتمت تقول : « مسيو فرانسوا » •• فأجابها : « هاك مائة درهم ، خذيها واذهبى لتناول الحساء فى المنزل » •• فنظرت العجوز الى الدراهم البيضاء فى يدها الخشنة ، وقالت : « لكن هذا أجر ثلاثة أيام ، وليس لى سوى أجر يوم واحد ؟!»

ـ لا بأس • خذيها ! وكيف حال ابنتك ؟!

ــ لقد سافرت الى (ليون)

ــ وهل وجدت عملا هناك ؟

فتركت العجوز ذراعيها تسقطان الى جانبيها ، ولم تحر جوابا !٠٠ فعاد السيد يسألها : « لكنها يجب أن تعمل »

ــ انها لا تستطيع العثور على عمل منذ قضى عليها ٠٠ بأنها لصة !

ــ فأجاب المحامى ، محاولا أن يلتمس للابنة عذرا مخففا : « انها قد ارتكبت فعلتها بدافع الطيش والاستهتار والغرور ٠٠ انها ليست شريرة بطبعها ، وفى مثل سنها يمكن اصلاحها ٠ ولكن من أى مورد تعيش الآن ؟»

ــ ومن أى مورد تريدها أن تعيش ؟ ٠٠ من الرجال الضالين!

ــ وكيف عرفت ذلك ؟

ــ لقد أرسلت اليها فى الأيام الأولى من محنتها حوالة بريدية بمبلغ صغير لمساعدتها ، ولكنها ردتها الى مرفقة بحوالة أخرى بمبلغ كبير ٠٠ فما كان منى الا أن أحرقتها !

ــ ماذا أحرقت ؟

ــ أحرقت المال الذى جاء ثمرة العار ياسيدى فرانسوا !

وهنا انتصبت قامة الفلاحة العجوز من الغضب ، ورفعت يدها الى السماء مهددة ، كما لوكانت تتهم القدر ، واستطردت تقول : « **لست أعرف كيف أنجبت هذه الابنة !٠٠ لم يكن فى أسرتنا سوى أناس شرفاء ، أما الآن فان الخزى يغمرنى !»**

ــ لكنها ليست غلطتك ياببيريت !

فهزت المرأة رأسها ، وأجابت فى لهجة التوكيد : « **انها غلطة الأسرة دائما ! وانت أول من يعرف ذلك جيدا ، لأنك انت الذى قلت هذا !»** ٠٠ فقاطعها متسائلا فى دهشة : « أنا ؟ » ٠ فقالت : « أجل ، انت ٠ قلته لها أمامى قبل صدور الحكم عليها ٠ فقد كان القلق يساورنى من ناحيتها ، فجئت بها اليك ذات يوم ٠٠٠ »

ـ أذكر ذلك •• وماذا قلت لها ؟

ـ لقد قلت لها انه اذا أتيحت للانسان فرصة الانتماء الى أسرة شريفة ، فعليه أن يصون هذه النعمة باحترام كرامة الأسرة ، اذ جرت العادة فى الأسرات على أن يتقاسم جميع أفرادها الخير والشر •• وثمار الخلق الطيب ، وتبعات الخلق المعوج !

ـ ولكن أحدا لا يستطيع القاء تبعة تصرفات ابنتك على عاتقك

ـ ولكن الناس يحملوننى التبعة رغم ذلك •• ولهم العذر ، فقد شاء القدر أن يموت زوجى وهى ما زالت صغيرة

ـ لوكان زوجك حيا لدافع عنها !

ـ بل قل لدق عنقها !

ـ وانت ، هل ما زلت تحبينها ؟

ـ انها ابنتى !

ـ خففى عنك يابيبريت ، ولاتستسلمى لليأس ، فان الأمل لايضيع طالما ظل الانسان على قيد الحياة • هيا عودى الى المنزل ، فانى ذاهب الى المعصرة لأرى ان كانت الدنان قد وصلت سالمة !

ـ شكرا ياسيدى فرانسوا

* * *

◆ **وكانت** المرأة قد اعتادت القيام ببعض الأعمال فى مزرعة «البرج» ، كغسل الملابس ، وحصد العنب ، والعمل فى المطبخ فى غياب الطاهى • ولم يبادر مسيو روكفيار الى الانصراف بعد ذهابها ، بل راح ـ بنظرات المحب الواله ـ يتأمل الأرض المنبسطة تحت قدميه •• ويرمق الكروم وقد جردت من عناقيدها التى كان يجد فى عصيرها فتنة الأرجوان والذهب •• ويرقب المروج والمراعى التى حصدت مرتين ••

وذلك المجرى الصغير المجهول الاسم ، الذى كان يفصل بين مقاطعتى (كونيان) و (سان ـ كاسان) ٠٠ وغابات البلوط والزان التى بدت تحت سماء الخريف أشبه بباقة باهتة ٠٠

ولم يكن يقرأ على صفحة هذه الارض ـ المتباينة الزرع ـ قصة تعاقب الفصول ، وانما راح يقرأ تاريخ أسرته : فهذا الحقل اشتراه جده « فلان » ، وذاك الكرم زرعه جد آخر ٠٠ وهو ، ألم يتجاوز حدود المقاطعة ، كى يضيف الى المزرعة هذه الأشجار الكثيفة التى حان قطافها ؟٠٠ واذ استدار الى مبانى المزرعة ، تعرف على الكوخ القديم المتواضع الذى بناه الفلاحون الأوائل من اسرة « روكفيار » ـ والذى أعيد ترميمه بعد ذلك مرارا ـ فقارنه بمسكنه الراسخ الدعائم ، الفسيح ، الذى يزينه كرم مزدهر بكر ٠٠ **فى هذه البقعة ولد أسلافه وعاشوا ، وفيها يعيش الأحفاد الآن ، وقد زادهم قوة ـ من الناحيتين المادية والمعنوية على السواء ـ ماض عريق من الشرف ، والعمل الدؤوب ، والمال المدخر ٠ واشتد اعتزازه بنسبه وهو يكرر لنفسه العبارة التى قالتها له العجوز « فوشوا » منذ لحظات : « انها غلطة الأسرة دائما !»٠٠ لقد أمدت أسرته البلاد برجال أكفاء فى أداء الواجب العام ، وفى ادارة شئونهم الخاصة على السواء ٠ وهكذا تدعم الأجيال المتعاقبة بعضها بعضا من أجل رفاهية الجميع !٠٠** أو لم يعبد له أجداده الأقدمون الطريق ؟٠٠ ولقد اشتهوا قبله أن يتملكوا هذه الأرض التى يطأها الآن بقدميه ، وخلب لبهم هذا الأفق الذى يحتويها بين أحضانه !

وأحس بشىء من الألم وهو يرد طرفه عن أملاكه ، ليتأمل من جديد ما كانوا قد رأوه قبله من مجموعة الخطوط والألوان التى يتألف منها المنظر ، والتى تركزت فيها مشاعرهم ، كما تتركز فيها مشاعره الآن ! ٠٠ ذلك أن المزروعات تستطيع أن تغير من شكل الأرض ، بينما يعجز الانسان عن أن يحدث

فيها أى تغيير ٠٠ لا فى صبغتها ، ولا في مدى اتساع رقعتها ٠ انه قد يضيف اليها بعض التعديلات المميزة فحسب ، كبيت ينبعث من سطحه دخان يوحى بأنه مأهول ويثير فى النفس الحنين الى الدفء ، أو طريق ، أو سـياج ، أو ناقوس يدعو بدقاته الى الصلاة !

والى جانب شعور السيد « روكفيار » ـ فى وحـدته تلك فوق التل ـ داخله ارتياح انبعث عن اتصاله الروحى بأسلافه، فأحس بما كان لهذه البقعة من قيمة فى المـاضى السحيق ٠ وسرح بصره ، فاذا سلسلة جبال (ليبين) في مواجهتـه ، وقد حفت بها حمرة الشمس الآفلة ، وقطعت استرسـالها الرتيب مرتفعات (سنيال) ٠ وانحدر بصره الى السـهل ، فانطلق لحظة مع طريق (ايشـيل) البـديعة ، التى كانت السفوح الدنيا للجبال تحف بها وكأنها تحرسها ٠٠ ثم صعد بصره الى النتوءات البارزة فى جبال (كوربيليه) و (جواني) و (جرانييـه) ، ليرتد من جـديد الى التـلال القريبـــة ، والوديان المتدرجة ذات التعرجات المتناسقة ٠ وتمثل الرجل صفات من أسلافه فى هذه الطبيعة المتباينة التى تصـور الجبروت آنا ، وتصور الخمول آنا آخر ٠٠ فهى ـ من ناحية ـ تمثل بسالة جده الذى وهب نفسه للجيش فى عهد الثورة ٠٠ وهى ، من ناحية أخرى ، تصور له ترهل أبيه الذى أوشك أن يعرض هذا التراث المقدس للضياع ، باستسلامه لحياة الدعة!

وأخذ يحدث نفسه : « **لن يستطيع أحد أن يستوعب مثـل روعة مغيب الشمس عن هذا المكان ٠٠ لسوف يفطن الى هـذه الروعة ـ بعـد موتى ـ أحـد أولادي ٠ ٠ أولادى الذين سيواصلون أداء الرسالة ، ويكونون ذرية صالحة !** »

* * *

• وعلى ضوء الماضى ، أخـذ يستعرض المستقبل فى ثقـة

واطمئنان ، فلم يفطن فى استغراقه الى آمرأة غادرت المنزل وأخذت تسعى اليه ٠٠ وكانت امرأة متقدمة فى السن ، تضع على كتفيها شالا قاتما ، وتتكىء على عصا ، وقد بدا عليها الاعياء الشديد ٠ وكان وجهها ـ الذى انعكست عليه ظلال المساء ـ يوحي بما كانت عليه في شبابها من جمال أذبلته السنون دون أن تفقده سمات الطهر والبرآءة التى كانت تأخذك منه فى البداية ، ثم تجتذبك !٠٠ كان ذلك الوجه صورة حية لنفس مستقيمة مبرأة من كل شر ، ونزاعة الى التصوف !

وسألت « مدام روكفيار » ـ اذ كانت هى القادمة ـ زوجها: « ألم يصل الأولاد بعد ؟» ٠٠ فأجابها : « هاهم أولاء قادمون يا فالنتين » ٠ وكان الزوجان يعنيان أولادهما ٠ وأشار الزوج بيده الى جمع غفير يصعد الطريق من أسفل المنحدر ، وعلى رأسه طفلان تعرفت عليهما جدتهما ، فقالت : « ها هما بيير وأدريين ، يسلكان الطريق المختصرة ٠ ولكننى لا أرى الصغير جوليان ؟»

ـ لا بد أنه ممسك بيد خالته « مرجريت » ، فهو لا يتركها مطلقا

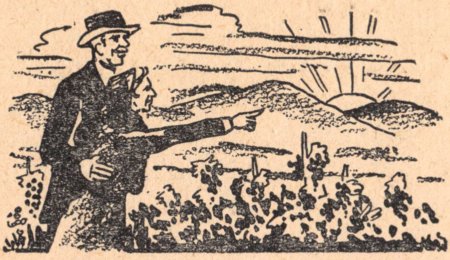
ـ هذا صحيح ، فانى ألمحه بين مرجريت وخطيبها ٠ ان هذا الخبيث يفصل بينهما !٠٠ وأمه ، أين هى ؟

ـ انها تسير خلفهم ، فى تؤدة كعادتها ، وبجوارها أخوها « هوبير »

ـ وهل يمكنك أن تميز الوسام الذى يحلى « هوبير » به صدره ؟

فابتسم السيد « روكفيار » ، والتفت الى زوجته قائلا : « كيف تريديننى أن أميزه من هذا البعد ؟ » ٠٠ فضحكت زوجته بدورها فى سماحة ، وأردفت : « هناك شريط أحمر كبير يصعد الجبل » ٠٠ فقال الزوج مازحا :

ـ ولعلك ترين على صفحة السماء هذه العبارة : « هوبير



روكفيار : ٢٨ سنة ، ضابط فى مشاة البحرية ، أنعم عليه بوسام البسالة فى الحرب ، مرشح للترقية ، وقد اشترك فى حملة الصين والدفاع عن بيتانج » !

فقالت الزوجة فى تأكيد : « اننى أقرأها بوضوح ، دون ريب !» ٠٠ ثم نظرت من جديد الى الطريق بعين فاحصة وتساءلت : « وموريس ؟ لست أرى موريس » ٠٠ فأجابها : « انه يسير فى المؤخرة على ما أظن ، مع شخص آخر » ٠ فوضعت مدام روكفيار يدها على كتف زوجها فى ارتياح وأردفت : « لعله شارل مارسيلاز ، زوج ابنتنا ٠ لقد اكتمل عددهم ٠٠ اننى أراهم الآن وأحصيهم كما كانوا صغارا : جيرمين ، وهوبير ، وموريس ، ومرجريت ٠٠٠ » ، فقاطعها زوجها : « لا ينقصهم غير فيليسى التى نفتقدها دائما » ٠٠ **وغامت على وجهه سحابة من الكآبة ٠٠ فهو لم يكن قد ألف بعد غياب ابنته الثانية ، التى عبرت البحار لتكون راهبة تقف حياتها على العناية بالمرضى الفقراء فى مستشفى (هانوى) بالصين !**

واتكأت الأم بقوة على كتف زوجها وقالت : « كلا يافرانسوا ٠٠ انها ليست بعيدة عنا ، فهى معنا بروحها ٠ اننى موقنة

بذلك ، وأحسه . لقد قابلها هوبير قبل عودته من الصين فوجدها سعيدة .. وسيأتي يوم نلتقي فيه جميعا ! » .. فلم يشأ الرجل أن يترك لعواطفه العنان أمام زوجته ، بل قال مغيرا مجرى الحديث : «انه ليس شارل الذى يسير بجوار موريس .. انها امرأة . ولقد تركا الطريق المختصرة ليسلكا الطريق الطويلة»

ـ لعلها تكون مدام فرازن . هل ترى زوجها ؟

ـ نعم ، انها هى .. ولكنى لا أرى زوجها موثق العقود !

ـ انه سيأتى مع شارل بعد قليل ، فان عملهما يعوقهما حتى الساعة السادسة

ـ أن فرازن وزوجته سيتناولان العشاء هنا الليلة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، فلقد سألنى موريس أن ادعوهما للعشاء لانه طالما دعى عندهما

ولاذ الاثنان بالصمت برهة ، وقد اعتراهما قلق واحد مشترك ! .. ثم قطعت الزوجة حبل الصمت قائلة : « **اننى لا أحب هذه المرأة !**» .. ودهش الزوج ، لا من الملاحظة ذاتها ، وانما لصدورها من زوجته التى كانت بطبعها أنموذجا حيا للسماحة ! .. فسألها ـ بدلا من أن يقر كلامها : « لماذا ؟ » .. وحدجت مدام روكفيار ـ بعينيها الصافيتين ـ الشمس الغاربة وأجابت : « لست أدرى لماذا . فان أحدا لا يعرف من أين أتت ، واننى لأرتعد عند ما أفكر فى المدى الذى تنوى أن تمضى اليه ! .. **انها ليست جميلة ، ومع ذلك فان مجرد النظر اليها يكفى لاثارة قلق الأمهات على أولادهن ، والزوجات على أزواجهن !**»

ـ هذا يدعو للرثاء ! .. من الذى حدثك عنها ؟

ـ لم يحدثنى عنها أحد ، ولست أعرب آلا عما يخامرنى . **ان الذين يسرفون فى الصلاة ليسوا أقل الناس دراية بهذه الامور ! ان لهذه المرأة عينين غريبتين ، سوداوين ، يشع**

منهما لهب ! انها تخيفنى !

ـ آه ! صحيح ! ان أهل المدينة يتحدثون عنها وعن ابننـا

ـ يجب أن ننبه موريس ٠٠ ان نحذره بلا ابطاء !

ـ وكيف ياعزيزتى ؟٠٠ لسنا متأكدين من شىء عـلى وجه التحديد ٠٠ انها شائعات ، فما قيمة الشائعات ؟

ـ انها ليست شائعات ، فاننى أكاد ألمسها ٠ ان ابننا فى خطر !

فقال السيد روكفيار : « ان بعض العواطف قد تزدادتدعما اذا نحن كافحناها ! ولعلك مقتنعة بذلك ، والا ماوافقتموريس على دعوة الزوجـين ٠ ثم ان الشبان لا يطيقون مثـل هذا التدخل فى حياتهم ، لا سيما وأن موريس دكتور فى القانون: فهو شديد الاعتداد بنفسه ، والتعلق بنظريات سـخيفة عن حق الانسان فىالسعادة ، وفى أن يكون حرا فى تنمية شخصيته! ٠٠ ان باريس تثقفهم ، ولكنها تبث الثورة فى نفوسهم ، فلابد لهم من التجارب حتى يتعقلوا ويتزنوا »

ـ اذن فقد كان هذا الأمر يقلق بالك ، دون أن تحدثنىعنه!

ـ ولماذا أثير شجونك وحزنك ، وقد ضعفت صحتك

ـ أجل ، يجب أن أقوى ، اذ لابد للأم من أن تكون قوية ٠ على أن لديك أنت من القوة ما يكفى كلينا !

ـ لقد أخطأنا بوضـعه فى مكتب الاستاذ فرازن ! على أننى أردت أن أتيح له فرصة الالمام العملى بالقضايا ، لا سيمـا ما يتعلق منها بالمواريث وتصفية الممتلكات ، قبل أن يتخذ لنفسه مكتبا مستقلا ٠٠ ولما كان الأستاذ فرازن هو خليفـة الاسـتاذ كليرفال ، الذى كان صديقى ، كما كان موكلا بعقود أسرتنـا ، فقد حرصت من جانبى علىاحترام أحد تقاليد الأسرة ٠٠ ولكننى اخطأت ! على ان كل شىء لن يلبث ان يتغير عما قريب ٠٠

وتساءلت فى دهشة : « عما قريب ؟ » ، فقال : « أجل ! ٠٠ سآخذ موريس فى مكتبى حيث يتم فترة التمرين ، أو ليتدرب

على الاجراءات القضائية لدى مارسيلاز . وسأنبئه بهذا بمجرد استقرارنا فى المدينة » .. فشدت على يده قائلة : « لا بأس ، فبهذا تقل فرص مقابلته لها ! ولكن هذا لا يكفى ، فأنت تراه ميالا إلى العقل والمنطق ، أما أنا فأراه خياليا عاطفيا ، وبودى أن أشغل خياله ! » . فتساءل الأب : « وكيف ؟ »

ـ بأن أدبر له خطبة مبكرة مثلا . فان الخطبات الطويلة الأمد تشغل الشبان وتذكى وجدهم .. اننـــا فى فرنسا نتعجل الزواج ، فى حين انه أمر وثيق العلاقة بالحيـــاة وبالأسرة وبالمستقبل !

ـ هذا صحيح

ـ ولقد فكرت مرجريت فى « جان ساسيناى » الشابة

فقال السيد روكفيار : « ولكنهـــا طفلة ؟! » ، فأجابت : « طفلة جميلة نشأت فى أحضان أم قديسة ! »

* * *

◆ وقطعت عليهما الحديث صرخات الصغار : « مساء الخير يا جدتى .. مساء الخير يا جدى ! » .. كانت طليعــة الأولاد قد وصلت ، مؤلفة من « بيير » و « أدريين » اللذين راحا يلهثان تعبا ، بعد أن تسابقا فى العدو ، رغم صيحات مدام روكفيار : « لا تجريا بهذه السرعة ! » . وتلقاهما جدهما بين ذراعيــه ، فقالت « أدريين » فى جرأة ودون ما كلفة ، شأنها مع الجميــع : « لقد آثر جوليان البقاء مع عمتى مرجريت ، رغم أن أمى أوصته بأن يصحبنا ! » .. وما لبث الشبان الذين صعدوا السفح أن صاحوا بدورهم : « مساء الخير ! »

ولم يتخلف عن المساهمة فى هذا اللقـــاء العـــائلى سوى « موريس » و « مدام فرازن » الذين كانا بمبعدة ، وقد أخذا يتعمدان الابطاء ـ كلما اقتربا من القمة ـ ليظـــلا على مسافة طويلة من بقية الجماعة ، رغم أن مرجريت استدارت عدة مرات

لتناديهما • وحجبت نهاية منعرج الطريق الجبل ، الا ان موريس والمرأة استطاعا أن يلمحا السيد روكفيار وزوجته ، فوق القمة، وقد انتصبا كطيفين فى الفضاء ، واذ ذاك ألقت المرأة نظرة ذات معنى على زميلها ـ الذى أهاجت الخلوة لواعجه ـ وقالت : « لابد أن أباك كان أجمل منك ! » ، ثم عقبت بصوت خافت وكأنها تحدث نفسها : « انه يعرف بغيته وكيف ينالها ! » • فتضايق موريس ، ولكنه رمقها فى صمت ، فابتسمت لغيظه وتساءلت : « كم عمر أبيك ؟ »

ـ ستون عاما على ما أظن !

ـ ستون عاما ! •• انه يبغضنى ، ولا يحجم عن القضاء على اذا شاء !

ـ تخطئين الظن ، فهو يحسن استقبالك دائما

ـ هذه أمور يحسها المرء فى قرارة نفسه •• انه يكرهنى ، ومع ذلك فهو يعجبنى ! اننى أحب الرجل ذا الشخصية !

ودارت بهما الطريق قبل آن تبلغ منتهاها ، فكشفت لهما عن منظر جديد كانت تحده من اليمين رمال ، ومن اليسار أشجار حال لونها فأصبحت مزيجا من خضرة الربيع وصفرة الخريف الذهبية •• ولاح لهما فجأة جبل (نيفوليه) بقوامه البديع المتناسق ، وقد انعكست عليه فلول أشعة الشمس الآفلة •• واصطبغت الأعشاب النحيلة ـ التى تسلقت الصخور ـ بلون بنفسجى كلون الرواسب المتخلفة فى النبيذ ، كما تبدت فى المؤخرة سلسلة جبال (مرجيريا) وقد اكتست بحمرة وردية فاتنة ، فتمتم موريس مأخوذا : « أرأيت كيف تغير المنظر !» •• ولم يفطن الى ان صاحبته كانت اكثر احتفالا بوحدتهما منهما بجمال المساء البديع ! •• وما لبثت ان توقفت عن السير ، فالتفت اليها قائلا : « ماذا دهاك ؟ •• أمتعبة أنت ؟ »

ـ لا •• ولكننى أمنحك وقتا لتتأمل الطبيعة !

ـ أتراك تغارين ؟

ـ أجل ، فانت تحب بلدك ٠ أما أنا ٠٠

فهتف فى قلق : « أما أنت ؟ » ٠٠ فقالت : « لن أقول لك ! » ٠٠ واذ ذاك قال موريس : « أما أنا ، فسأقول لك : « انني أحبك ! » ٠٠ وضمها بين احضانه ٠٠ وكانت امرأة نحيلة ، سمراء ، ذات عينين واسعتين ، وجسد يثير المشاعر ، ولكنه لا يلين للعناق ! واذ طوحت برأسها الى الخلف قليلا ، رأى خلال جفنيها نصف المغمضين نظرة اختلط فيها السواد بذهب الغروب ، وتركزت فيها كل الغواية الشهوانية التى يثيرها فى النفس ذلك الفصل من السنة ، وتلك الساعة من اليوم ٠ وغمغم موريس وهو يضمها : « ما أضألها من مخلوقة ! ٠٠ ومع ذلك ، فان هذه المخلوقة الضئيلة تعادل الكون كله فى نظرى ! » ٠٠ وأردف : « أحبك يا أديث ! »

فقالت والابتسامة المستضعفة لا تفارقها : « أحقا ؟ » ٠٠ ولم يجب ، بل هتف فى وجد : « متى تكونين لى ؟ » ، فأجابت : **« عندما لا أكون لغيرك ! »**

ـ مستحيل ! **ـ ولماذا ؟**

ـ لأنك مرتبطة برجل **ـ فلنرحل معا !**

ـ وكيف نعيش ؟ **ـ على صداقى المدخر !**

ـ لا أحبذ هذا ٠٠ فضلا عن انك لا تملكين التصرف فى الصداق

ـ سأسترده **ـ لا ، لا !**

ـ بوسعك أن تعمل

وصمت ، فانهالت عليه بكلمات السخرية وهى مغيظة : « آه ! ٠٠ انك تؤثر ان تطيع أباك ! كن مثله رجلا كبيرا فى بلدة صغيرة ، وأبا لأطفال عديدين ! » ٠٠ واذ رأت مدى أساه ، ارتمت على صدره قائلة : « اننى أحبك ، وأعذبك ٠٠ ولكنك ترى انني أختنق في بلدتك هذه ٠٠ (شامبيرى) ! ٠٠ أريد

ان أرحل ، وان أكون حرة في أن أحبـك ، وفى أن أعيش ٠٠ فانني أمقت الـــكذب ! ٠٠ ثم انك لا تحبني ! » ٠٠ فهتــف : « كيف استطعت أن تقولى هذا يا اديث ! »

ـ لا ، انك لا تحبنى ٠٠ ولو أنك أحببتنى صـادقا ، لكنت لك منذ أمد بعيد !

وعادا يسيران على مهل ، وقد اثقلت نفسيهما هذه الاعترافات٠ وتخلص الأفق من النطاق الجبلي ، فاتسعت صفحته ، وبدت فى أقصاه ـ خلف آخر قمم (نيفوليه) ـ بحيرة (بورجيه) التى تباينت زرقتها ، اذ كان البخـار الرمادى المتصـاعد من أطراف البحيرة يخففها في تدرج بديع ٠٠ ولكنهما لم يعودا يريان شيئا من هذا « الجمـال » : لا الهدوء الخانق الذى يجثم على الكون فى هذه الفترة من السنة ، ولا تلك الروعة المضطـربة التى تتجلى بها الطبيعة ، ولا تلك الفتنة التى تشوب مساء الخريف فكأنهـا اغواء صارخ ٠٠ فما حاجتهما الى كل هذا وفى قلبيهما مثله ؟

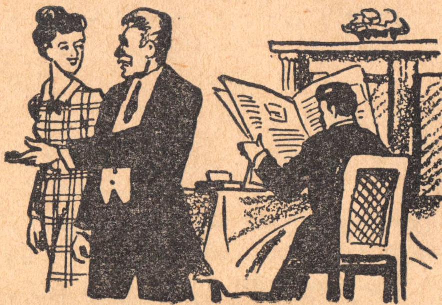
وقبيل وصولهما الى البيت ، التقيا بمدام روكفيـار التى أقبلت بنفسها لتستقبل مدام فرازن ، رغم نصح الأطباء لهـا بعدم مغادرة البيت بعد الغروب !

وفيما كان السيد « روكفيار » عائدا من المعصرة ـ فى ساعة متأخرة من المساء ، لم يكن أحد يرتقب عودته فيها ـ أبصر ابنه مع المرأة الشابة فى الظلام ٠٠ فان الحركة تنشط فى الدار أيام الحصاد ، بحيث يسهل التســلل الى الخارج ، دون استثارة أى انتباه

وهتف موريس : « لقد رآنا » ، فقالت مدام فرازن : « هـذا أفضل ! » ٠٠ وحاول مسيو روكفيار عبثا ان يطرد عنه القلق ، وهو يمر بالمخزن ـ ذاك المبنى القديم الذى شيده أســلافه ـ ليبلغ مدخل الدار التى أسسها جده ، وزادها هـو اتساعا ٠٠ وقال لنفســه متذكرا حياته : « لقـد كنت شــابا مثله ! » ٠ ولكن الشباب ذاته لم يصرفه عن تدعيم مستقبل سلالته ٠ فهل

سيتاح لابنه الأصغر – فى وقت ما – ان يصلح من نفسه ، وان يبدى من الهمة والاستعداد للتضحية ما يؤهله لشرف رئاسة الأسرة ؟ ·· **ولم يكن روكفيار بطبعه سهل الانفعال ، ولكنه أحس اذ ذاك بقنوط « مدام فوشوا » وأساها ، وبوطأة الخريف ووحشته ، تحيط به وكأنها سرب من طيور شريرة !··**
لقد كان منذ فترة يستعرض – أمام مزرعته – تاريخ آل روكفيار باعتزاز وفخر ، فاذا به ، بعد حديثه مع « مدام فوشوا » العجوز ، وبعد قبلة فاجأ ابنه وهو يطبعها ، يشعر بهم يجثم على صدره ، دون ان يجد له تعليلا ، ويشهد كيف تكتهل فصول السنة ، وكيف تنهار الأسرات !

٢ – الشقاق



◆ **غادرت** أسرة روكفيار الريف ، عائدة الى مقرها الشتوى فى (شامبيرى) ، بعد رحيل ابنها الأكبر « هوبير » ليلحق بحاميته فى (بريست) · وكانت الاسرة تقيم فى الطابق الأول من دار فخمة قديمة ، تقع فى نهاية شارع (بوانى) ، مجاورة لحصن المدينة الأثرى · وكان شهر أكتوبر قد اشرف على

نهايته ، فشغل المحامى بالقضايا وبمحكمة الاستئناف ٠ وفى ذات يوم ، فرغ السيد « روكفيار » من الغداء الذى حال المرض دون ان تشاطره اياه زوجته ، ثم استدعى ابنتـــه مرجريت — بينما كان ابنه موريس منهمكا فى قراءة الصحف — وقال لها : « تعالى معى ، فانى أبغى استشارتك » ، فتساءلت : « فى أى أمر يا أبى ؟ » ٠٠ ورمق الأب موريس الذى لم يكن يصغى اليهما ، ثم قال : « فى تنظيم جديد لمكتبى »

وكانت غرفة مكتبه تقع على رأس الشـــارع ، وهى غرفة فسيحة ، مرتفعة السقف ، تنيرها أربع نوافذ ، تشرف اثنتـان منها على الطريق المؤدية الى (سافوا) ، وتطلان على الحصن الأثرى الذى كان مقرا للدوقات الغابرين ، والذى كان مؤلفا من مبان ضخمة عتيقة ، اسودت بفعل الزمن — اذ كان عهدها يرجع الى القرن الرابع عشر — وتخللت جدرانها الملســاء نتوءات لا تكاد ترى ٠ على أن هذه المبانى العتيقة كانت تجاور — فى الجانب الأيمن — « كنيسة القديسة » ، التى كانت على شــكل زهرة رقيقة ، تقوم على غصن تألف منه أساس الحصن ٠ وكانت غرفة مكتب روكفيار تطل — من الجانب الايسر — على دار المحفوظات (الارشيف) ، التى كست جدرانها فروع اللبــلاب والكروم البرية ، وتوج هامها برج طلى باللون الابيض منذ عهد قريب ، فبدا فى انتصابه ومظهره كذلك الريش الأبيض الذى يزين رأس الطاووس (العفرة) ٠٠ **كانت هذه المبانى تنتمى الى عهـــود مختلفة ، وطرز متباينة ، وقد شيد بعضها على مهل ، وبعضها على عجل ، تبعا لموارد الأمراء المالية وطموحهم ٠ ومن ثم فانها كانت أقل اتساقا — ولكنها أفخم مظهرا — من المبـــانى التى ينشئها سيد واحد فى جيل واحد ٠٠ وكانت تضم تاريخا طويلا حافلا بساعات الهناء ، وساعات الشقاء** ٠ وكان برجا الكنيسة ودار المحفوظات يبرزان خلال أشجار كثيفة متشابكة ، زرعت فى شرفتين — احداهما فوق الأخرى — فبدت وكأنها متداخـــلة

بعضها فى بعض • وعلى حافة الشرفة الخارجية ، قام تمثالان حديثان لجوزيف واكزافييه دى ميستر • وهكذا تجمعت فى تلك البقعة الصغيرة ذكريات قرون عديدة •• وفى هذا المكان المهجور ، الموحش ـ كالقبر ـ كان الماضى يتكلم !

ومهما يألف المرء منظرا ما ، فان أى تذبذب للضوء كفيل بأن يدخل عليه تجديدا • ومع أن أشعة الشمس كانت تصلى واجهة الحصن الكئيبة ـ حين دخل السيد روكفيار وابنته غرفة المكتب ـ الا أنها خلعت لونا ورديا على الزخارف القوطية التى كانت تزين الكنيسة ، وعلى قمم الغصون التى خف ثقلها اذ بدأت تتخلص من أوراقها • كذلك أسبغت الشمس لون النبيذ على دار المحفوظات ، كما كانت تداعب قمة البرج •• فقالت مرجريت لأبيها : « ان هذا المكان يهيىء لك جو العمل •• كم يسرنى ان أراك مقبلا على العمل هنا ! » • فقال : « كنت أود لو ان أمك اتخذت من مكتبى هذا حجرة للاستقبال ، ولكنها تأبى دائما •• ولكن ، ألا تلاحظين شيئا يا صغيرتى ؟ »

وأجالت مرجريت بصرها حول الجدران ، فرأت خزانات الكتب الحافلة بالمؤلفات القانونية والفقهية ، وبضع صور للمشرعين القدامى من أجدادها ـ وقد أضفى عليهم الرسامون صرامة تفوق صرامة أحكامهم ! ـ ولوحة للرسام « بورجيه ديجار » تمثل بحيرة من أجمل معالم اقليم (سافوا) ، ثم رسما لمزرعة « فيجى » ـ مزرعة الأسرة ـ فى اطار يبرز على ما عداه • وما لبثت مرجريت ان قالت : « لا •• لست ألاحظ شيئا ! » ، فقال الأب : « لانك تتطلعين الى أعلى » •• فردت الفتاة بصرها الى الحجرة من جديد ، واذا بها تلاحظ شيئا لم تفطن اليه فى المرة الأولى •• فان المنضدة الضخمة المصنوعة من خشب البلوط ـ والتى كانت من الكبر بحيث تتسع لأكداس الملفات ـ كانت قد ازيحت من مكانها ، لتحل فيه منضدة أخرى أنيقة ، وأصغر حجما ، احتلت من الحجرة موقعا كان الجالس فيه يستمتع بأكبر قسط من

الضوء ، فضلا عن المناظر الجميلة ٠٠ وصاحت مرجريت : « أوه! ٠٠ لماذا ازحت منضدتك ؟ » ٠٠ فأجاب : « لكى أخلى مكانا لأخيك »

ـ وهل سيترك موريس مكتب فرازن ؟

ـ أجل ، سيجلس الى جوار النافذة ٠٠ انظرى من هنا ، ان الخريف يجرد الأشجار من أوراقها ٠ أما أنا فأفضل الربيع ، وهناك ـ فوق البرج ـ فرع دبت فيه الحياة فأنبتت البراعم الحمراء

ولم تكن مرجريت تصغى اليه ، بل تبدى عليها الوجوم ، ثم قالت : « موريس ٠٠ أجل ، وأنت ؟ » ٠ فقال : « يا صغيرتى ، يجب ان يشعر الشاب بغبطة فى داره ٠ أليس بوسعك ان تكملى ترتيب هذه المنضدة ؟ ٠٠ زينيها ببعض الزهور مثلا ! » ٠ ولكنها أجابت : « ليس هذا بموسم الزهور يا ابت ! ٠٠ ليس لدى سوى زهر الكريزانتيم (اللاتنيا) » ٠ فقال: « اذن هاتى الكريزانتيم ٠٠ زهرة أو اثنتين ـ لا اكثر ـ فى وعاء طويل ٠ فان دكاترة القانون يعودون الينا من باريس ، وقد أغرموا بالاشياء الجميلة ٠٠ وأنا لا أعرف الذوق ، اما أنت فزهرة الأسرة ، وفى وسعك أن تساعدينا على تعرف الذوق ! »

وابتسم فى انفعال الذى يرجو ارضاء سامعه ، ثم اقترب من ابنته الشابة ، فألقى راحته على شعرها الكستنائى القاتم الجميل ، غير محاذر من ان يخل بتناسقه ، وقال : « انك لن تلبثى أن تبرحى هذا البيت عما قريب يا مرجريت ٠ أفأنت سعيدة بزواجك ؟ » ٠٠ وبدلا من أن تجيب ، ألقت بنفسها على صدر أبيها وهى مثقلة الفؤاد ، وطفقت تبكى ٠٠ وكانت قريبة الشبه من مسيو روكفيار ، وان لم تؤت نفس قسمات وجهه ٠٠ **فقد كانت ذات قوام فارع قوى ، وأنف مدبب قليلا ، وذقن مستقيمة ٠ وكانت ـ كأبيها ـ توحى بالطمأنينة والولاء ، كما كانت عيناها الواسعتان ، السوداوان ، الشديدتا الصفاء ـ كعينى أمها ـ**

تضيفان الى وجهها رقة عميقة ، بينما كانت عينا ابيهــا ــ الصغيرتان ، الغائرتان ــ تشعان بنظرة ملتهبة حادة لايكاد المرء يحتملها !

وقال الأب وقد أقلقته دموع ابنته : « لماذا تبكين ؟ ألا يروق لك هذا الزواج ؟ ان ريمون بيرسى شاب لطيف ، من أسرة طيبة، وقد أتم دراسة الطب ، وعول نهائيا على الاقامة فى بلدتنــا ٠ أهناك ما تأخذينه عليــه ؟ ليس من الواجب ان تتزوجى من لا يميل اليه فؤادك » ٠٠ وغالبت الفتاة عواطفهــا ، وتمتمت : « أواه ! ٠٠ ليس هناك ما آخذه عليــه ٠٠ ولو أنه ٠٠٠ » ، فقاطعها متعجلا : « تكلمى يا صغيرتى ٠٠ هيا ، على مهل ! » ٠٠ ورمقته بعينين مليئتين بالاعجاب وقالت : « ولو انه ليس مثلك!» ٠٠ فهتف : « انك لسخيفة ! »

واذ هدأ روعها قالت : « لست أدرى سر بكائى ٠٠ كان يجب أن أكون سعيدة ، ولكن ٠٠ ألم أكن سعيدة هنا ؟ ٠٠ ان طفولتى تعاودنى الآن بمباهجها واشراقها ، فأشعر بأسى طاغ لمغادرة هذه الدار » ٠ فراح يسرى عنها ، قائلا فى وجوم : « لا تنظرى الى الوراء يا مرجريت ، فان هذا جدير بأمك وبى ٠ أما أنت ، ففكرى فى مستقبلك كامرأة ، وأقبــلى على هذا المستقبل دون تراخ ! » ٠ فقالت وهى تحاول الابتسام : « أن مستقبــلى فى أسرتى » ، فعقب قائلا : « انه فى الأسرة التى تنشئينها ! »

ــ كثيرا ما نصحتنى يا أبت ، أثناء تلك النزهات التى كنــا نقوم بها معا فى الشتاء ، بأن أحافظ على تقاليدنا !

ــ ولكن التقاليد لا تحفظ ــ أيتها المجادلة الصغيرة ــ داخل صوان الثياب ، كما يفعل جارنا فى الريف « الفيكونت ديلا مورتيلليرى » ، الذى يحتبس نفسه ليعيد تنسيق شــعارات اسرته وشجرة نسبها ، والذى يعجب لأن فلاحيه يجرأون على ارتداء الأحذية الطويلة الرقاب ! ٠٠ كذلك لا تصان التقاليــد فى دار عتيقة ، أو ضيعة قديمة ، بالرغم من ان الاحتفــاظ



.. وهتف موريس : « أن أبى قد رآنا ! » ..
فقالت مدام فرازن : « هذا أفضل !! » (ص ٢٨)

بالتراث من الأمور الهامة ٠٠ انما تمتزج التقاليد بحياتنـــا وبمشاعرنا ، لتقوى وتزداد قيمة وبقاء !

وعادت ترمقه بعينيها الواسعتين المليئتين بالاعجـــاب ، ثم همست : « لشد ما أنا متعلقة بهـــذا البيت ! » ، فأجاب فى حزم : « لا ، لا ٠٠ ان الزواج يبدو دائما كمجهول محـــوط بالغموض ، ومن ثم فانى أدرك ان هذا التغيير ـ الموشـــك أن يطرأ عـلى حياتك ـ يشـــغل بالك ، ولـكن من الواجب أن تكونى مبتهجة ومرحة وأنت تغادرينا ، مالم يكن لدى قلبـــك أو عقلك اعتراضات جدية على هـــذا الزواج ٠ لقـــد كنت سعيدة بيننا ، وفى هذا ما يعزينى ٠ هيـــا اذهبى فاحضرى زهورا ، واستدعى موريس ! » ٠٠ فقالت : « سمعا يا أبت ! »

وان هى الا لحظات ، حتى عادت مرجريت تحمل « زهرية » نسقت بها الورود ٠٠ وبحركة رشيقة من يدها ، تغير مظهـــر المنضدة المعدة لأخيها ٠ وألقت نظرة نمت عن ابتهاج ، وقالت : « لقد كانت عندى بقية من ورود ، هى الأخيرة فى الموسم ٠٠ ها هى ذى ، فى الزهرية التى يتبدل لونها تحت أشعة الشمس ، كما تفعل زهور عباد الشمس ٠ ما أجملها ! » ٠٠ فردد السيد روكفيار قولها : « ما أجملهـــــا ! » ٠٠ وكان يعنى ابنته لا الزهرية ، فضحكت وفرت من الحجـــرة قائلة : « سأهرع الآن لاستدعاء موريس »

* * *

◆ **ولبى** الشاب نداء أختـه دون تمهل ٠ وقال وهـــو يلج حجرة مكتب أبيه ـ ممسكا بقبعته وعصاه وكأنه يتعجل مغادرة البيت : « ألديك ما تريد أن تقوله لى ؟ » ٠٠ وكان فى مثل طول أبيه وقوامه ، ولكنه كان أنحف منه جسما ، وأنصع بشرة ٠ ومع أنه كان أكثر منـــه أناقة ورشاقة ـ أيضـــا ـ الا انه لم يؤت ما أوتيه الأب من سيماء العظمة ، سواء فى مظهره أو فى مسلكه

.. ولا ذلك الجلال الطبيعى ، الذى بذل السيد روكفيار – فى تلك اللحظة – جهدا للتخفف منه ، ولابداله بروح الزمالة والود، وهو يقول : « تأمل كيف أعدت مرجريت منضدتك ! » . فهتف الشاب فى عجب : « منضدتى ؟ »

– أجل ، هذه المنضدة ، ذات الورود .. انك ترى – اذ تجلس اليها – الحصن والشمس .. ألا تريد ان تتم مرحلة التمرين معى ؟

وأخذ شعاع من الشمس يداعب الورود ، بينما كان برج دار المحفوظات والقصر يسبحان فى النور . وكشف ضوء النهار عن وجه السيد روكفيار الذى كان يتلطف الى ابنه فى عبارات رقيقة مؤثرة .. ولكن الأبناء لا يعرفون صبر الآباء الا بعد فوات الأوان ، وبعد أن يمارسوا مهام الأبوة . ومن ثم تساءل موريس : « أتقصد انتى يجب ان لا أعود الى مكتب فرازن ؟ » .. فأجاب الأب : « نعم فلا نفع لك فى العودة . لقد ألممت تماما بقانون المواريث ، ويحسن بك أن تتبع سير القضايا ، وأن تحضر الجلسات . وان شئت ، ففى وسعك ان تقضى بضعة أشهر لدى شارل ، زوج أختك ، الذى يستطيع أن يبصرك بالاجراءات الجنائية – فهو من المحامين المعدودين ، ومن أكثرنا حصولا على القضايا – على أن تتقدم بعد ذلك للمرافعات . وان شئت فان لدى قضية بديعة أقدمها اليك ، بشأن صحة عقد من عقود البيع »

قط لم يترافع مسيو روكفيار بمثل ذاك الحذر وتلك الرقة . ولكن الشاب تركه يتكلم وراح يفكر . ثم قال : « كنت أظن ان من المتفق عليه ان أقضى ستة أشهر فى مكتب الأستاذ فرازن » .. فأجاب الأب : « حسنا ! هاقد أوشكت الأشهر الستة على الانتهاء . فلقد بدأت فى يونيو ، ونحن الآن فى نهاية اكتوبر» .. فقال الابن مماطلا : « ولكننى حصلت على عطلتى فى شهر أغسطس ، وقد انتهت منذ عهد قريب ، وأنا أفحص الآن بعض

قضايا التصفية الهامة » . فرد الأب في حزم : « **ستعالج في المحكمة قضايا من هذا النوع ، فهي تنتهي في أغلب الأحيان الى المحكمة . وقد قبلت في هذا الموسم عددا من القضايا الفريدة ، وسوف تساعدني . فاذهب واحضر حافظة أوراقك من عند الأستاذ فرازن ، وامكث هنا** »

ـ ان الأستاذ فرازن متغيب ، ومن الأليق أن أنتظر أوبته

كان موريس يتلمس الأعذار ، ولكن أباه لم يحفل بأعذاره ، بل قال : « لسوف يعود غدا ، وقد أخطرته ـ على أية حال ـ قبل رحيله » .. ووجد موريس في هذا النبأ فرصة للتنفيس عما جاش في صدره ، فصاح : « **هل أخطرته قبل ان تسألني رأيي ؟ .. اذن فسأكون دائما طفلا ، هنا ، تتصرف في كأنني سلعة . ولكنني لن أرضى بأن ينتزع مني استقلالي . انني حر ، وأطالب بأن استشار ـ على الأقل ـ لا سيما فيما يتعلق بي !** »

ازاء هذه الثورة التي كان السيد روكفيار يتوقعها ويدرك سببها الخفي ، راح يرمق ابنه في هدوء رغم ما شاب الحديث من بعد عن الاحترام .. كان يعرف ان الجياد الجموحة صعبة المراس ، وكذلك حال الشخصيات ذات الارادة الصلبة المعتدة . ومن ثم أجاب في بساطة : « **انك ابني سواء أكنت صغيرا أو كبيرا ، ولذلك فاني أعاونك على اعداد مستقبلك !** » . ولكن الشاب مس العقبة التي كان كلاهما يتفاداها حتى تلك اللحظة ، اذ قال : « فيم التستر ؟ انني أعرف تمام المعرفة السر في انك تريد اقصائي عن مكتب فرازن » . ولكن حضور بديهة الأب مكنه من تفادي الاصطدام ، فقال : « **أتراك ستكون في مكتبي أسوأ حالا ؟ وهل تظنك تستطيع ان تستغني ـ في استخفاف ـ عن توجيهاتي ؟ .. هل سيكون استقلالك مهددا لأنك ستفيد من خبرتي المهنية ، ومن الأربعين عاما التي قضيتها في المحاماة ؟ .. انني لا أفهمك !** »

وشعر بأنه أفحمه ، فسعى لاستكمال نصره بشيء من الحنان ،

فقال : « ان أمك مريضة ، وأختك لن تلبث أن تبارحنـــا ، وستخف وحشتي بوجودك ! » ٠ وتريث لحظـة وهو يأمل فى أن يكون قد بدد العاصفة ، ولكن موريس ظن بعد تردد - اذ كان فى قرارة نفسه يعجب بأبيه - ان بوسعه ان ينتصر على هـذا التلطف ، فعاد يحمل على العنصر المفقود فى المعركة : « أجل ، لقد وشى الناس بى لديك من أجل مدام فرازن ، فمــاذا قالوا لك ؟ ٠٠ اننى أريد ان أعرف ، فان من حقى أن أعرف ٠ آه !٠٠ ان الحياة لا تطاق فى الأقاليم ! فالمرء فيهــا يكون مراقبــا ، يتجسس الناس عليه ويحصون حركاته ، ويقيدون من حريته ٠ **ان أنبل العواطف تصبح فى الأقاليم نهبا لألسنة كل من تقيم البلدة له وزنا من المنافقين الحاسدين والانتهـازيين** ! ولكننى لا أصدق انك يا ابت قد أصغيت لهذه الشائعات الوضيعة التى لا تتورع عن النيل من أشرف النساء ! »

وكف السيد روكفيار عن التستر ، فقال : «لقد تركتك تتكلم يا موريس ، فاسمعنى الآن ٠ اننى لا أحفل قط بما يقال ، ولا أسألك عما اذا كان من الصحيح انك تقضى فى غرفة الاستقبال فى دار أستاذك - وهو الكثير التغيب فى أعماله - وقتا أكثر مما تقضى في المكتب ٠ ان جميع الأسباب التى أبديتها لك صحيحة ٠ أما وقد أثرت هذا الموضوع ، فاننى لن أتهـرب من المناقشة ٠ أجل ، اننى أرجوك ان تستكمل فترة تمرينك عنـدى ، بسبب هــذه المرأة ٠ وهو طلب طبيعى منى ! ٠٠ وأنا لست فى حاجة لأن أصغى الى أية شـائعة ، اذ يكفينى ما رأيت بعينى ! » ٠٠ فتساءل الشاب : « وما الذى رأيت ؟ »

- لا جدوى من ذلك ، فلا تصر

- ولكنـك تتهمنى ، فمن حقى أن أعرف

- وهو كذلك ! عندما تستقبل أمك بعض الضيفات القادمات بدعوة منك ، فمن واجبـك ان تحترم البيت الذى نعيش تحت سقفه ، على الأقل ! وما أراك الا قد أدركت ما أشير اليه

وأطاش الغضب رشد موريس ، فعاد مرة أخرى الى الاندفاع فى تلمس الاعذار لتبرير عاطفته ، قائلا : « ان حياتى الخاصة جديرة بالاحترام كذلك · ولست أريد تدخلا فيها ! لقد أرضيتك فى جميع الأمور التى يجب ان أقدم لك عنها حسابا » ·· وهتف الأب : « موريس ! » ، ولكن الشاب مضى قائلا : « لقد اجتزت امتحاناتى بتفوق ، و عدت من باريس بعد ست سنوات ، دون أن أكون مدينا بدرهم لأحد · فأى لوم ترانى أستحق ؟ ·· انك كذلك لا تستطيع ان تأخذ على اننى كنت على أية علاقة وضيعة بالحى اللاتينى ، على غرار بقية الطلبة ! »

ـ اننى لا أوجه اليك اى لوم ، أيها الطفل التعس ··

ـ اننى لست طفلا !

ـ ان المرء يظل دائما طفلا أمام أبيه ! ألا تفهم أنك لم تحافظ على شبابك الا بفضل العمل والعزة وتقاليد الأسرة التى بثت فيك النظام والاستقامة ·· وان هذه المرأة التى تكبرك سنا بكثير ، والتى لم أكن البادىء بذكر اسمها هنا ، شديدة الخطر عليك ؟ ·· أفتعرف ـ على الأقل ـ حقيقتها ؟

فصاح موريس : « لا تتحدث عنها » · ولكن السيد روكفيار أجاب فى لهجة صارمة مهيبة : « بل سأتكلم عنها · ألست أنا رب الأسرة ؟ فبأى حق تفرض على السكوت ؟ أفتخشى أن أنزلق الى حديث لا يليق بكرامتى ؟ ·· انك اذن لا تعرفنى » ·· فعاد الشاب يقول : « ان مدام فرازن امرأة شريفة » ·· واذ ذاك قال الأب : « **أجل ، انها من أولئك الشريفات اللائى يعمدن الى اللعب بالنار من قبيل التسلية ، واللائى لا يتورعن عن هذا العبث ولو فى قاعة الجلوس ، ولا يتعففن عن اللهو مع كل الرجال ، حتى المكتهلين منهم ! ·· انها من اولئك الشريفات ـ من نساء هذه الأيام ـ اللائى قرأن كل شىء عدا الانجيل ، ووعين كل شىء الا الواجب ، ولم يحجمن عن أى شىء سوى الفضيلة ، وأكبرن كل الحريات ، ولكنهن ازدرين عمل الخير الذى**

لم يضن عليهن به أحد ! ٠٠ ولماذا يكن شريفات ؟ ٠٠ لا أحد يدرى لذلك سببا ٠٠ فلا الايمان يردعهن ، ولا الحياء يوقفهن عند حدهن ! أما الشرف ، فعقيدة لا يعتنقهـا سـوى الرجال فقط ! انهن متمردات ، لا يشبع المرء من كلماتهن فى الشباب ، فاذا أوشك الشباب أن يدبر ، تجلت الحقائق الواقعة ٠ ان هذه الشابة زوجة رجل ناضج ، فكان جديرا بها أن تذكر أنه يأويها ويطعمهـا ، وانها كانت ــ حين التقطها ــ لا تملك درهما ! »

ــ هذا غير صحيح ٠٠ فقد كانت تملك صداقا قدره مائة الف فرنك

ــ ومن قال لك هذا ؟ ــ هى نفسها

ــ وددت لو كان هذا صحيحا ، لولا ان صـديقى الحميم كليرفال ، الذى عرفهما بنا عندما خلفه فرازن فى مكتبـه ، قد أنبأنى بكل شىء ٠٠ وهو رجل لا يلقى الكلام جزافا ٠ فلقـد انبأنى بأن هذه المرأة موزعة بين خوف الفقر ــ أو خوف الضيق المالى على الأقل ــ وبين الخوف من زوجها الذى لا تشى أساريره بما يطمئنها ٠٠ وانها قد وازنت بين الحالين ، فآثرت البقـاء مع زوجها ٠٠ وهذا مدى مالديها من حكمة !

وتقدم موريس خطوة ، وهو يرتعد مما لحق بمعبودته من اساءة ، وصاح : « كفى يا أبت ٠٠ أرجوك ! لا تتهمها بالنذالة ، ولا تتحد جرأتها ! أؤكد لك أنك تخطىء بذلك ، ولست أبغى أن أنصت للتشهير ، ومن ثم فسأنصرف !» ٠٠ واذ ذاك قال الاب فى حزم صارم : « اننى أمنعك من أن تطأ بقدمك مكتب فرازن » ٠ فقال الابن : « حذار من أن أرفض أن أضـع قدمى هنا » ٠٠ وكان قد بلغ الباب حين ألقى بهذا التحدى ، فصاح الأب فى صوت تغيرت نبراته فغدا أقرب الى الضراعة منه الى الأمر : « موريس ! » ٠٠ وأسرع خلفه ، فاذا الغرفة الخارجية خالية ، والشاب يهبط السلم ٠ واذ غدا الاب وحيدا داخـل غرفة المكتب الواسعة ، المفعمة بالنور ، راح يتأمل المنضدة



الصغيرة التى كانت أشعة الشمس تداعب ما عليها من ورود، وكل ما اتخذ من استعدادات - لاستقبال ابنه - ترضى أسلافه الذين كانوا يطلون عليه من الصور القديمة ، والنافذة ، والرسم القديم المبين للاقليم كما كان فى الماضى ٠٠ وشعر بأنه قد نبذ ، كقائد ولى عنه جيشه فى ليلة منى فيها بالهزيمة!

وقال لنفسه : «**أيتمرد الابن على أبيه الى هذا الحد ؟٠٠ لقد كلمته برفق فى البداية ، ولكنه سرعان ما احتد ٠٠ ما أقوى سلطان هذه المرأة ! لكم أود أن أحطمها !٠٠ ولكنه سيعود ، فمن المستحيل أن لا يعود ، وسأذهب لاحضاره اذا اقتضى الأمر ٠ لعلنى تجاوزت حدى ، فجرحت شعوره دون مبرر ! ان الطفل المسكين يحبها ، ويصدق ما تقوله له٠ لقد سحرته بصوتها الفاتن ، وعينيها اللتين تشعان لهيبا ، وابتساماتها ، فراحت تلعب به ٠ أجل ، لقد أخطأت اذ تحديتهما ٠٠ ان أمثال هذه المرأة أخطر من سالفاتهن فى الماضى ، بما أوتين من حقد ، ونفاق ، وتمرد على المجتمع !٠٠ لابد أنه هرع اليها ، ولسوف تثيره ضدى ٠٠ ضد أبيه ! ٠٠ ضد أبيك الذى أراد حبه أن يقودك الى الطريق المستقيم يا موريس ٠٠٠**»

* * *

◆ **ولم** يكن روكفيار من الرجال الذين يسترسلون فى الشكوى ، فدخل حجرة زوجته ينشد قرارا يتخذه ، بعد أن اعتاد أن يلجأ اليها كلما أعوزه الرأى فى الظروف العصيبة . ولكن الستائر كانت مسدله ، ومدام روكفيار نائمة .. فقد هدها المرض البطىء - الذى ضاعفت الشيخوخة من وطأته - اذ كانت تعانى تيبسا فى أعصابها كان يشل حراكها من آن الى آخر . وكم اعتاد - منذ سنوات - أن يفتح باب مخدع زوجته ، مطمئنا الى سداد رأيها ، وجلاء بصيرتها . أما فى هذه المرة ، فقد تقهقر فى هدوء ، وعول على أن يعتمد على ما لديه من موارد الرأى ..ولو انه كان يشعر - منذ مرضت - بضعف حيلته ! .. وأخذ يفكر فى ابنهما : ان الأم أكثر ألفة ولباقة وتأثيرا على الابن ، وقد تدرأ الخطر المحدق ! .. وقال لنفسه فى أسى وهو يرمق المريضة : « اننى وحيد !» .. ثم خرج فى خطى مسترقة ، ناعمة ، فوجد مرجريت فى قاعة الاستقبال منكبة على الكتابة . وسرى عنه مرآها الحبيب ، فقال لنفسه : « ها هى ذى التى ستساعدنى ، فما من أخت تفوقها اخلاصا !»

ودنا منها ، فما ان رفعت اليه وجهها مبتسمة ، حتى غالب قلقه ، وقال : « ماذا تفعلين يا صغيرتى ؟.. أراهن أنك تكلفين متجرا كبيرا بأن يتولى اعداد جهاز عرسك ».. فابتسمت قائلة : « لم تصب الحدس يا أبتاه !» .. فقال : « اذن فأنت تعلنين لزميلات الدراسة نبأ خطبتك » .. فقالت : « ولا هذا أيضا !» .. وواصل تخمينه قائلا : « اذن فأنت تدعين خطيبك ليتناول عشاءه هنا الليلة »

- ليس ثمة ما يدعو الى ذلك !

وبسطت اليه « الكراسة » التى كانت تكتب فيها ، فأدرك أنها « كتاب الأسرة » .. **فقد كان لآل روكفيار - بحكم**

العادات القديمة ـ كتاب سجل فيه الأجداد الى جانب ثرواتهم وممتلكاتهم ، أهم الأحداث العائلية ، كالزيجات والوفيات والمواليد والانعامات والديون والعقود ، وكل ما يصور الماضي، في وثيقة قيمة ، مما يبث الثقة في المستقبل ، في نفوس أولئك الذين يستوحون آباءهم ويعتزون بنسبهم !

وقالت الشابة : « اننى أكمل نقصه بالنسبة لأيامنا . فان عودة موريس والانعام على هوبير لم يكونا مدونين فيه » .. وتصفح السيد روكفيار ـ بغير قليل من الزهو ـ ذلك السجل الذى ضم تاريخ الجد والدأب اللذين بذلتهما أسرته ، ثم قال: « ترى من سيعنى به من بعدك يا مرجريت ؟ » . فأجابت : « ولكننى سأستمر فى العناية به ! » .. فصاح : « لا . يجب أن تكون المرأة لبيتها الجديد » . وهنا تضرج وجهها كتلميذة أخطأت ، وقالت : « أخشى أن أكون زوجة رديئة ، لأننى سأظل متعلقة بالقديم على الدوام . ان كل ما يجرى هنا يتغلغل حتى سويداء قلبى ! » .. فلم يتمالك الأب أن غمغم : « يا طفلتى العزيزة !» .. ولكنها استطردت فى حديثها : «وموريس ؟ .. أتراه مسرورا بمكتبه الجديد ، وبورودى ، وبالنافذة ؟ لو اننى كنت مكانه ، لتمنيت أن أعمل بالقرب منك »

وهكذا تطرقت الى ما كان يشغل باله ، فيسرت عليه الفضفضة ، اذ قال : « من أجله جئت أتحدث اليك . لقد دار بيننا جدال منذ برهة ، ولعلنى كنت محتدا !» .. فهتفت : « أمعقول أن تحتد يا أبى ؟» .. فأجاب : « لقد أسأت اليه فى النهاية، فخرج مغضبا .. والغضب شر رفيق! فاذهبى وراءه ، فأنت خليقة بأن تعيديه !»

ونهضت مرجريت متأهبة فى تحمس ، وسألته : « وأين هو ؟ » .. فأجاب : « لست أدرى .. لعله فى مكتب فرازن . على أن البلدة ليست كبيرة ـ على كل حال ـ ولن تجدى عناء

فى مهمتك . وليهدك الله الى مكانه !» .. فقالت : « ها أنا ذى ذاهبة !» . فعقب برفق : « أحسبك تدركين اننى لا أستطيع الذهاب بنفسى ! » .. فهتفت : « لا .. لست أنت الذى تفعل ذلك ، فهو لا يستحقه ! لقد بدأ غريب الأطوار منذ فترة من الزمن ، حتى ليظن المرء انه لم يعد يحبنا !»

وتبادل الاب والابنة نظرة ، فأدرك كل منهما ما كان فى نفس الآخر ، ولكنهما لم يشاءا أن يخوضا فى الموضوع . وأسرعت مرجريت الى ارتداء قبعتها وسترتها ، وانطلقت تبحث عن موريس . فما أن بلغت الطريق ، حتى ولت الحصن ظهرها ، وسارت فى شارع (بوانى) ، وسلكت أحد الدروب العديدة التى تؤلف شبكة الطرق الداخلية فى (شامبيرى) ، حتى بلغت ميدان المحطة .. وكان هذا الميدان — فيما مضى — مركز الحركة التجارية فى البلدة ، وما زالت به بعض الحانات العتيقة ، ودار من تلك الدور الايطالية المزدانة بشرفة وأعمدة تجعلها أهلا لأن ترسم على لوحات للزينة أو على بطاقات البريد .. ولكن البيت كان فى الواقع متسخا ، متداعيا ، كئيبا ، لا يثير انتباها ..

وعلى واجهة مبنى أعيد اصلاحه ، كانت ثمة لوحة من الرخام الاسود ، نقش عليها :«**فى هذا البيت ولد : جوزيف دى ميستر ، فى أول أبريل سنة ١٧٥٣ .. واكزافييه دى ميستر ، فى ٨ نوفمبر سنة ١٧٦٣** » .. وتحت تلك اللوحة ، ثبتت لافتة مذهبة تشير الى مكتب موثق العقود ، فسارت مرجريت فى اتجاه السهم المنقوش على اللافتة ، وصعدت السلم ودقات قلبها تتوالى فى عنف ، اذ كبدها قدومها جهدا ممضا . وطرقت باب مكتب فرازن ، ثم ولجت ، فسألت أول كاتب وقع عليه بصرها : « اننى أخت مسيو موريس روكفيار . هل أستطيع مقابلته ؟» . فقال الشاب وهو ينهض فى احترام جم : « انه غير موجود يا آنسة ، اذ لم يأت بعد الظهر !» .. **ولكن كاتبا**

آخر لم تلمحه مرجريت – اذ كان خلف أحد المكاتب – قال فى صوت أجش مفعم بحقد عارم : « ابحثى عنه لدى مدام فرازن »

وكست الحمرة وجه الفتاة حتى أذنيها ، ولكنها شكرته ، واتجهت دون توان الى مسكن مدام فرازن ، وضغطت الجرس . ولم تتلق جوابا ، فأدركت أن السيدة فى الخارج . وخامرها ارتياح فى البداية ، ولكنها لم تلبث بعد أن سارت بضع خطوات أن أحست بالأسف ، اذ كانت تلك فرصتها الوحيدة للحاق بأخيها . فأين تعثر عليه بعد ذلك ؟ .. واتجهت الى شارع فافر ، حيث كانت دار مدام مارسيلاز – أختها الكبرى – فوجدتها عائدة مع أطفالها الثلاثة . وما أن رآها « جوليان » الصغير ، حتى ارتمى عليها ، وأبى أن يدعها تمضى ، بينما قالت أختها فى غير اكتراث : « لا ، ان موريس ليس هنا ، فهو لا يزورنى اطلاقا » .. فلقد كانت أية شكوى من ابنتها «أدريين» تحظى منها باهتمام يفوق اهتمامها بأخيها !

* * *

◆ **وأخذت** مرجريت تذرع شوارع البلدة – بعد هذا الفشل المتكرر – دون ما أمل كبير ، وهى تسرع الخطى وكأنها تهرب من شبح يطاردها . وتحت « البواكى » ، التقت بخطيبها ، الذى بادر الى استوقافها ، فعادت اليه بعد أن تجاوزته ، وقالت دون ابطاء : « نهارك سعيد يا ريمون .. ألم تلتق بموريس ؟ » ، فأجاب الشاب : « لا يا مرجريت .. أتبحثين عنه ؟» . واذ أجابت : « نعم » ، قال لها : « هل أساعدك ؟» . ولكنها قالت : « لا ، شكرا .. الى اللقاء فى المساء »

وراقبها ريمون – خطيبها – وهى تبتعد بمشيتها السريعة ، وقال فى نفسه : « انها ليست لطيفة .. فهى متحفظة معى على الدوام !» .. ولكنه ظل يتبعها بعينيه حتى اختفت .

وواصلت مرجريت سعيها دون جدوى • فلما بلغت الكاتدرائية، التقت بصديقة صغيرة ، هى « جان سيسيناى » ، التى كانت تسير برفقة خادمتها • **وكانت « جان » فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها ، تبدو طفلة أصغر من سنها الحقيقى، وقد تهدلت على ظهرها غدائر من شعرها الاشقر ، وبدا وجهها وادعا** • وأسرعت الفتاة الى الآنسة روكفيار التى كانت شديدة الاعجاب بها ، وهتفت : « آنسة مرجريت ، هل أنت فى عجلة ؟» • فحيتها الشابة قائلة : « نهارك سعيد ياجان !» •• وقالت جان مسترسلة : « **انك تحذين حذو أخيك الذى يقابلنى فى الشارع فلا يحييني ، مع اننى بلغت السن التى أستحق فيها التحية !**»

وأطرقت برأسها قليلا ، وهى تتمنى لو أن نظرتها أضافت الى ثوبها طولا ، فقالت مرجريت مقرة حديثها : « هذا صحيح • ولكن ، أين تراك قابلت موريس ؟»

– على جسر ريكلى – الآن ؟

– لا ، بل قبـل أن أتلقى درس الموسـيقى •• منذ ساعة أو ساعتين

– والى أين كان ذاهبا ؟

– لست أدرى • قولى له انه غير لطيف !

– سأنبئه ولا شك ، فهذا عيب لا يغتفر ، ولا سيما ازاء صديقاتى

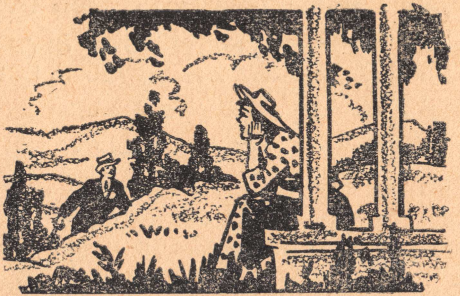
فقالت «جان» وهى تضحك كاشفة عن أسنان بيضاء حادة: « ومع ذلك فاننى أغفر له !» • وانصرفت ، فمكثت الآنسة روكفيار وحيدة ، واذ ذاك لمحت باب الكنيسة مواربا ، فمرقت خلاله الى المكان المقدس • ولم يكن تحت القباب – فى تلك الساعة – سوى شخصين أو ثلاثة ركعوا فى العتمة متباعدين • **ولكن مرجريت وجدت عناء فى أن تندمج فى الصلاة •• فقد راحت تتصور – أحيانا – أية امرأة فاتنة ستصير اليها تلك الصبية الخفيفة المرحة ، بعد ثلاثة أعوام أو أربعة •• وكانت**

تعبس أحيانا أخرى ، حين تتذكر أخاها موريس ٠٠ وتتمثل – فى أحيان ثالثة – وجه أبيها المفعم بالقلق ٠٠ أما نفسها ، فلم تفكر فيها مطلقا !٠٠ وتملكتها الدهشة ، وهى على عتبة الكنيسة ، من أن أفكارها لم تمس قط خطيبها ، ولا نفسها !

ودبت فيها شجاعة جديدة ، فقفلت عائدة الى مكتب فرازن ٠ وفى هذه المرة أيضا ، أبت أن تطرق باب مدام فرازن ٠ حتى اذا أعيتها الحيل ، سلمت بالهزيمة ٠ وفيما كانت تسير فى شارع (بوانى) راجعة الى دارها ، تجلى أمامها برجا دار المحفوظات والحصن ، فى ظل رقعة من السماء التى أسبغت عليها الشمس الجانحة الى الغروب حمرة ٠٠ وفى وهج الشمس الخابى ، تبدى هذان الأثران – من آثار الماضى – فى أبهى جلالهما ، وكأنهما يعرضان روعتهما قبل أن يغوصا فى الظلام! ٠٠ وكانت الأمسية من تلك الامسيات البديعة التى اختصت الطبيعة الخريف بها ، وقد اتسمت ببهاء رائع يجعل الانسان يشعر ازاءه بضعفه ٠٠ كما كانت اللحظة من لحظات السمو والعظمة التى تسبق الفناء ٠٠ فناء النهار !

وأخذت الفتاة بهذه الصورة الرائعة التى ارتسمت على صفحة السماء ، ولكنها غذت السير الى دار الأسرة العتيقة بدلا من أن تتمهل لتستزيد من مشاهدة المنظر ٠ وتساءلت بمجرد أن بلغت الباب : « هل عاد موريس ؟» ٠٠ فأجابتها الخادم : « لا يا آنسة ، لم يعد بعد ٠ ولكن السيد ينتظرك » ٠٠ وبادر السيد « روكفيار » – الذى سمع الحديث – الى فتح باب غرفته لاستقبالها ، هاتفا : « ما وراءك يا مرجريت ؟ » ٠ فأجابت : « اننى لم أجده يا أبت » ٠٠ **وكان فى العبارتين اللتين تبادلهما الأب والابنة كل الحزن الدفين ، مع شعور بالخوف من كارثة توشك أن تنقض ٠٠ كارثة أفدح من ذلك النوع الذى تثيره نزوات الشباب ، من جراء السلطان الخارق الذى رأيا مدام فرازن تفرضه على موريس !**

٣ ـ هضبة ((كالفير دى ليمنك))



◆ ما ان غادر موريس روكفيار دار أبيه ، حتى اجتـــاز البلدة ، ويمم لفوره شطر هضبة (كالفير دى ليمنك) ، حيث كان على موعد مع مدام فرازن ٠ وكان اختيار هذا المكان تحديا منهما للناس ٠٠ فقد كانت الهضبة تشرف على (شامبيرى) ، وتشاهد من أى مكان فى البلدة ٠ وقد كانت فى الماضى صخرة عارية ، ذات قيمة عسكرية كبيرة ، حتى لقد أقيم فوقهـــا ـ فى عهد الدوقات السابقين ـ مركز لتبادل الاشارات باللهب مع المركزين القائمين على جبل (ليبين) وجبل (روش دى جيت) السامقين ، حيث كان يرابط حراس الحدود الفرنسيه ذوو البأس ٠ أما اليـوم ، فمن السـهل بلوغ الهضبة خـلال طريق صاعدة ، تبدأ عند ضاحية (ريكلى) ، وتمتـد فوق الخطوط الحديدية ، تحف بها من أحد الجانبين جدران شـاهقة لدير عتيق ، ومن الجانب الآخر منازل شعبية ذات طابق واحـد فاذا جاوز المـرء نطاق هذين السـياجين المحيطين بالطـريق ، وجد نفسه فى وســط ريفى ، وتبين أمامه الهضبة الصغيرة ، لا تتوجها اســتحكامات عســكرية ـ كما كانت فى الماضى ـ

وانما تقوم عليها كنيسة تبدو عن بعد مكشوفة لسلسلة جبال (ريفار) و (نيفوليه) ، فلا يحميها سوى سـياج رفيع من نباتات الطلح ، والأعشاب النحيلة ٠ وهنـاك طريق صاعدة أخرى غير مكتملة التعبيد ، تتخللها أكواخ خالية ٠٠ وفيما عدا ذلك ، كان المكان مهجورا ، لا يصادف مرتاده أحدا ، وان رؤى هو على البعد ٠٠

أما كنيسة كالفير الصغيرة ، ذات النمط البيزنطى ، فكانت تتألف من قبة ، ورواق قائم على أعمدة أربعة ، وترتفع فوق مستوى الأرض ببضع درجات ، وقد دفن تحتها ـ فى سنة ١٨٣٩ ـ أحد أساقفة (شامبيرى) ، ونحت قبره فى الصخر ٠٠ وفيما عدا ذلك ، كان باقى الكنيسة خاويا

وما ان بلغ موريس بداية سياج الطلح ، حتى تبين انسـانا جالسا على السلم ، بين أعمدة الكنيسة ٠٠ **كانت مدام فرازن فى انتظاره ، فلم يحفل بأغصان الطلح المحيطة به ، فى لونها الذهبى الباهت ، ولا اكترث للجبال البنفسجية التى امتدت أمامه تحت أضواء الخريف ، اذ لم يعد يرى سـوى تلك الجالسة وقد حفت بها أعمدة الكنيسة كالاطار !** ٠٠ وكانت تعتمـد بمرفقيها على ركبتيها ، وتحتوى وجهها بين راحتيهـا اللتين لاحتا تحت الشمس ورديتين ، شفافتين ٠٠ وجلست ساكنة ترقبه فى اقترابه بعينين متقدتين ٠ فلما دنا منها ، نهضـت بحركة مفاجئة ، كحيوان يبدو وادعا ، ثم اذا به فجأة يغـدو كتلة من الأعصاب المتحفزة !

وبادرته قائلة : « خشيت أن لا تأتى ، فكأنما توقفت حياتى عن استرسالها ! » ٠ فقال : « لقـد أخرنى عائق يا اديث » ٠ وكان بادى الاضطراب حتى انها أشفقت عليه فلم تعاتبـه ، وانما امسكت بيده ، وقادته الى ما وراء الكنيسة ، فأشارت الى عشب متكاثف ، وظـل وارف ، وقالت : « هل لك فى أن نجلس هنا ؟ ان الجو ليس باردا ، والمكان مريح » ٠٠ **وجلسا**

متجاورين وقد اسـندا ظهريهما الى جدار الكنيسـة التى كانت تفصلهما عن (شامبيرى) والعالم ٠ ولم يكونا يشاهدان فى مواجهتهما سوى جبال (نيفوليه) السابحة فى الاضـواء ٠ والتصقت المرأة به لتجلو معالم وجهه ، وهتفت وكأنها تشكو اليه ضناها : « لكم أحبك ! » ٠٠ ألم يكن حبهما مبعث ضنى ومتعة فى آن واحد ؟ ٠٠ وكانا قد رفعا كل كلفة بينهما ، رغم أنهما لم يكونا قد أصبحا بعد خليلين ٠٠ وتراجعت المرأة قليلا لتتأمله ، ثم تساءلت : « هل تعانى ألما ؟٠٠ أو هـذا بسببى !» ٠٠ فروى لها بايجاز ما جرى بينه وبين أبيـه ، وما ذكره هذا من اكتشافه سر غرامهما ، والمتاعب العسيرة التى ترتقبهما ٠ ثم استطرد متسائلا : « فماذا تريننا فاعلين ؟» ٠٠ ورددت بدورها : « أجل ، ماذا ترانا فاعلين ؟ ان سرنا لم يعد قاصرا علينا ، ولم أعـد من ناحيتى قادرة على اخفائه » ٠ فردد هو الآخر بمرارة : « **لم يعد سرنا خافيا ٠٠ ومع ذلك فانك لم تسلمينى نفسك قط !»**

وإذ ذاك أسندت رأسها الى صدر الشاب ، وقالت فى صوت لين ، تمس نبراته القلب كما تمس الاصبع وتر الآلة الموسيقية – وكأنها تهدهد بهـذا الصوت اللين قلبـه : « **لا تزعم اننى لم أسلمك نفسى ٠٠ أطلبتها وأبيتها عليك أيها الخبيث ؟ أتريد أن نبدأ ؟ ٠٠ اننى لك ٠٠ انك لم تزل شابا ، فى حين اننى أبلغ الثلاثين عما قريب ٠٠ ثلاثون عاما ، ومع ذلك فان غرامى الذى يعادل حياتى كلها لم يولد الا منذ بضعة أشهر!٠٠** لقـد كنت أنظـر اليك ، فأرى الشمس تغمـرك ، ومن ثم خرجت من الظلال لأنضم اليك ٠ ولسـوف أروى لك يوما قصة طفولتى وزواجى ، حتى أرى دموعك حين يهزك الألم ! » ٠٠ وهتف الشاب : « اديث !» ، فقالت : « آه ! ان النسـاء اللاتى لم يكن الزواج بالنسـبة لهن سوى باب ينفذن منه الى النور – وليس الى السجن ! – يتسلين بازدراء ضعفنا ! ٠٠

أليس من الطبيعى أن يكن أكثر منا رضى بالقدر لأنه آثرهن ؟ ..ولكنهن لا يفكرن قط فى ذلك ، فكأن الهناء حق لهن لا نزاع فيه . ومن ثم فهن لا يبذلن جهدا لصيانته ، فاذا فقدنه انقلبن يتهمن القدر ويسخطن عليه دون أن يلمن أنفسهن !»

فقال : « اديث ! .. اننى أحبك ، ومع ذلك فانك لست سعيدة !» .. واذ ذاك نهضت نصف واقفة ، واحتوت وجهه بين راحتيها فى وله ، وقالت : « **امنحنى سنة من حياتك فى مقابل حياتى كلها !.. أتقبل ؟ هيا ، لنرحل وننس كل شىء ، فلست أريد أن أمضى فى الكذب .. لا أريد أن أكون لغيرك.. لا أطيق ذلك ما دمت لك** » . ووثبت واقفة . وكانت الهضبة تنحدر انحدارا حادا ، على طريق (أكس) ، فى بقعة غير بعيدة عنهما – خلف الكنيسة – فاقتربت منها لتطل على الفراغ الجاثم تحتها . وصاح موريس : « اديث ! » .. فعادت اليه هادئة ، مبتسمة ، وقالت وهى تجلس بجانبه : « اننى أحب الدوار ، ولكننى لا أحس به الا هنا !»

* * *

◆ **وعادت** الى الحديث عن المستقبل قائلة : « ان سرنا أصبح معروفا . ولسوف يعلم به زوجى عما قريب ، بل لعله يرتاب فى أمرنا فعلا . وهو يحبنى بطريقته التى تثير تقززى! بل اننى لواثقة من انه يراقبنا ، ومن انه سينتقم منا ، وسيرسم انتقامه على مهل ، كما يفعل فى كل أعماله !» .. فهتف الشاب : « اسمعى يااديث : يجب أن تحصلى على الطلاق منه!» .. فصاحت : « الطلاق ؟ ! .. لقد فكرت فى ذلك ، ولكن ماذا ترانى فاعلة اذا عارض زوجى فى الطلاق ؟.. ولسوف يعارض ! فضلا عن أن طلب الطلاق يستغرق دائما عاما أو اثنين ، أو أكثر ! ولسوف أضطر خلال هذه المدة الى الاقامة مع أهلى ، بعيدا عن هنا ، والى أن أظل دائما فى انتظار . تصور

.. عامين آخرين فى السجن !.. لسوف أصبح بعد ذلك عجوزا . وسأفترق عنك طيلة المدة .. أفترق عنك ، فهل تفقه ذلك ؟.. لقد درست الموضوع كما ترى ، فاذا به مستحيل !»

وسكت الاثنان ، وقد مال كل على صاحبه ، لا يعكر الصمت الذى لفهما سوى ذلك النداء الصامت الذى كان ينبعث من أعماقهما !.. وفجأة ، أحسا بحركة عند نهاية الجدار القريب ، فانتفضا . وتمتم موريس : « هناك شخص قادم ! » ، فأجابت فى جرأة : « لنبق حيث نحن !» .. وبقيا . كان مصيرهما فى أيديهما فقط ، وليس بوسعهما فى تلك اللحظة أن يأتمنا عليه سواهما . **ولكن القادم الذى خشيا أن يكشف سرهما لم يكن سوى عنزة ! .. عنزة كانت تلتهم الحشائش القليلة، وفى أعقابها صبية أمسكت بعصا . ورمقتهما الصبية فى غباء، ثم تابعت سيرها ، فشعرا بالأسف لأن المفاجأة لم تكن ذات نتائج تحل قضيتهما حلا لا رجعة فيه !**

وأخذ الوقت يمر دون ان يستقر موريس على رأى : هل يستمران فى حمل الأغلال الثقيلة وهما ينحدران فى علاقتهما ، أو يحطمان القيد ويمضيان فى غير حذر ولا حيطة ؟! .. ومالت المرأة على موريس تقرأ فى عينيه ما كان يدور فى نفسه ، وتمتمت : « لماذا تروغ عيناك ـ عيناك الحبيبتان ـ من نظراتى؟». فتنهد وهو يرخى جفنيه وقد أحس دوارا كذلك الذى غشيه حين رأى المرأة تطل على الهاوية ، ثم قال : « لست أدرى ! » .. وتحولت تقبل أهدابه ، قائلة فى عذوبة انطوت على قرار جرىء : **« اننى أحس بقلبى يتحطم فى هذه الأيام الذهبية ، أيام الخريف .. وكل مساء يهبط يحمل لى ألما ، وكأن قسطا من سعادتى يسلب منى سلبا .. سأرحل الليلة ، فهل تفقه هذا؟ »**

وانتفض موريس عند سماعه القرار غير المرتقب ، فتملص منها ، وهتف : « صه يا اديث ! » .. ولكنها أجابت : « لعلك كنت تظننى أتظاهر بتهديدك ، حين كنت أقول ذلك فى الأيام

الأخيرة ‥ ولكنك تخدع نفسك يا موريس ، وسأرحل الليلة ! » ‥ لقد كانت تغريه بالسفر من قبل ، فكان يستبعد هذه الفكرة العسيرة التحقيق، ويمنيها بأن يرحل هو أولا ثم يستدعيها بعد ان يتمكن من العثور على عمل فى باريس . فلما رأى نفسه أمام هذه الوثبة المفاجئة ، التى تفوق سابقاتها عنفا واصرارا ، تولاه الغضب والانفعال ، وتحول يضرع بكل قوة ورجاء : « صه ! ‥ سأمكث هنا معك ‥ اننى أحبك ! » ‥ ولكنها عادت تقول للمرة الثالثة ، وقد ازدادت حماسا وعنادا : « سأرحل الليلة ‥ ان القطار الذاهب الى ايطاليا يرحل فى منتصف الليل ‥ وفى منتصف الليل سأتحرر من كل قيد ! »

وفرك موريس يديه فى قنوط ، وهو يردد : « اسكتى ! » ‥ ولكنها مضت مستأنفة حديثها : « **سأغدو حرة فى اعلان حبى ‥ حرة فى أن أتذوق هذه المتعة الجديدة ‥ متعة البكاء دون خوف اذا لم تكن الى جوارى ‥ حرة فى أن أعبدك اذا جئت معى !** » ‥ فهتف : « ناشدتك الرحمة ! ‥ هلا سكت ؟ » ، ولكنها مضت قائلة : « اننى أختنق فى بلدتك ! ‥ ان منازلكم العتيقة مفعمة بالروائح العطنة ‥ اننى أختنق لفرط عاطفتى كما ترى . لسوف نظل منفصلين لو اننا مكثنا هنا ، ولكننى أريد ان أستمتع بعذابى اذا أنت لم تصحبنى ! ‥ أما اذا أتيت ، فسأتنسم أنفاس الحياة ‥ فهلا أتيت ؟ هل تأتى الليلة ؟ » ‥ وسعت بقبلاتها الى اقناعه ، فوعدها

ومكثت لحظة تستمرىء لذة انتصارها ، ثم غمغمت : « لقد نسيت كل حياتى الماضية ! »

وقادته بعيدا عن الجدار الذى استترا وراءه الى وضح الشمس ، أمام كنيسة الهضبة . فما جدوى الاستتار ؟ ‥ وفى نشوة ، رأيا الأرض تنبسط أمامهما ، تحت السماء الصافية ، فى صورة متألقة ‥ وأمامهما ــ عند أقصى الأفق البعيد ــ بدت

قمم جبال الألب الصغرى : ليه سيتلو ، وبيرلانى ، وجران شارينيه ، كوشى رقيق باهت تخلل الفضاء بين جبال (جرانييه) وهضبة (لاروش دى جيت) ، وقد توجتها طلائع الثلوج ، وأضفى عليها النهار غلالة وردية ٠ وعلى مسافة أبعد – الى اليمين – بدت سفوح (كوربيليه) و (ليبين) المكسوة بالغابات، يشقها طريق (ايشيل) ، وقد لاحت كدب روسى ، فراؤه منسوج من الغابات التى أحرقتها شمس الخريف ! ٠٠ وقامت أمام هذه السلاسل الجبلية تلال رشيقة جللتها الأزهار ٠٠ تلال (شارميت) و (مونتانيول) و (سان كاسان) و (فيمين) ، التى كان البصر يتهالك مستريحا على منحنياتها البسيطة ، وتموجاتها الناعمة ! ٠٠ وكانت أفواج من النور تتسلل خلال منعطفاتها ، وتلمع وسط الغبار فى ظلالها ٠ أما أبراج الكنائس الممشوقة كالحراب ، واشجار الحور ذات الخضرة المشوبة بلون الذهب ، فكانت تبدو كخطوط تزين المنظر ٠ وبدت (شامبيرى) راقدة فى السهل ، كما لاحت الكروم – التى امتزجت فيها الألوان الذهبية القاتمة والوهاجة – كأنها زغردة تجلجل فى الفضاء

وهتفت اديث فى ضراعة : « أرنى أين تقع ايطاليا ! » ٠ فأشار فى غير اكتراث الى اليسار ، ولكنها التفتت اليه – بدلا من ان تتبع اشارته – فرأت وجها مثقلا بالضنى ، وظلت صامتة ، اذ ادركت ما كان يخالجه ٠٠ كان بوسعها ان تعجب بهذا البهاء الطبيعى اعجاب أى سائح عابر ، ولكن هذا لم يكن شعور زميلها ٠ **ألم يكن ذلك هو الجهد الخارق الذى تبذله طبيعة بلاده لاستبقائه ؟ ٠٠ فقد تراءت له مزرعة البرج – (لافيجى) – وذكريات طفولته واضحة مشرقة ، تحلق محومة فوق الأرض ، كالعصافير ، ميممة شطره !** ٠٠ وعلى مسافة أقل ، بدا له « بيت الأسرة » أمام الحصن ٠٠ ذاك الذى كان الكل يدعونه : « البيت » ، وكأن العالم لا يضم بيتا سواه ! ٠٠ وقرأت المرأة

فى عينى موريس هذا الصراع الأخير ، فداخلها شىء من الغيرة ، اذ لم يكن لديها ما تضحى به مثله ٠ وتنهدت ، ثم مست ذراعه قائلة : « اسمع ٠٠ دعنى أرحل وحدى ! »

وضايقه ان تكشف لهـــا ما كان يدور فى قرارة نفسه من اعتراضات غريزية مبهمة ، فقال : « لا ، لا ٠٠ أتراك لم تعودى تحبيننى ؟ » ٠٠ فهتفت : « بل اننى أحبك ! » ٠٠ وابتسمت له فى عذوبة ضافية ، لم ير لها مثيلا ، وذكا لهيب عينيها ٠٠ كانت من نساء اليوم : مشبوبة « الاخلاص » ، جامحة النزوات ، وقد ضاقت فجأة بالصبر الذى التزمته صامتة تسع سنوات ، فعقدت عزمها على أن تنتهز غيبة زوجها الطارئة لتفر من سجن الزوجية ، مهما يكن الثمن ! ٠٠ ولقد تأهبت لمغامرة الفرار فى هذه الظروف المواتية ، وأحسنت اختيار الساعة ٠ وها هوذا انفعال موريس وحيرته يكادان يلقيان به تحت رحمتها ، وفى قبضتها ٠ **ولكن ، اى العاطفتين أقوى فى نفس فتـــاها : ان يشاركها مصيرها المحتوم المحفوف بالخطـــر ، أو ان يبقى فى بيئته الطبيعية ؟ ٠٠ لقد كانت تحتمل حياتها قبل ان تحبه ، ولكنه بث فى نفسها روح التمرد دون أن يدرى ، فكيف تفارقه ؟ ٠٠ كان الاقتراح الذى تعرضه عليه يحطم فؤاده ، ولكنها مع ذلك تمضى فى اصرارها ٠٠** انها لم تعان قط هـذه الحيرة التى تنفذ الى أعماق النفس ، فتفعل بها ما تفعله الشمس الحاميـــة بصحراء رطبة باردة !

وعادت تقول : « لن تلبث ان تنســـانى رويدا ، وعلى مر الزمن ٠ فلا تعارض ، واصغ لنصحى ٠ انك لا تزال فتيـــا ، تنبسط أمامك الحياة على رحبها ، فدعنى أرحل ! » ٠٠ ولــكن هذا العطف المشوب برثاء جارح أثار حنقه ٠٠ ما الذى يمنعه من الرحيل معها ؟ أهو عقله ؟ ٠٠ العقل الذى لم يتجاوز عمـــره أربعا وعشرين سنة ! ٠٠ ألم يهده هـذا العقـــل الى أن لكل امرىء حقا فى السعادة ؟ ٠٠ وغمغـم موريس أخيرا : « لست

راغبا فى الحياة دونك ! » ، فعادت تقول : « سأبقى اذا كنت تؤثر ذلك ، وسأريك كيف أتعلم أن أحذق الكذب . فان الانسان لا يتـورع عن كل الدناءات فى سـبيل حبه ! » .. ولكن هذا الاقتراح جاء بعد أوانه .. وكانت تدرك ذلك ، وتتـوقع ان يرفضه . فما ان فعل ، حتى ألقت بنفسها على صدر حبيبهـا الذى راح يتمتم : « اننى أحبك حتى المـوت » .. وهتفت : « فقط ؟ .. ان حبى يفوق حبك ! »

ـ مستحيل !

ـ بل هو الحق : أحبك حتى الاجرام !!

واردفت فى غير اكتراث : « سأحمل معى صداقى ، الليلة ». وهنا تذكر هواجس أبيه ، فهتف : « صداقك !؟ » .. قالت : « أجل . انه مثبت فى عقدى . ألم أرك اياه ؟ » .. فقـال : « ليس من حقك ان تأخذيه الا بحكم قضائى » . ولكنها صاحت: « أو تريد أن أدع لزوجى ما هو حق لى ؟ .. وكيف نعيش ؟ » .. فأجاب : « سأحصل الليلة على بعض المال يا اديث . ولن ألبث ان أحصل على عمل فى باريس ، فقد وعدنى صـديق ، يدير أبوه مصنعا كبيرا ، بأن يعيننى فى قسم القضايا بالمصنع، وقد ذكرته بوعده منذ عهد قريب ، بمجرد المصادفة ! »

ولم تشـأ المرأة ان تخفف من تفاؤله ، فقالت : « أجل ، لسوف تعمل ، ولكننا سنصل الى باريس فيما بعد . أما الليلة فسنرحل الى ايطاليا ! » . فتسـاءل : « ولماذا ؟ » . واذ ذاك أجابته : « أليست هى قبلة المتزوجين فى شهر العسل ؟ » .. **ونكست رأسها فى استحياء ، فبدت فجأة كخطيبة عـذراء فى الثلاثين من عمرها ، تتبدل أساريرها بسرعة من الحيرة الى براءة الطفولة ! .. كانت تعض الحياة بنواجذها فى نهم ، كما يعض المرء الفاكهة الفجة ، فيضرس !** .. وأخذ الظلام يزحف علـى السهل ، فازدادت فتنة الطبيعة أمام بصريهما ، اذ خلعت عليها شمس المغيب غلالة ذهبية .. وكانت ليالى الخريف البديعـة

تثير في المرأة لوعة كلوعة الشهوة ، فهتفت تمنى نفسها : « غدا ٠٠ غدا ! » ٠ وخطا موريس الى الأمام ، موليا المنظر ظهره ، حتى لا يرى سواها٠٠ سوى فاتنتـــه التى استندت الى أحد أعمدة الكنيسة ٠ لقد أصبحت بعد قرارهما وطنه الأوحد !

وهبطا الهضبة معا ، فسارا جنبا الى جنب حتى جسر (ريكلى) غير عابئـين لما يتعرضان له اذا رآهما أحـد من معارفهما ٠٠ وقالت المرأة عندما هما بالافتراق : « لقد اوشكت الساعة على الخامسة ، ولا تزال امامنـــا سبع ساعات » ٠٠ واذكى الأمل لهيب عينيها ، بينما استعرض موريس ــ فى اشمئزاز ــ تلك الساعات القاسية التي يتحتم عليه ان يخون أسرته فيها ٠ وأدركت المرأة ما كان حبيبها يعانيه ، فرثت له ، وقالت ــ تبدد مقدما ما قد يعترضه من مؤثرات : « هل تقوى على الكذب ليلة بأسرها يا طفلى المسكين ؟ » ٠٠ فانتفض اذ فطن الى انها كشفت ما بنفسه ، وكرر ــ فى شيء من الخشونة ــ ما قالته من قبل : « ان الانسان لا يتورع عن كل الدناءات فى سـبيل حبـه ! » ٠٠ فقالت : « **سترى ان الكذب بشـــع ، فتلمس ذلتى وعذابى ٠٠ فاننى أكذب منذ أحببتك ! ٠٠ تشجع ، والى اللقاء الليلة !** »

* * *

◆ **وأسرع** موريس ــ قبل أن يعود الى البيت ــ الى السعى للحصول على المال اللازم ٠٠ ومن عم ابيه « اتيين روكفيـــار » ــ الطاعن فى السن ، والمعروف ببخله ــ ومن عمته « تيريز » ، التقية ، المحسنة ، حصل على ما يقرب من ألف فرنك ٠٠ وأخذ من أخته ــ مدام مارسيلاز ــ خمسمائة فرنك ، ومثل هـــذا المبلغ من ريمون بيرسى ، خطيب اخته ٠٠ وتعلل فى سـبيل ذلك باضطراره الى سـداد ديون كان قد اقترضها اثنـــاء الدراسة ٠ **وكبدته هذه الخدعة ضعة وهوانا قدمهما قربانا لحبه ، وان لم يجد من ضميره ارتياحا !** ٠٠ ولم يفطن فى هذه الأثناء

الى أن أحدا من معارفه ـ غير الأقارب ـ لم يبسط له يد العون، وهو يدور عليهم مستجديا ، فى حين أن أسرته ساعدته ـ فى محنته المفتعلة ـ عن طيب خاطر ٠٠ وان اية خشونة بدت منهم كانت مبرأة من كل حقد !

وقفل راجعا الى مكتب فرازن فى الساعة السادسة ، فاذا الموظفون يوشكون ان يغلقوا الأبواب منصرفين ، فقال لهم : « انصرفوا انتم ، فاننى سأكتب بعض الخطابات ، ثم أحكم اغلاق الأبواب ! » ٠٠ وكتب بعض الخطابات فعلا ، لمعارفه الذين كانوا يشغلون مراكز هامة ، يسألهم العون فى الحصول على عمل ذى مرتب طيب ، فى باريس ٠ ولما كان قد تفوق فى جميع الامتحانات ، فقد اعتمد على توصية أساتذته السابقين ٠ ولم يكن قد تعرض من قبل لصعاب الحياة ، ولذلك وضع ثقته فى كفاءته العلمية ، ولم يخامره ريب فى التغلب على كل العقبات ٠ ولكن ، الى اين يرسل اولئك الناس ردودهم ؟ ٠٠ وتردد قليلا ، ثم حدد العنوان : « يحفظ بشباك البريد ، ميلان » !

واستطاع موريس بهذه الاستعدادات التى شغل بها ان يخادع نفسه ويروغ من الندم الذى كان يساوره بسبب الرحيل ٠ على ان هذا الندم عاوده ، حادا نفاذا ، عندما اضطر الى اجتياز مدخل دار أبويه للمرة الأخيرة ٠ ومع أنه تسلل الى غرفته واغلقها دونه ، الا ان الجميع أحسوا به ٠ فلما حانت ساعة العشاء ، أقبلت مرجريت تدعوه ، فاذا به معتمد برأسه على يديه ، تحت المصباح ، وقد استغرق فى الأفكار الى درجةجعلته لا يسمع طرقاتها ٠ وأمسكت الفتاة بيديه فى حنان ، فتململ لهذا التلطف منها ٠ وسألته : « ما الذى يحزنك يا موريس ؟ » ، فأجاب فى اقتضاب : « لا شىء ! » ٠٠ ولكنها عادت تقول : « اننى اختك الصغرى ، فهلا بثثتنى أساك ؟ ٠٠ من يدرى ؟ لعلنى لا أخلو من نفع لك ! » ٠٠ ولكى ينتحل لهمومه

عذرا مقبولا ، تعلل بشدة حاجته الى المال ليفى بعض المطالب ، فاستوقفته الفتاة لفورها قائلة : « انتظر دقيقة ! » . وغادرت الحجرة ثم عادت بعد قليل متهللة ، ووضعت امامه على المنضدة ورقة مالية من فئة الألف فرنك ، وهتفت : « أيكفيك هذا ؟ لقد اعطاني ابى ثلاث ورقات لجهاز عرسى ، فبقيت منها هذه ، لحسن الحظ » .. وهتف موريس : « انك حمقاء يا مرجريت .. لاأريد شيئا »

ـ لا ، لا .. خذها ، فانى أسر لذلك . ولن يضيرنى ان ينقص جهازى بضعة أقمصة !

وضحكت ، فشعر بأعصابه ترتجف ، وبالدموع تبلغ حواف عينيه . وبذل جهدا حتى كبحها ، ثم ضم الفتاة الى صدره .. الى القلب الذى لم يكن قد آل بأكمله بعد الى مدام فرازن . وتمتم : « اولينى حبك دائما ، مهما يحدث ! » .. فتطلعت اليه متسائلة ، ولكنها خشيت ان يظنها راغبة فى معرفة سره ، فى مقابل كرمها ، ومن ثم اقتادته الى قاعة المائدة ، وهى تسر اليه فى رفق وكأنها تبتهل : « كن لطيفا مع الأب ، أزدد حبا لك ! »

وفرغت الأسرة من العشاء دون ان يقع ما يعكر صفوها . وكان الفضل فى ذلك لريمون بيرسى ، اذ ان وجوده يسر لقاء مسيو روكفيار وابنه دون عتاب . وحين تقدم المساء ، آب موريس الى حجرته متعللا بأنه يشكو صداعا . وعرج فى طريقه على مخدع أمه ـ التى ظلت ملازمة فراشها ـ فقبلها فى الظلام ، ولكنها عرفته من ملمس شفتيه، فهتفت باسمه ، وراحت تتحسس وجهه . وافلتت من عينه دمعة ، فبادر الى الخروج .. ما أقسى ما كان الحب يكبده !

وأعد حقيبة ملابسه ، متعمدا ان لا يتخمها حتى يسهل عليه حملها بنفسه ، ثم أودع حافظته ما كان لديه من نقود ، والمبالغ التى اقترضها ، وورقة مرجريت ، فزاد مجموعها قليلا على خمسة آلاف من الفرنكات . وخيل اليه ـ بخبرته الضئيلة بالحياة ـ

انها ثروة طائلة ! ٠٠ كذلك أخذ ما كان يمتلك من مجوهرات قليلة ، عسى ان يفيد من بيعها ٠ واذ انتهى من استعداده ، أخذ ينتظر كسجين قضى عليه بالاعدام ٠٠ فهو يرتقب ساعة التنفيذ٠ وأخذ عقله ـ الذى كان يؤمن بعصمته من الخطـأ ! ـ يؤازره فى قراره ، ويزين له الحياة المتحررة من كل الالتزامات ، بعيدا عن البقاء فى حلقة آل روكفيار ، كأصغر ابنائها !

* * *

◆ **أوى** السيد روكفيار الى مخدعه وقد اطمأن الى مسـلك موريس ، وما ابدته ابنته من ثقة ، فلم تخالجـه الهواجس ، لا سيما وانه كان قد قرر ان يقصى ابنه عن (شامبيرى) نهائيا٠ فقد كتب الى صديق حميم ، كان روكفيار يدينه بعدة افضال ، وكان قد استقر ـ بعد ان جاب الدنيا واستنفد كل ثروته ـ فى تونس ، حيث عمل فى المحاماة ، فنجح نجاحا كبيرا ، وكتب مرارا الى روكفيار يعرب عن حاجته الى مساعد يكل اليه أعماله ، رغبة منه فى ان يستريح ٠ **أفلم يكن من السهل على ابنه ـ وهو بعد فى الرابعة والعشرين ـ ان يجد فى مثـل هذا الاغتراب ، وفى مثل تلك الحياة بما فيها من جدة وطرافة ، ما يمكنه من النسيان والنجاة ؟!**

وخيل الى السيد روكفيار ـ فى هدوء الليل ـ انه سمع بابا يفتح ثم يغلق ٠ وظن فى البـداية انه أخطأ السمع ، اذ كان الصمت يخيم على الدار ، فحاول العودة الى النوم ٠ وبعد مقاومة لنفسه ، أشعل عود ثقاب ليتعرف على الوقت ، فاذا به قد تجاوز منتصف الليل بنصف ساعة ٠ وما لبث ان نهض فغادر مخدعه٠ ولمح فى نهاية الردهة بصيصا من النـور يتسرب من تحت باب موريس ، فدنا من الحجرة ، وأصاخ السمع ٠ فلمـا لم يلاحظ أية حركة ، طرق الباب ٠ ولكنه لم يتلق جوابا ٠ وتردد قليلا ، ثم ولج الحجرة ، وهو يقول لنفسه ـ ليخفف من حدة القلق الذى

تولاه : « لعله نسى ان يطفىء المصباح ! »

وتبين لأول وهلة ان السرير كان خاليا لم يمس ، وصوان الملابس كان خاويا • فعاد الى حجرته ، وارتدى ثيابه فى عجلة ، ثم ركض كشاب ـ رغم أعوامه الستين ـ نحو المحطة • وكان موعد القطار السريع الذاهب الى ايطاليا قد فات ، ولكن كان ثمة قطار آخر يتجه صوب جنيف • **وانبأه موظف بالمحطة كان يعرفه بأن موريس قد رحل « معها » ، وانهما ابتاعا تذكرتين الى (تورين)** • وأطلق الأب صيحة تشبه الصوت الذى ينبعث من الحديد حين تمسه المطرقة لأول مرة • ولكنه كان كالحديد صلابة ومقاومة ، فلم يلن تحت مطرقة القدر ، وانما احتفظ باعتدال قامته ، دون ان ينهار ! •• فان من ينحدر من أصل كأصله ، ومن أسرة كأسرته ، لا يمكن ان يهوى امام زلة من زلات الشباب • لسوف يسترد ابنه ، ان عاجلا أو آجلا ، فيعيده الى نطاق الأسرة •• أو لعل القدر هو الذى يتكفل باعادة الابن الضال •• وقد يكون هو ـ الأب ـ من الضعف بحيث يقنع بأن يذبح عجلا سمينا احتفاء بعودة الابن ، بدلا من ان يوجه اليه اللوم والتقريع ، على ما ورد فى الأسطورة القديمة ! •• **وان بيت الاسرة لهو المكان الذى يضمد فيه المرء جراحه ، والذى يلجأ اليه موقنا من انه لن يرد عن بابه ! •• ولقد يهجر الزوج زوجته ، والزوجة زوجها ، ويعق الأبناء آباءهم وأمهاتهم فيهجرونهم ، ولكن الأب والأم لا يقويان على التخلى عن طفلهما ، ولو تخلى العالم كله عنه !**

وبدت البلدة ـ فى ضوء القمر ـ كجثة هامدة •• وتردد لوقع قدمى السيد روكفيار ـ اثناء عودته ـ صدى تجاوب فى ذلك القفر الموحش • وفيما كان يسير فى شارع (بوانى) ، رأى الحصن وقد رفع أمامه برجيه السامقين اللذين زادهما الظلام تطاولا وارتفاعا • وأبصر فى مواجهة القصر شجرة رسمت الظلال صورة لها على الأرض • لسوف تستيقظ البلدة بعد ساعات

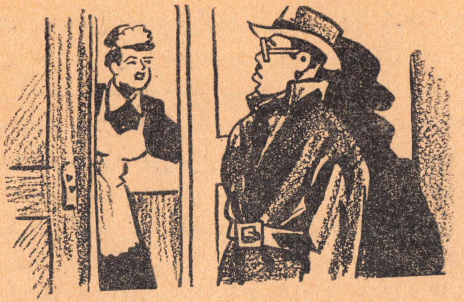
قلائل ، لتطلق الضحكات الساخرة الشامتة ، حين تعلم بالمأساة التى حلت بآل روكفيار !

وبلغ السيد روكفيار داره ، فما ان فتح الباب ، حتى لمح طيفا ابيض مقبلا عليه ٠٠ تلك كانت مرجريت ، التى بادرته متسائلة فى انزعاج : « ما الذى جرى يا ابتاه ؟ » ٠٠ ولما لم تكن زوجته قادرة على ان تكون بجواره ، فقـد رأى ان يشرك ابنته فى حمل اعباء المحنة الفادحة ٠ وكان يقدرها الى درجـة تحمله على ان لا يخفى عنها الأمر ، فتمتم قائلا : « لقد سافرا !» ٠٠ وتذكرت اذ ذاك أمنية أخيها التى همس بهـا اليها وهو مهموم ، ففهمت ما جرى ٠ وهتفت متنهدة : « آه ! »

ومرة أخرى ، تعانق الأب والابنة ، وضم كل منهما الآخر الى صدره ، وقد ربط بينهما الأسى المشترك ٠ وما لبث الأب ان قاد ابنته فى رفق الى مخدعها ، ثم قال ـ موصيا اياها قبل ان يتركها : « لندع الأم نائمة يا صغيرتى ٠ فلسوف تعـرف آلامنا مهما يطول الأمد ! »

٤ ـ انتقـام الأسـتاذ فرازن

◆ **هبط** الأستاذ فرازن من قطار الساعة السابعة صباحا ، فى (شامبيرى) ، وقد حمل حقيبة صغيرة ، وتدثر بمعطفـه اتقاء لبرودة الصباح ٠ وغذ السير الى مسـكنه الذى غاب عنه يومين ، وادرك لفوره ـ للارتباك الذى اعترى الخادم التى فتحت له الباب ـ ان شيئا ما قد جرى ، او كان يجرى فى منزله ٠ كان رجلا قد ناهز الخمسين ، لا يزال محتفظا بصحته ٠٠ كما كان مستقيما ، فاتر الطباع ، ممتازا فى صفاته ٠ بيد ان شفتيـه الغليظتين ، بل وعينيه البراقتـين المحتجبتين خلف نظارته ، كانت تثير شعورا من عدم الارتياح فى النفس ٠٠ ومع انزعاجه



الطارىء ، فانه سأل الخادم : « هل كل شىء على ما يرآم ؟ .. والسيدة ؟ » .. فأجابت الخادم فى لهجة انطوت على سخرية مستترة : « لقد سافرت السيدة مساء أمس الى ايطاليا ومعها حقائبها ! »

ــ الى ايطاليا ؟ ــ أجل يا سيدى

ــ فى أية ساعة ؟ ــ فى منتصف الليل

وتساءل فى دهشة : « دون اى ايضاح ؟ » . فأجابت الخادم: « لقد قالت السيدة وهى منصرفة ان السيد قد أحيط علما » . فقال السيد فرازن فى برود : « هذا صحيح ، فأعدى لى الفطور فى غرفة المكتب ! » . ودخل غرفة مكتبه ــ المتصلة بمكتب التوثيق ــ دون أن يبدى أية دهشة ، اذ ما جدوى سؤال هذه الفتاة الماكرة الجاهلة ؟ .. على ان النبأ غير المتوقع ، الذى دوى فى اذنيه كطلق نارى ، لم يكن قد أثار غضبه بعد ، ومن ثم لم يداخله سوى عجب مذهل . **والجرح مهما يكن قاتلا ، لا يبعث فى البداية اكثر مما تبعث الصدمة البسيطة ، ولا بد من فوات وقت قبل ان يثير الألم** . وبأعصاب متوترة ، وعينين حادتين ، لمح السيد فرازن على المنضدة خطابا وضع بشكل متعمد ، بل ومثير للتحدى . وأمسك به دون ان يفضه ، محاولا التكهن بما

فيه ٠٠ كان يتضمن تفسيرا لهذا الرحيل ولا شك ٠٠ هـــذا الهجر الذى تم فى غير اكتراث ولا مبالاة بالنتائج ! ٠٠ فقـد كان ـ رغم انقضاء تسع سنوات على زواجه ـ قليل الثقـة فى زوجته ، بحيث بدت له كل التكهنات جائزة ومحتملة : أتراها فرت بصحبة أحد ، ام هي نزوة متهوسة استبدت بها ولن تلبث ان تزايلها فتعود الهاربة الى حظيرتها ؟ ٠٠ ولم يخطر ببـاله اسم موريس روكفيار ٠ ولقـــد كانت مدام فرازن تسعى الى الاستحواذ على اعجاب الرجال ، وتجد فى ذلك ملهاة ٠٠ وكان كل امرىء يتملقها ويتقرب اليها ، ومن ثم فان فرازن لم يحفل جديا بذلك الود الذى تمادت فيه زوجته مع احد موظفى مكتبه، رغم أنه عرف ـ من الخطابات التى تلقاها من مجهـــولين ـ ان البلدة كانت تتحدث عن هذه العلاقة ٠ **فقد تملـــكه ما يتملك الرجال الناضجين من ازدراء للشبان الذين يلاحقون النساء ، ومن تشبث بأهداب الأمل ، وثقة فى ان الزمن فى صفهم ٠٠ فهم ـ وقد جاوزوا الشباب ـ يميلون الى الاعتقاد بأن المرأة لا تميل الا لمن فى أعمارهم أو ما يقرب منها ، لأن العـــواطف فى رأيهم غير ذات قيمة مالم تستند الى امكانيـــات !** وكان فرازن يعرف كم حال التعصب للأخلاق فى الريف دون تحقق كثير من شهوات الغاوين والغاويات ٠ وفوق ذلك ، كيف يخطر بباله خاطر غير معقول ، كذلك الذى يوحى اليه بأن شابا مثل موريس ينبذ طواعية مركزا مريحا ، ملائما ؟

لم يستسغ عقل فرازن افتراضا كهذا ، ولكنه وجد نفســه أمام أمر واقع ، وهو الرجل الذى لم يكن يعنى بغير الوقائع ٠ واذ أعياه هذا اللغز الذى لم تنفذ بصيرته الى أغواره ، فض غلاف الرسالة وقرأ :

« سيدى : اننى لم أحبك قط ، وانك لتعرف ذلك ٠ اذ أية قيمة لقلب المرأة لدى ذلك الذى يمتلكها بعقد رسمي ؟! لقـــد احتملت هذه العبودية تسع ســنوات ، لأننى لم أكن أحب ٠

ولكن هذا قد تغير اليـــوم : هأنذا أتحرر مخلصة ، بدلا من ان أقسم نفسي بين رجلين • فمـــن الذى يعوقنى ؟ •• لقد كنت تبغض الأطفال منذ بداية زواجنا ، مع ان يد الطفل الصغيرة كانت كافية لأن تغلنى بالقيود •• أما الآن ، فان بيتنا خال ، وليس فيه من يحتاج الى • ثم انك قدرت قيمتى فى عقد زواجنا بمائة ألف من الفرنكات ، فلعلك ترى ان من الطبيعى أن أحمل معي ثمنى • ولقد دفعت مقابله شبابى • وانى اذ أهجـــرك ، لأغفر لك • فوداعا ـ اديث دانيمارى »

كان كل شيء فى الحياة ـ حتى العواطف ـ لا يتمثل للأستاذ فرازن الا فى شكل عقود والتزامات ، سواء أكان ذلك بحكم عاداته المهنيـــــة ، أو بتركيب عقله المادى الواقعى ! ولما كانت أخلاقنا تتحكم فينا ، حتى فى ساعات الألم والعـــذاب ، أو ساعات ترددينا فى المآذق ، أو ســـاعات النزع الأخير ، كذلك كان فرازن ، فانه لم يشعر بالأسى الا لفقدان زوجته ، وليس لضياع نقوده ، رغم انه كان حريصا على المال • ولكنه حين اراد استعراض ماضيه ، وتفريج كربه ، لجأ بغريزته الى البحث فى أحد الملفات عن عقد زواجه الذى أشارت اليه المرأة فى رسالتها • وما ان لمح الوثيقة التى تحمل الخاتم الرسمى ، حتى تمثل فى جلاء ذلك الغرام المشبوب الذى استبد به فى أواخر شبابه • ورأى بعين الخيال ـ عند مدخل احدى الكنائس ـ فتاة ممشوقة القوام ، ملفوفة العود ، تنم حركاتها وعيناها عن النار المتأججة فى أعماقها •• وكان ذلك فى (ترونش) ، موطن طفولتـــه ـ بالقرب من جرينوبل ـ حيث اعتاد أن يذهب فى عطـــلاته الصيفية من كل عام ، حين كان يتاح له ان يغادر باريس ،حيث كان يعمل رئيسا للكتبة لدى أحـــد الموثقين • ولم يكن قد استقر بعد ـ رغم اقترابه من سن الأربعين ـ على ترك باريس ، واتخاذ مكتب خاص فى (دوفينيه) •• المقاطعة التى تقع فيهـــا (جرينوبل)

ولم يستطع ان يقاوم اعجابه ، فسرعان ما تحرى عن الفتاة، وعرف ان « اديث دانيمارى » تقيم مع امها على مقـــربة من (ترونش) ، فى منزل صغير ، لاذت به المرأتان وهما شبه معدمتين ، بعد ان مات رب الأسرة الذى بدد ثروته فى الميسر ٠ **وقدر فرازن فى نفسه ان فتاة قروية لها مثـــل عينى اديث ، لابد ان تكون فريســـة ســـهلة ! ولكنه ظـــل عامين يلاحقها دون ان ينال منها مأربا ٠٠ فقد كانت ترتقب أمير أحلامها ، اذ كانت جامحة الطموح ٠ وعندما سئمت الانتظار ، ألهبت الوحدة خيالها ٠٠ ومن ثم صدت فرازن ، ولكنها حرصت على أن لا يكون ذهابه دون عودة !** وكانت قد اكتشفت ـ دون دراســة تؤهلها لذلك ـ فن الصد المنطوى على وعد ، ومارسته على حساب ذلك الرجل الذى كانت مغامراته فى الأوساط المتبذلة والمغرقة فى الشهوات تجعله يرتبك ويضطرب أمام دلال كدلال اديث ! ٠٠ ومن ثم اعترف بالهزيمة ، اذ تغلبت شهوته على مصلحتـــه ٠٠ وكان قد فقد أبويه اللذين خلفا له ميراثا طيبا ، فقرر فى النهاية ان يطلب رسميا اليد التى صـــدته ، وهى تريه ـ فى الوقت ذاته ـ المكان الذى يجب ان يتخذه خاتم الخطبة !

ولكن ، كيف يعبر خلال بنود العقد القانونية عن حبه ؟ ٠٠ لقد نص فى أحد البنود على منحة قدرها مائة الف من الفرنكات للزوجة المقبلة ـ التى يربطه بها العقد ـ لا تســتولى عليها بعد وفاة المانح ، كما جرت العادة ، وانما تنتقل ملكيتها اليها فور اتمام الزواج ٠ **وكان هذا السخاء غير المألوف دليلا على ضعفه ، وشـــهادة ـ تدعو للحسرة ـ على هزيمته ! ٠٠ فقد أخضع هذا السخاء البراعة القانونية للعاطفة المشبوبة !**

وانتزعه من فحص العقد ، مقدم الخادم تحمل اليه «الكاكاو» ٠ وكانت ترمق سيدها ـ من طرف عينها ـ وهى تقوم باحضـــار الفطور ، فأدهشها ان تراه ممسكا بأوراق قضـــائية ٠ وكان يفحص أحد الملفات ، والخادم ترقب خلسة أساه أو غضبه ، حتى

تجد ما ترويه للبلدة ٠ ولكنه أشار اليها يصرفها ٠ وتناول الافطار بغير اشتهاء ، وبدافع من ارادته : أو لم يكن فى حاجة الى قواه بعد قليل ، حين يتحتم عليه ان يتخذ قرارا ؟

وبينما راح يحتسى الشراب الساخن ، فرغ من استعراض سنى حياته الماضية ٠٠ استعرضها من وجهة نظره ! فقد كان ـ مثل كثيرين من الرجال ، وككل النساء تقريبا ـ عاجزا عن ان يتمثل وجهة نظر شريكه ٠٠ وكانت الصور التى تمثلها ، هى صور زواجه فى (ترونش) ـ الذى تم بعد كثير من التردد والارجاء لم يصدرا عنه هو ! ـ والرحيل الى باريس ٠٠ باريس التى كشفت له عما كان يجهله فى زوجته ٠٠ فمن العزلة والحياة الرتيبة ، انتقلت دون ما ارتباك او تردد الى الطيش النزق ٠٠ فانها لم تجاره فى نضوجه ، ولا هو اكترث لشبابها٠ ومن هنا حصل على مكتب الأستاذ كليرفال فى (شامبيرى) ، بعد ان أعياه العثور على مكتب فى (جرينوبل) ، على أمل ان يجدا فى الريف دعة وهدوءا ٠ أما مدام فرازن فقد أدى هذا الانقلاب فى حياتها الى ان تولاها ذلك الشعور بعدم الاكتراث الذى يساور اولئك الذين لم يجدوا من الحياة ما يرضيهم ٠ وسر فرازن حين بدا عليها انها تقبلت العزلة بغير تحبيذ ، ولكن ٠٠ بغير معارضة كذلك !

وانقضى عامان على هذا النمط ، امتازا بالنعم التى يمكن ان يلقاها المرء فى وجوده بالقرب من امرأة لم تكف ـ رغم هدوئها ـ عن ان تثير فى النفس شيئا من القلق ! وفجأة ، وفيما كان يخالها قد استكانت الى الدعة ، والعلاقات الطيبة ، والشواغل اليومية ، اذا بها تهجر مسكن الزوجية لتهرب مع حبيب !

* * *

• وأخذ الموثق يصعد في غير وعي ـ وقد رزح تحت الكارثة

التى لم يكن متأهبا لها ـ سلم الذكريات التى تمثلها فى العقد المدنى ٠ ومن جديد ، بلغ الهاوية ، ولكنه فى هذه المرة سبر غورها ، وقاس عمقها ٠ لقد أصبح ذلك « الموريس » روكفيار ـ الذى كان يحتقره عند وصوله ! ـ عرضة لنيران غيرته ٠٠ فان اديث لم تسافر وحدها ٠٠ من المحتمل ـ بل من المؤكد ـ انها سافرت معه ٠٠ مع موريس ٠ ولابد انه كان يضمها الى صدره فى تلك اللحظة ذاتها ، هنـــاك ٠٠ فى ايطاليا ، البعيدة ! ٠٠ وتناول السيد فرازن منديله فرفعه الى عينيـــه ، ثم مزقه اربا بأسنانه ٠٠ ولم يعد يتمالك نفسه ، فبكى !

لكم أجادت اديث وصفه حـــين قالت لموريس : « انه يحبنى بطريقته الخاصة » ٠٠ وهـــذه الطريقة لم تكن أنبل الطرق ، ولكنها كانت أحفلها بالعذاب : فهى تضنى النفس بصور محددة قاسية ، وهى تشق القلب كما يشق المحراث الأرض ، وتولد الكراهية والبغضاء !

وعاد فرازن فأمسك بالخطاب والعقد ، لا ليزيد من شقوته ، وانما ليتلمس طريقا للانتقام ٠ وكان موظفو مكتبه عـلى وشك الحضور ، ومن واجبه ان يتقصى الأمر ، وان يعد أسلحته ، قبل وصـــولهم ٠ لابد انها تناولت النقـــود التى حملتها معها ـ أو بالأحرى التى سرقتها ، لأن الهبة بين الزوجين تعتبر فى جميع الحالات باطلة بمجرد صدور الحكم بالطلاق ! ـ من الخزانة ٠ فقد أودع منذ عهد قريب مائة وعشرين ألفا من الفرنكات ثمنا لأحد العقارات ، ولابد له من ان يدفعها بعد أيام من توقيع العقد الذى أجرى توثيقه ٠ وها قد أخذت اديث المبلغ بفضل اهماله الذى لا مراء فيـــه ٠ وقد يكون من الممكن صنع ـ أو سرقة ـ مفتـــاح للخـــزانة ، ولكن ٠٠ كيف تراها اكتشـــفت تركيب الأرقام السرية التى لا يكون للمفتاح جدوى بغيرها ؟

ونهض فاقترب من الخـــزانة التى لم تكن تحمـــل أى أثر

للاغتصاب . وبحث في جيبه ، وأخرج حلقة مفاتيحه ، فتبين ان المفتاح لم يكن بينها .. لابد انه نسيه سهوا يوم سفره . على انه كان يمتلك مفتاحا آخر للخزانة ، وان كان يعهد به الى رئيس الكتبة ، ليستعمله أثناء غيابه . لذلك اضطر الى ان ينتظر حضور الكاتب ليفتح الخزانة ويتأكد من محتوياتها ، ولكى يشهده على الواقعة . ومن ثم سعى الى مكتبه ، فتناول قانون العقوبات ، وشرع يلتهم المواد الخاصة بالجرائم والجنح التى ترتكب ضد المالك . وقرأ في المادة ٣٨٠ ان الاختلاسات التى يرتكبها الأزواج للاضرار بزوجاتهم ، أو الزوجات للاضرار بالأزواج ، لا تقع الا تحت طائلة القانون المدنى . ولكن نهاية هذه المادة — التى جردته من كل سلاح ضد الخائنة ! — أمدته بسلاح ضد شريكها : « فيما يتعلق بجميع الأشخاص الآخرين الذين يخفون او ينتفعون بكل أو بجزء من الأشياء المسروقة ، فانهم يعاقبون كمتهمين بالسرقة » .. وراجع المواد التى عالجت الموضوع ، فعثر على مادة أفضل من سابقتها .. تلك هى المادة ٤٠٨ التى تناولت «سوء استغلال الثقة» . فقد رأى فيها ظرفا يدعو لتشديد العقوبة ، وذلك اذا كان من أساء استغلال الثقة موظفا عاما أو حكوميا ، أو خادما أو مستخدما ، أو من المشتغلين بالرهونات ، أو طالبا ، أو كاتبا ، أو عاملا تحت التمرين ، أو عاملا ، أو موظفا تحت التمرين أراد الاضرار بصاحب العمل . وفى هذه الحال ، تكون العقوبة هى السجن !

فما الذى يمنعه من ان يتهم موريس روكفيار .. ومن ان يتهمه وحده ؟ .. ألم يكن هذا جديرا بأن يلقى تصديقا ؟ .. لقد كان الشاب يعرف معالم المكتب ، والعمليات التى تجرى في المكتب ، وتاريخ العقود ، وغياب الموثق . وكان بوسعه أن يلتقط سر قفل الخزانة ، وان يسرق المفتاح من رئيس الكتبة لفترة وجيزة . ولما كان لا يمتلك ثروة شخصية ، فقد كان مضطرا للحصول على المال ليهرب مع عشيقته .. ثم ، الا يدينه

هربه الى الخارج ؟ ٠٠ لا مراء فى ان ما اعلنته مدام فرازن فى خطابها كان يكذب هذا الادعاء ، ولكن رسالة مدام فرازن لم تكن صالحة لأن تتخذ دليلا ضدها ، كما انها كانت فى صالح عشيقها ، فيكفى اعدامها !٠٠ ان أى شىء لن يقوى على تبرئة الشاب اذا أعدمت الرسالة !٠٠ ثم ان الشاب فقد كل وسيلة للدفاع ٠ أفلا يجب عليه ـ اذا شاء الدفاع عن نفسه ـ ان ينقلب على زميلته ، وان يعترف على الأقل بمعاشرتها والحياة معها على نفقتها ؟٠٠ وهذا ما لا يمكن لرجل شريف ان يفعله ٠ ومن ثم فقد كانت ادانته مؤكدة ! ٠٠ وسوف ينتهى فراره الغرامى بتسليمه الى حكومته ، ليقف أمام محكمة الجنايات وقد ذوى عوده ، وتحطم ، وهانت كرامته ، فيكفر عن ذنب الاثنين ٠ وأخيرا ، ستدفع أسرته المبلغ المسروق ، لتخفف من وزره ، وبهذا يتفادى السيد فرازن النكبة ٠٠ أو كل خسارة مادية على الأقل ، فان الخسارة المادية لم تكن بالأمر الذى يستهين به !

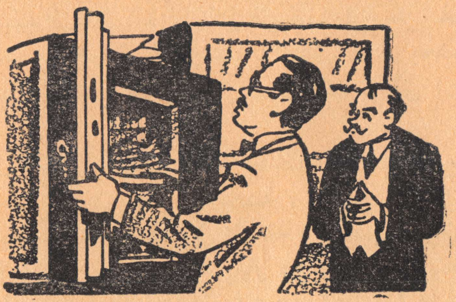
وعندما انتهى من تقليب الأمر على كل الوجوه والوصول به الى النهاية المقصودة ، أحس بهمومه تخف ، ونسى ألمه وهو يتبين ادانة غريمه وعقابه ٠ وراح يستعرض النتائج البعيدة المدى ، التى ستترتب على انتقامه ـ دون ان يداخله اشفاق ـ حتى انتهى بها الى الحط من قدر آل روكفيار المتغطرسين ، الذين أكرموا وفادته حين خلف الأستاذ كليرفال ، واتخذوه صديقا ٠ كان فى تعاسته يلقى بآلامه على العالم كله وكأنها لعنة !٠٠ وعاد يقرأ للمرة الأخيرة ذلك الخطاب الذى كان يقيم العقبة الوحيدة فى طريق خطته ، ثم استجمع عزمه وألقاه فى النار ٠٠ وراقبه وهو يحترق ، ويصبح رمادا ٠

* * *

◆ **ودقت الساعة مؤذنة بالتاسعة ٠ فأخذ الكتبة ـ المواظبون ـ يتوافدون على المكتب واحدا آثر واحد ، فيجلسون**

الى مكاتبهم • واذ ذاك فتح السيد الباب الذى يصل بين حجرته والمكتب ، واستدعى رئيس الكتبة وهو مشغول البال ، دون ان يحييهم ، وقال : « فيليبو •• اننى لا أجد مفتاح الخزانة » • فأجابه الكاتب : « ها هو ذا ياسيدى ، فقد عهدت انت به الى أثناء غيابك ، ولكننى لم أستخدمه» • فقال : «صدقت •• تعال معى ! »

وسار الرجلان الى غرفة المكتب ، ثم فتح السيد فرازن الخزانة ، فلاحظ فى الحال شيئا من عدم النظام فى جوفها • واذ ذاك تساءل : « هل كنت تبحث عن شىء •• عن وصية مثلا ؟ » •



فقال فيليبو فى حرارة : « لا ياسيدى •• أقسم لك » •• وهنا قال فرازن : « اذن ، فلست أفهم شيئا •• فهذا المظروف الممزق كان يحتوى على ثمن بيع ضيعة بيلفاد : مائة وعشرون ألفا من الفرنكات ، عددناها سويا » • فقال الكاتب مرتجفا : « حقا يا سيدى »

وكان الموثق فى غاية الهدوء • ولم يمض فى اسئلته ، بل اغلق الخزانة بعناية ، وقال : « لقد دخل هنا شخص ما » • فرد الكاتب : « هذا مستحيل ياسيدى » • ولكن فرازن قال فى اصرار : « أؤكد لك ان شخصا ولج هذا المكان • وسنثبت

محتوياته أمام رئيس البوليس ٠٠ من الذى اغلق المكتب مساء أمس ؟ »

ـ موريس روكفيار

ـ وهل كان وحيدا ؟

ـ أجل ، فقد تريث ليكتب بعض الخطابات

فسأله : « الى متى ؟ » ، فأجاب : « لست أدرى ٠ ولكننى قابلته تحت « البواكى » بعد نصف ساعة فأسلمنى المفاتيح »٠٠ وهناصاح فرازن : «المفاتيح ؟٠٠ أوكان مفتاح الخزانة بينها ؟» ، فأجاب : « أجل »

فقال السيد فرازن : « لم يكن فى هذا شىء من الحكمة » ٠٠ وساد الصمت برهة ، ثم عاد يتساءل : « ولماذا لم يحضر بعد ؟ » ٠٠ فقال الكاتب : « من ؟ » ٠٠ وأجاب الموثق : « موريس روكفيار »

وهنا قال الكاتب بلهجة مفعمة بالحقد : « انه لن يحضر » ٠ فحدجه السيد فرازن بنظرة فاحصة ، أرشدته الى أمرين : **أولهما ، ان نبأ نكبته قد ذاع فى المدينة ، وثانيهما ، ان فيليبو ـ الذى كان فرازن يشك فى انه يغار من موريس وينافسه فى حب زوجته ! ـ سيكون حليفا يثق فيه ويركن اليه !** على انه تظاهر بالجهل ، وقال : « هذا صحيح ، فقد تقرر ان ينضم الى مكتب أبيه » ٠ ولكن الكاتب قال : « لا يا سيدى ، فانه سافر فى منتصف ليلة أمس »

ـ والى أين ؟

ـ الى ايطاليا

واذ ذاك نطق الموثق بحكمه فى بطء : « آه !٠٠ أخيرا فهمت !٠٠ اذن فلعله هو الذى اغتصب خزانتى ٠ كيف تراه عرف الأرقام السرية ؟ » ٠٠ فنكس فيليبو رأسه ، وقد أحاله الخوف والغيرة الى نمام متواطىء ، وقال : « ان الأرقام مكتوبة

فى مفكرتى ، ولكن بغير بيان يوضح ماهيتها •• وقد كتبتها لأن ذاكرتى ضعيفة • ولقد قرأ روكفيار الأرقام ، فلعله حدس ما تنم عليه » • فقال الموثق : « ان تفريطك مضاعف • اطلب الى احد زملائك يا فيليبو ان يستدعى رئيس البوليس ليتولى التحقيق بنفسه »

وتم فحص الخزانة رسميا فى حضور عدد من الشهود ، وقدم السيد فرازن بيانا بمحتوياتها ، واسفر البحث عن ان شيئا منها لم ينقص • واذ ذاك قال الموثق فى هدوء ، وهو يوجه التحقيق ببراعة ودقة : « **بقى ان نفحص هذا المظروف الكبير ، الذى وجد ممزقا • فقد كان يحتوى على ثمن بيع ضيعة بيلفاد ، التى تقدر مساحتها بعشرين فدانا • وكان الثمن مائة وعشرين الفا من الفرنكات ، كلها بالعملة الورقية • وقد عددت المبلغ قبل سفرى ، امام رئيس الكتبة ، الموجود الآن ، والذى يشهد بذلك** » • وهنا قال فيليبو : « **تماما يا سيدى** »

فأردف فرازن : « والمبلغ مسجل على المظروف » • وبفحص المظروف ، وجد انه لا يحتوى الا على عشرين ورقة من فئة الألف فرنك ، فقال فرازن : « اذن فقد سرق منى مائة ألف من الفرنكات »

وسأله رئيس البوليس : « **وكيف تفسر عدم استيلاء السارق على كل المبلغ الذى كان فى المظروف • ان اللصوص لا يقنعون ، وليس من عادتهم ان يتطوعوا بتحديد ما يسرقون !** » • فقال الموثق : « لسوف أجلو هذا للنيابة التى سأقدم اليها شكواى فى الحال »

ـ هذا شأنك • أتراك تشك فى أحد ؟

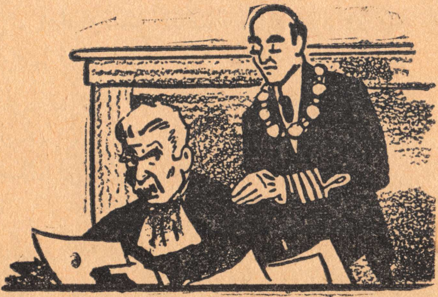
ـ نعم

فتساءل رئيس البوليس : « أترتاب فى خدمك » • وأجاب فرازن : « لا ، فلو انهم ارتكبوا هذا العمل لهربوا • كما انهم لا

يستطيعون معرفة الأرقام السرية لقفل الخزانة » • واذ ذاك قال رئيس البوليس : « حسنا •• سأحرر المحضر الآن ! » • ولكن فرازن قال : « أرجو أن تصحبني الى المحكمة ، فهي على بعد خطوتين من هنا » • فقبل الضابط قائلا : « لك ما شئت »

وقصدا الى المحكمة لفورهما ، حيث دار بين الموثق ورئيس النيابة حديث طويل ، استأنفاه بعد انصراف رئيس البوليس •• وبينما كان فرازن يهبط السلم ، التقى في نهايته بالسيد روكفيار صاعدا الى المحكمة •• وكانت الساعة قد بلغت الربع بعد الثانية عشرة ، وهو موعد بدء الجلسة

وتبادل الرجلان النظرات ، وحيا كل منهما الآخر !



٥ ـ الاخطار تتهدد الأسرة

• من عادة المحامين وموكليهم ان يتبادلوا الأحاديث في ردهة المحكمة بضع دقائق ، قبل ان يدخل المستشارون قاعة الجلسات • ففي تلك الردهة يتبادل الجميع انباء المدينة • غير ان السيد روكفيار ـ الذي كان محبوبا لحسن دعابته ، ومرهوبا للذعاته الحادة ـ بادر الى ايداع معطفه في خزانة الثياب ، ثم

اتخذ مكانه فى مقاعد المحامين • وكان زملاؤه يتأملونه عن بعد فى فضول خبيث ، وهم يتهامسون عن مغامرة ابنه موريس ، ويعالجونها فى رفق وتساهل • فقد رأوا فيها رد فعل للتقاليد الصارمة السائدة فى الاقاليم • وفيما كان السيد روكفيار منهمكا فى اعداد مرافعته ، اقترب حاجب من مقعده ، ومس كتفه قائلا : « انهم يريدونك فى النيابة يا أستاذ ! » •• فنهض لتوه فى اهتمام ، وقال : « هأنذا ذاهب اليهم »

وكان من المألوف فى كل يوم ان ينتهز المدعى العام فرصة وجود أحد المحامين فى المحكمة ، فيستدعيه لمسائل تتعلق ببعض القضايا الجنائية • ومع ذلك فان السيد روكفيار لم يخل من بعض القلق ، الذى أوحت به اليه مقابلته للسيد فرازن على سلم المحكمة •• فهمس لنفسه : « ترى هل تبلغ به الحماقة الى الدرجة التى يرفع فيها دعوى الزنا ؟ » •• **ان الزنا جريمة فى نظر القانون ، الذى يترك للزوج وحده حق طلب القصاص فى حالة حدوثه ، وهو امتياز لا يلجأ اليه الزوج الا نادرا • ولكن وجه فرازن كان ينم عن شر ••**

وكان السيد « فاليروا » ـ المدعى العام ـ يرأس نيابة (شامبيرى) منذ سنوات عدة ، تمكن خلالها من ان يقدر نزاهة السيد روكفيار فى مهنته ، وخلقه ومواهبه •• ومن الصحيح ان هناك أقاويل عن احتمال ترشيح روكفيار فى الانتخابات التشريعية المقبلة ، وعما قد تعانيه السلطات من معارضة قوية نشطة ، اذا نجح فى تلك الانتخابات •• ولكن اتهام السيد فرازن لابنه كان كفيلا بأن يقضى قضاء مبرما على هذا الخطر السياسى • ولما كان السيد فاليروا موظفا طموحا ، فانه استقبل السيد روكفيار فى ترحاب حين أقبل على مكتبه • اذ لم يجل بخاطره ـ منذ وجد نفسه مضطرا الى الحديث معه ـ سوى ان امامه رجلا شريفا فى محنة • فمد اليه يده ، وبادره قائلا : « ان

واجبى يحتم على ان أواجهك فى مهمـــة مؤلمة » ٠٠ وتوقف عن الكلام مترددا ، ولكن قوة المحامى المعنوية كانت تبدو فى أجلى صورها فى الظروف العصيبة ، ولذلك فانه شكر للمدعى العـام لطفه ، واتجه الى الهدف مباشرة ، اذ قال : « لعله أمر يتعلـق بابنى » ٠ فأجاب المدعى : « أجل »

ـ أتراها دعوى طلاق ذكر فيها اسمه ؟ أم هى دعوى زنا ؟

ـ لا ، مع الأسف !　　　　ـ مع الأسف ؟!

لم يكن لهذه العبارة سوى معنى واحد ٠ لذلك تساءل السيد روكفيار فى صوت حازم ، ولكنه متحشرج : « هذا يوحى بأن ثمة حادثا ؟ ٠٠ أهو انتحار ؟ » ٠٠ فصاح السيد « فاليروا » ، وقد فطن الى الهواجس التى أثارها : « لا ، لا ٠٠ اطمئن ٠ **فقد ســافر ابنك مع مدام فرازن ، كما تعرف البلدة كلها ٠ ولكن هناك ما هو أخطر من ذلك ٠ فان السيد فرازن ـ الذى انصرف من هنا منذ قليل ـ قدم الى شكوى يتهمه فيها بسوء استغلال الثقة** » ٠ واحتقن وجه المحامى الشـيـخ ، رغم تمالكه نفسه ، وهتف فى اباء : « سوء استغلال الثقـة ؟ اننى أعرف ابنى ٠٠ هذا مستحيل ! » ٠٠ فشرع ممثل الاتهام فى تلاوة الشكوى ، التى وقعها الموثق ورفعها اليه مرفقة بمحضر المعاينة التى أجراها رئيس البوليس ٠ وأصغى اليه السيد روكفيار بانتباه ، دون ان يقاطعـــه ٠ كان الأمر كفيلا بأن يقوض دعائم أسرته ، وان يلطخ اسمه ٠ وقال أخيرا وهو رابض الجأش ، وان كان مطعون القلب : « ان السيد فرازن يثأر لنفســـه بخسة ! » ٠ فأجاب السيد فاليروا ، الذى ترك عواطفه تظهر دون تحـرج : « اننى أشاركك الرأى ، ولكن النقود اختفت ، فكيف توقف الدعوى العامة ؟ »

ـ ان ابنى ليس وحـــده فى الاتهام ٠ واذا هرب طفـل فى العشرين من عمره ، مع امرأة فى الثلاثين ، فأى الاثنين الذى يعد الخطة ويقودها ؟!

ـ هذا ما صرحت به منذ لحظات ، وفى هـذا المكان بالذات ، وباصرار • لقد نصحت بالتعقل ، وطالبت بأربع وعشرين ساعة للتفكير فى الأمر ، ولكننى قوبلت بقرار رسمى ، فلابد للعدالة من ان تتخذ مجراها • اننى مضطر الى احالة الشكوى الى قاضى التحقيق !

واستجمع السيد روكفيار شجاعته ازاء ضربة القـدر ، ولاذ بالصمت ، بينما راح المدعى العام يقلب المسـألة على كل وجه دون ان يهتدى الى حل • وقال : « ان هنـاك قرائن خطيرة ، ودقيقة ، ومطابقة للظروف : هناك أولا التسهيلات التى يتيحها له مركزه فى المكتب ، ثم وجوده هناك ليـلة أمس ـ ومعـه المفاتيح ـ بعـد انصراف الكتاب الآخرين ، وحاجته الى المال لتنفيذ مغامـرة الفرار الجريئة ، ثم اهتمامه بأن يحدد المبلغ المسروق بنفسـه ، وكأنه أراد ان يوحى بأنه سيسدده ! » • فأجاب الأب فى اعتزاز : « **وهناك فى صفه أدلة أخرى : هناك أسرته أولا ، فلا انكار فى انها من سلالة عريقة طيبة !•• ثم من الذى قال لك انه سافر بلا مال ؟•• لسوف يعود عنـدما تنفد نقوده ، وأنا الكفيل بذلك !** »

وقطع عليهما الحديث حاجب أقبـل يدعو المحامى الذى كانت هيئة المحكمة تنتظر مرافعته • فصرفه السـيد روكفيار بايماءة وهو يقول : « لسوف ألحق بك » • بينما استأنف السيد فاليروا حديثه قائلا : « ولكن ، كيف يتمكن من الدفاع عن نفسـه اذا اعتقل ؟ •• يجب ان تدرك جيـدا ان مركزه سىء ، وان الأدلة تتجمع ضـده •• ولكى يبرىء نفسـه ، لابد له ـ على أحسن الفروض ـ من ان يتهم سواه •• فهل يقبل هـذا ؟ ومع ذلك ، فسوف يكون شريكا •• وعلى أية حـال ، فانصحه ـ اذا كنت تعرف مكانه ـ بأن يتريث قبل ان يعود الى فرنسا ، وسأطالب بالتمهل فى القبض عليه » •• فهز السيد روكفيار رأسه بقوة ،

قائلا : « **لا ، لا ٠٠ ان الهرب بمثابة اعتراف ٠ يجب ان يعود ٠ وسأنقب عن أدلة تبرئه !** »

وبعد ان اســتغرق فى التفكير برهة ، قال : « أما وقد هز مصابنا مشــاعرك ياسيدى المدعى ، فهـل تأذن لى ان اسألك خدمة ٠٠ خدمة جليلة قد تنقذنا ؟ » ٠٠ فتساءل المدعى : « وما هى ؟ » ٠٠ وهنا أجاب المحامى الشيخ : « **اعرض على الاستاذ فرازن ان يسترد شكواه مقابل دفع المائة ألف فرنك**

ـ وهل ستردها أنت ؟ **ـ سأدفعها**

ـ ولو لم يكن ابنك مذنبا ؟

ـ انه فى مأزق كما قلت بنفسك ، وشرفنا يساوى أكثر من هذا المبلغ ٠٠ كما ان المقاضاة تلطخه !

واذ ذاك قال المدعى : « ان الأستاذ فرازن معروف بالتكالب على المصلحة ، ولعل شكواه لا تكون ـ بالنســبة اليه ـ سوى وســيلة لزيادة موارده ٠ فاعرض عليه نصف المبلغ » ٠ ولكن السيد روكفيار قال : « **لا ٠٠ لا مساومة ٠ الدفع مقابل سحب الشكوى !** » ٠ ورغبــة فى اراحة باله والتملص من الموقف ، تراجع المدعى متسترا وراء واجباته المهنيــة ، فقال : « انك على حق ، وبودى ان أخدمك يا أستاذ ، وقد ازددت رغبة فى ذلك امام تضحيتك ٠ ولكن ، هل مما يناسب مركزى ان اقـدم على مسعى غير قانونى كهذا ؟ » ٠ فتبدى التأثر على السيد روكفيار وقال : « **انه غيرقانونى حقا ٠ ولكن الوقت ضيق ، ولسوف أذهب لأترافع أمام هيئة المحكمة ، ولن تلبث الشكوى أن تعرف ٠ وأنت وحدك الذى تعرفها حتى الآن ، وفى وسعك أن ترجئها ٠٠ اننى أتوسل اليك** » ٠ على أن المدعى قال : « هـذا مستحيل ، فليس بوسعى أن أذهب الى مقر أحد أصحاب الشكاوى » ٠ فقال المحامى الشيخ : « **فى وسعك أن تستدعيه الى النيابة** » ٠ وأجاب السيد فاليروا : « فليكن ! ٠٠ ان الوسيلة غالية ، ولكنها

أكيدة المفعول . سأقـــدم الاقتراح باسمى ، حتى اذا قدر أن يفشل،كنت أنت غير مقيد بعرض ينطوى على تسليم بالسرقة» .
فقال الشيخ : « شكرا »

* * *

◆ **وافترق** الرجلان ، فذهب المحامى الى قاعة الجلسة ، واذا المستشارون قد سئموا الانتظار . وشرع فى مرافعته ببراعته المعتادة . فلم يحدس أحد ـ أمام حججه المنطقية المرتبة ـ شيئا عن الالم الذى كان يضنيه . ولكن « المجاهد » المسن ـ الـذى لم يشعر بالتعب يوما ـ أحس حين جلس بارهاق بالغ ثقيـل ثقل الشيخوخة . وبعدمرافعة الخصم ، و رد موجز منه ، أصبح حرا فى أن ينصرف ، فنظر الى ساعته ، واذا بها تشـير الى الثالثة والنصف .. كان مصير ابنه معلقا على ســاعات رفع الجلسة الثلاث . لذلك صـــعد الى النيابة حيث كان الســيد فاليروا فى انتظاره . وأدرك لأول وهلة أن المدعى قد أخفق .. ومالبث هذا أن قال : « لقد جاء الســيد فرازن .. وأرى أنك كنت على صواب ، فهو ينتقم لنفسـه » .. وتســاءل المحامى : « هل رفض ؟ » . فأجاب المدعى : « **رفضا باتا ! .. انه يفضل حقده على ماله . عبثـا حاولت أن أضغط عليــه بكل قواى ، فصورت له الفضيحة التى سيثيرها حول زوجته ، بل وتحدثت عن نقص الأدلة ، فكان جوابه أنه ســيدعى بالحق المدنى أمام قاضى التحقيق ، اذا أنا لم أدع الشكوى تتخذ مجراها .. وهذا حقه ، كما أن قراره حاسم !** »

وتساءل المحامى : « وماذا لو حاولت من جانبى أن أثنيه ؟.. لقد كنا دائما على علاقات طيبة » . فأجاب الســيد فاليروا : لن تكون زيارتك مجدية . بل ستكون أليمة ، ومدينـة لابنك ، ومن ثم فلست أنصحك بها . لقد حدثته عن أسرتك ، وعنك ، فأجابنى : « ان ابنه انتزع قلبى . وماذا اذا دفع الابرياء ثمن

أخطاء المذنبين ؟! » • فأخلد السيد روكفيار الى التفكير لحظة ، ثم انصاع للنصح اذ تبين صوابه ، فاستأذن من المدعى ، باسطا اليه يده وهو يقــول : « بقى على أن أشــكرك ، فقــد عاملتنى كصديق ، ولن أنسى لك هذا » • فأجاب السيد فاليروا متأثرا : « اننى أرثى لك ! »

وعاد المحامى الى داره وحافظته تحت ابطه • وكان من عادته دائما أن يسير مسرعا بخطى شابة ، رافعا رأسه •• ولكن وجهه كان شـديد الشـحوب • وتحت « البــواكى » ـ حيث اعتـاد المتسكعون أن يأووا ـ مر بأصدقاء ادبروا عنه ، بينما كان المارة يرمقونه فى اصرار واستهزاء • وأدرك أن موظفى مكتب فرازن قد أشاعوا فى البـلدة عار آل روكفيار •• آل روكفيار ؟! •• **كانت هذه أول وصمة للسلالة منــذ قرون • أفكانت سـلالة مبغوضة الى هذا الحد الذى يجعل الناس يتلقون النبأ بمثل هـذه الشماتة ؟ ! •• اذن ، فما أحط الحسد الذى تثيره أمجاد اسم عريق ! ••** لقد حطمت زلة أحد الأحفاد ماضـيا حافلا بالدأب والشرف ، أنجب أمثلة تحتذى فى الرجولة سنوات طويلة !•• أفلا يفهم هؤلاء الشامتون أن هذا الانهيار يمسهم هم الآخرين ؟!

وشد قامته ، ثم خفف من اسراعه • ولم يقـو أحـد عـلى أن يتصـدى لنظرته • وغالب الشـعور بالذلة ـ اذ راح يواجـه العاصفة ـ وهو يقول فى نفسه : « **انبحى من بعيد أيتها الكلاب ولكن حذار من الاقتراب ، فلسوف أحمى أسرتى مادمت حيـا ، وسأذود عنها بقوتى • ولن ترينى قط أتلوى من الألم !** »

ووجد عند بابه السـيد ديلا مورتيلليرى ، جاره فى الريف • أفتراه يطيق عبارات المواساة والعطف ؟ •• على أن هذا المعتوه أظهر له شعورا انسانيا يتمشى مع حاله ، اذ قال فى لهجة غامضة ، وهو يشير الى الحصن الذى سبح فى الشـفق : « عندما جاء الامبراطور سيجيسمون ـ فى سـنة ١٤١٦ ـ أقام دوق أميديه

الثامن مأدبة فى القاعة الكبرى ، نظمها جان دى بيلفيل ، مبتكر حلوى (سافوا) • وكانت اللحوم ذهبية اللون ، محلاة بزينات ورايات تمثل أسلحة قوات الضيوف • وتلقى كل ضيف النصيب المخصص له ، مقسما الى أجزاء صغيرة متفاوتة الاحجام ، تبعا لمراكز المدعوين • اننى أحب هذه التفرقة : فما ينبغى للمرء أن يأكل حسب شهيته ، وانما حسب قيمته ! » • فرد السيد روكفيار وهو يفارق هذا المزعج : « ان قطعة واحدة كانت كافية لى ! »

•• لم يكن فى وسعه أن يخدع نفسه ، فيستبدل بالحاضر ذكريات الماضى ! واختفى فى مدخل الدار ، ثم صعد السلم ، وبلغ غرفة المكتب ، متحاشيا مخدع زوجته التى كانت تلازم الفراش دائما • ولكنها أحست به ، فنادته على أمل أن يوافيها بأنباء ابنهما • وألفاها وحيدة ، وقد جلست على سريرها ، يخيم عليها ظلام المساء الزاحف • وتمتمت : «لقد خرجت مرجريت» • ثم استجمعت شجاعتها وسألته : « أما عرفت شيئا عن موريس ؟ » • فأجاب : « لا ، لاشىء •• وسنظل فترة طويلة دون أن نتلقى شيئا ، ولاشك ! » •• فقالت المريضة : «ماأقسى لهجتك يا فرانسوا ! •• لقد سحرته تلك المرأة ، كما تعرف • ياله من طفل بائس ! » •• فقال : « **ان الضعف لون من الذنب ! » • وجزعت للصرامة التى تجلت فى نبراته ، فأدارت زر الضوء الكهربائى ، واذا بها ترى زوجها وكأنما شاخ فجأة ! فقد كان شاحبا ، غائر العينين ، الى درجة أشعرتها بالخطر**

وهتفت ضارعة : « هناك أشياء تخفيها عنى يافرانسوا • ألست كما عهدتنى : شريكة حياتك التى لا تكتم عنها سرا ؟ » • فدنا من السرير قائلا : « ولكن لاجديد هناك أيتها العزيزة ! أليس فى فرار ابننا الكفاية ؟ » •• فشدت قامتها ، وبسطت ذراعيها ، واستأنفت تضرعها : « أقرأ فى نظرتك نذير خطر

رهيب يتهددنا • لاتخدعنى كمـا فعلت فى الليلة الماضـــية • تكلم ، فسوف أتجلد ! » •• وقال مشفقا : « انك تنفعلـين دون ماداع •• فــلا أنبــاء هنــاك ! » •• فهتفت : « أقسم لك أننى سأتجلد، فلاتخف !» •• ولكنه عاد يناشدها : «فالنتين••هدئى من روعك ! » • فقالت : « انتظر •• لسـوف تصـدقنى ! » • وضمت العجوز ـ التى هدها المرض ـ راحتيهـا ، وابتهلت الى الله بصوت عال أن يهبهـا القوة • وتألقت عيناها بلهب انعكس على الوجه الشاحب الهزيل الخالى من أى لمحـة للحيـاة ، فهتف زوجها : « رفقا يا فالنتين ! » • فالتفتت اليه وكأنما تغيرشكلها، وقالت : « الآن •• الآن ، قل لى • ان بوسعى أن أستمع • هل مات ؟ » • فصاح : « أواه ! كلا ! »

لقد داخلها عين الشك الذى داخله ! •• ولما كان مثلها وثيق الايمان ، فقد أفضى اليها بالاتهام المروع الذى أصابهم جميعا • فصرخت فى اباء : « هذا غير حقيقى • فليس ابننا لصا ! » •• وقال : « لا • ولكن الناس جميعا يرونه كذلك » •• فأجابت : « وما قيمة ظنهم طالما أنه ليس لصا فى الواقع !•• اننى أعرفه، وانى لواثقة منه » • ولكن السيد روكفيار لخص لها النكبـة فى عبارة قطعت كل شك : « **انه يصمنا بالعـار !** » •• **تلك كانت الجريمة التى حكم على ابنه بها ، بوصفه رئيسا للأسرة، لابوصفه متدينا يخشى ضميره فحسب •• جريمة ضد «السلالة» كلهـا !**

وصاحت فى خشوع ووجل : « يارب •• لاتتخل عنـا ! » • وما أن نطقت باسم الله ـ مناط الأمل الوحيـــد ـ حتى أقبلت مرجريت مهمومة ، تغالب أساها ، ونظرت الى أبيها وأمهـا وقد وحد بينهمـا الألم ، ثم انفجرت باكية كسـيل تفجـر من وراء قنطرة ! وأطلقت لدموعها العنان •• فضمتها مدام روكفيار الى صدرها قائلة : « تعالى ! » •• وسألها أبوها : « من الذى أساء اليك ؟ » • فغالبت حزنها بجهد خارق ، وقالت : «انهم يسبوننا»

.. وعاد يسألها : « من ؟ » . فأجابت: « آننى قادمة من دارمدام بيرسى ، اذ كان ريمون هناك .. ولقد قالت لى : « ان لك أخا جميلا » . وساءنى هذا ، فنكست رأسى ، ولكنها عادت تقول : « أتعرفين ما الذى يرويه موظفو مكتب فرازن ؟ » .. وظللت صامتة ، بينما استطردت هى : « يقولون ان أخاك لم يقنع بالمرأة وحدها » .. وصاح ريمون بصوت خافت : « أماه ! » .. أما أنا ، فقد ظللت واقفة ، وقلت : « أتمى كلامك ياسيدتى ، فهذا واجب » .. ووجدت من نفسها الجرأة على أن تقول : « لقد سطا على الخزانة » .. **واذ ذاك قلت : « اننى أمنعك من أن تسيئى الى أخى » .. وتحولت الى خطيبى قائلة : « أما أنت ياسيدى .. أما أنت يامن لا تعرف كيف تحمينى فى دارك ، فانى أحلك من وعدك ! » .. وحاول أن يستبقينى ، ولكننى لم أنصت لرجائه .. وها أنذى قد عدت ! »**

وغمغمت أمها وهى تقبلها : « ياصغيرتى العزيزة ! » .. وصاح السيد روكفيار فوق رأسى زوجته وابنته المتلاصقين : « آه ! .. ان الناس يحكمون دائما دون أن ينتظروا دفاعا ! » .. على أن مرجريت مالبثت أن نسيت شقاءها الشخصى ازاء الشقاء المشترك ، فنهضت وسارت الى أبيها ، وثبتت بصرها فى بصره وقالت : « أنت يامن أثق فيه ، أجبنى : ان هذا ليس صحيحا .. أليس كذلك ؟ » . فقالت المريضة مؤكدة : « انه كذب » . وقال رب الأسرة : « آمل ذلك .. ولكن كل الظواهر ضده ، وهو معرض للادانة » .. فهتفت الابنة والأم معا : « الادانة ؟ » .. فقال المحامى : **« أجل ، الادانة ! .. ونحن جميعا معرضون معه .. فنحن نحمل نفس الاسم ، وننحدر من نفس الماضى ، ونسير الى نفس المستقبل ! »**

وأشار بيده وكأنه يحمى المرأتين المغرقتين فى الدموع ، ويهدد الهارب : « ان لحظة ضعف كافية لأن تهدم جهود أجيال

متكاتفة .. آه ! .. ليته يقدر فى فراره المهين - حيث هو الآن - مدى خيانته : لقد فصمت خطبة أخته ، وتعرض مستقبل أخيه للخطر ، وصحة أمه للتداعى ، وثروتنا للضياع ، واسمنا للتلطخ ، وشرفنا للتولث ! .. هذا ماصنعه بنا . وهذا مايسمى بالحب ! ماقيمة أن يكون قد سرق مبلغا من المال ، وهو قد سلبنا كل شىء ؟ .. ما الذى تبقى لنا اليوم ؟ » .. فصاحت مرجريت : « أنت .. أنت الذى ستنقذه ! » .. وقالت مدام روكفيار التى رانت عليها - فى الضيق - مهابة قدسية غريبة : « **الله ! .. فكونا به مؤمنين ! .. ان أقدار السلالات وفضائلها لا تضيع قط ، بل هى تكفر عن زلات المذنبين !** »

القسم الثانى



١ - صانع التحف المقلدة

• **ان** أقل بحيرات (لومباردى) اجتذابا للزائرين هى بحيرة (اورتا) . فهى تتضاءل بجانب شهرة بحيرة (ماجير) كما يتضاءل القارب فى مرسى السفينة الكبيرة ، ومن ثم يقنع المسافر بنظرة يلقيها عليها من القطار فى غير اكتراث ، ودون أن يعنى بأن يعرج عليها ! .. وهو يتأمل المعالم الدقيقة للجبال المكسوة بالغابات ، التى تحيط بها ، وبالوديان العميقة ، التى تتناثر فيها القرى البيضاء متوارية فى وسطها كما تتوارى قطعان الماشية بين الأعشاب . ثم يلمح الناظر فى نظرة خاطفة تلا تكتنفه الأشجار - التى تمتد على لسان من الأرض موغل فى الماء - ومدينة مستلقية على الشاطىء ، وجزيرة مكتظة بالبنايات . وفى انطلاق القطار مسرعا ، يخال المسافر انه يلمح ابتسامة تنبعث من هذه المناظر التى تكتنز وتصون سحر الطبيعة فى

(لومبارديا) ٠٠ الطبيعة التى تجمع بين الخشـــونة والبهاء ٠ وتلتف شواطىء البحـــيرة فى رفق ولين ، بينما تتجلى صفحة الأفق صافية ، مشرقة ، لا أثر فيها لذلك البخار الذى يشاهد فى سماء سويسرا و (سافوا) الباهتة ٠ فاذا هبط المســـاء ، بدت المناظر قائمة على صفحة مشرقة ٠ وتتكرر تعرجات التلال المتناســـقة ، فى أحجام أضخم ، كلما نظر المرء نحو الشمال ، بشكل يجعله يخال ان سهل (نوفار) يمتد حتى يلتحم بجبال الألب الشامخة الراسخة !

ولم تكن (اورتا نوفاريز) قد تأهبت بعد لاستقبال الزوار ، ومن ثم كان المرح غائبـــا عنها ٠ وكان ثمة فندق واحـــد ، على ســـفح الجبل المقدس - (مون ســـاكريه) - يدعى فنـــدق (بيلفيدير) ، ويستقبل الزائرين القـلائل من الربيـــع حتى طلائع الشـــتاء ٠٠ فقد كانت (اورتا) متوجـــة بتل قام عليه عشرون هيـــكلا صغيرا ، تناثرت بين الأشجار ، تصور حيـــاة ومعجزات القديس « فرانسوا الأسيسى » ٠ على أن المرء لا يكف عن اكتشاف منازل ريفية بين الخضرة الممتدة على طول الشاطىء ، يأوى اليها أغنيـــاء الاقليم طلبا للراحة ، فلا تكاد نوافذها ترى مغلقة قط ٠٠ ويفوح دائما من حدائقها - التى تبدو عليها مظاهر العناية - شـــذى الزهور التى يستنشقها المرء فى غبطة ، على النقيض من روائح موائد الفنادق التى تسمم جو (بالانزا) أو (بافينو) ، فتفسد على الزائر استجمامه !

ففى فندق بيلفيدير ، وفى شهر مايو ، نزلت مـــدام فرازن وموريس روكفيار ، هاربين من المـــدن الكبرى التى قضيا فيها وقتا ســـيئا ٠ فحملهما الهدوء - بعـــد الصخب - واعتدال الأسعار ، على البقاء حتى نهاية اكتـــوبر ٠٠ وما لبث ان أقبل خريف رائع ، فى أعقاب صيف مر على عجل ٠ ولولا قصر النهار ، ودبيب البرودة فى الجو ، والاصفرار الذهبى الذى صبغ أوراق

الشجر ، لما ظن الانسان ، وهو يتطلع الى الشمس المشرقة ، ان الشتاء وشيك الحلول !

وفى ذات صباح ، جلس موريس فى حجرة الاستقبال ـ المتصلة بمخدعهما ـ منصرفا الى ترجمة كتيب ايطالى يحمل عنوان « حياة القديسين جيوليو وجيليانو » .. وهما قديسان أقبلا من بحر ايجه فى القرن الرابع ، فنشرا المسيحية فى (اورتا) . على ان فقرة مقتبسة من احدى مؤلفات « لامارتين » ، نشرت بنصها الفرنسى ، شغلت الشاب أكثر مما شغلته أكثر العبارات الايطالية استعصاء . وأرسل بصره خلال النافذة ، وقد شرد باله ، وغفلت عيناه عن مجموعة الأشجار التى كانت تقوم كالباقة عند طرف شبه الجزيرة ، فى بقعة تقع أسفل النافذة مباشرة .. وقد بدا الماء ساكنا ، شفافا ، تتوسطه جزيرة كانت ملتقى العشاق والمفاتن ، وصفها الشاعر خلال سيرة القديسين بأنها كزهرة من زهور الكاميليا ، فوق صفحة فضية !

وما لبثت نظرات موريس الشاردة ان بلغت قمم الجبال ـ التى حجبت الأفق ـ وكأنها تريد ان تتجاوزها لتلم بما خلفها ! .. وفيما كان مستغرقا ، دلف طيف ابيض الى الحجرة ، فانحنى فوق كتفه ، وأطل على الكتاب المفتوح . واستلفتت بصره العبارات الفرنسية ، التى برزت بحروف واضحة بين السطور الأجنبية : « **قال لامارتين : ان مآل الطفل الى البيت الذى ولد فيه . فان نفسه تتألف فى الغالب من المشاعر التى خبرها فيه . ان النظرة التى تنبعث من عينى أمنا جزء من نفسنا ، يتغلغل فى أغوارنا خلال أعيننا !** »

واغلقت مدام فرازن الكتاب بلطف ، فاذا حبيبها ـ الذى لم يكن قد فطن اليها ـ يجفل من هذه الحركة . وتبادلا نظرة حافلة بتلك الأمور التى لا يجسر العشاق على الافضاء بها ، ولا

يتمالكون ان يفكروا فيها ٠٠ وقالت تسـأله فى غير اكتراث : « فى أى يوم من الشهر نحن ؟ » ٠ فأجاب وقد عاودته سكينته : « فى الخامس والعشرين من أكتوبر » ٠ وفجأة عاودته الهواجس من ناحيتها ، اذ قالت : « لقد انقضى عام ، فهل تذكر متى كنا على موعد فوق هضبة (كالفير دى ليمنك) ؟ ٠٠ هناك قررنا أن نهرب معا ٠٠ ومع انه لم يمض سوى عام واحد ، الا ان حبى لم يعـد يكفيك » ٠٠ فهتف معاتبا : « اديث ! » ، ولكنها عادت تكرر : « لا ، لم يعـد يكفيك » ٠ واضافت ببسـاطة ، وعلى أساريرها ابتسامة حزينة : « انظر الى نفسك ٠٠ انك تنصرف الى العمـل » ٠ فقـال : « أو ليس من الواجب أن نفـكر فى المستقبل يا اديث ؟ »

ـ لا ، ليس من الواجب التفكير الآن ٠٠ ما الذى ينقصنا ؟

وانتهز فرصة السـؤال ليقول : « **لقد نفدت نقودى ، ولا أستطيع ان أنسى ان نفقاتنا أصبحت تسـتمد من نقودك** » ٠ وقطب قائلا فى حـرارة : « اننى أود ان يبقى صداقك دون ان يمس ٠ ولقد سألت صديقا لى من رجال الصحافة فى باريس ، بأن يبحث لى عن مركز فى الصحافة ٠ أليس بوسعى ان أحـرر بابا مقتبسا من الصحف الأجنبية ؟ لقد تعلمت الانجليـزية فى المدرسة الثانوية ، كما تعلمت الألمانية فيما بعد لأعد رسالتى للدكتوراة ٠ ثم اننى أتكلم الايطالية ٠ وبالجمع بين هـذه وبين عمل قضائى ، نستعين على الحياة »

وأصغت اليه وعلى وجهها ابتسامة خفيفة ، ثم راحت تتحسس وجهه بالوجد الذى كان يألفه منها ، وقالت : « لنتكلم غدا عن المستقبل ٠٠ غدا وليس اليـوم ! » ٠ فتساءل : « ولماذا نضيع يوما ؟ أن من واجبنا ان نحدد فورا موعدا لرحيلنا » ٠٠ فهتفت : « رحيلنا ؟ » ٠٠ وأجاب : « نعم ٠٠ الى باريس ! » ٠ فلم تستطع اخفـاء ضيقها ، وصاحت : « باريس دائما ! انك لا تكف عن الحديث عنها ٠٠ كأنها وسـواس يطـاردك ! » ٠٠ فأجاب فى

وجوم : « اننى هناك أستطيع ان أكسب عيشى » . فانسابت بين ذراعيه فى لين ودلال ، وسعت بشفتيها الى شفتيه الحمراوين القابعتين تحت شاربيه ، وهى تغمغم : « **لقد سألتك عاما واحدا من حياتك .. عاما أحياه بلا ماض ولا مستقبل ، نعب فى كل يوم من أيامه من حبنا ، وتنسى خلاله من أجلى بقيـة العالم . ترى ، هـل تذكر ؟** » .. فأجاب : « أولم أمنحك اكثـر مما طلبت ؟ » .. فقالت فى دلال : « لا يزال لى يوم .. فان السنة تكتمل غدا » .. وغمغم فى وجد : « غدا يا اديث ! » ، فقالت وهى ترتجف فى مهب الذكريات : « **لا تفسد اليوم الذى بقى لنا . وبما انه الأخير ، فما أجـدره بأن يكون أجمل أيام عامنا الذى انساب قطرة اثر قطرة . فلنكف عن الحديث عن المستقبل حتى غد ! أتعدنى ؟** » .. فابتسم فى نشوة وقال : « **أعدك !** » . واذ ذاك قالت : « اذن ، فسأذهب لأرتدى ثيابى على عجل ، ثم لنخرج فنتناول غداءنا فى الجزيرة ! »

* * *

. **وغابت** عن الحجـرة ، فحاول فى غيابها ان يسـتأنف الترجمة ، ولكن بصره وقع مرة أخـرى على الفقرة الفرنسـية المقتبسـة من لامارتين : « ان مآل الطفل الى البيت الذى ولد فيه ... » . فتوقف عن القراءة من جديد : لقـد كانت اديث على حـق ، فان الحاضر لم يكن كافيا له ، ولن يغنيـه قط عن الماضى . **لقد تواطأ الشريكان على اقصاء المستقبل عن ذهنيهما ، ولكن الماضى .. الماضى الذى لم يجدا جرأة على الكلام عنه . لقد كانت نظراتهما تغوص فيه ، فى الوقت الذى يظل لساناهما فيه مغلولين ، حتى لقد غدا الصمت ـ بالنسبة لموريس ـ نوعا من العذاب .. ترى ماذا « هم » يفعلون فى هـذه السـاعة ، وراء الجبال المتقاربة .. « هم » ، أولئك الذين لا يعرف أنباءهم ؟!**

وما لبثت اديث ان ظهـرت عنـد مدخل الحجـرة ، فقالت

تستجدى اعجابه : « أترانى جميلة فى هـذا الصباح ؟ » ٠٠ وكانت ترتدى ثوبا صيفيا من التيل الأبيض - يشى بمفاتن قامتها ، وان لم يهصر عـودها بضيقه ! - وقبعة يعلوها ريش أبيض أضفى عليها بهاء ورواء ٠ لقد جدد العام - الذى قضياه معا - شبابها ، وان لم تعد عيناها المتأججتان ترسلان ضراما كعهدهما فيما مضى ٠٠ كما ازدادت استدارة خديها وقل شحوبهما ٠ أما جسمها النحيل ، فقد بدا أنه ازداد وزنا ٠ وبوجه عام ، شمل شخصها كله تغير نم عن ارتواء بالحب !٠٠ وتأملها موريس باعجاب ، دون ان يوجه اليها الاطراء الذى كانت ترجوه !

ويمما شطر ميناء (اورتا) خلال طريق شديدة الانحدار ، رصفت بقطع من البلاط المستدير ، نمت الأعشاب خلالها عن قلة من كانوا يسلكون تلك الطريق ٠ واعترضت سبيلهما - فى الميدان الممتد أمام الساحل الرملى الذى تجمعت عنده القوارب - فتاة صغيرة يعلو شعرها القصير قلنسوة (بيريه) حمراء ، كثيرا ما صادفها العاشقان فى نزهاتهما ، مما أوحى اليهما بأنها تقيم فى مكان قريب ٠ وحملقت الفتاة فى وجهيهما - ولا سيما وجه موريس - طويلا ، دون ما استحياء ٠ حتى اذا تجاوزتهما ، قال موريس : « انها لطيفة ! » ، فندت عن زميلته زفرة أسى نمت فى لحظة خاطفة عن حقيقة سنها ، وقالت : « لا تنظر اليها ، فاننى أغار ! » ٠٠ فراق له ان يداعبها لهذه الفورة العاطفية ، قائلا : « تغارين ؟ ٠٠ أو ليس هذا من حقى أنا الآخر ؟ »٠٠ فتساءلت : « يا لله !٠٠ وممن ؟ » ٠ فأجاب : «من ذلك الايطالى الأسمر ذى الشاربين ، الذى يقيم فى الفندق ، والذى يتسى عشيقته - أثناء الوجبات - ليحملق فيك بنظرات مأخوذة ! »

وأغرقت المرأة فى الضحك هاتفة : « لورنزو ؟ »٠٠ فصاح : « أراك تعرفين اسمه » ٠ واذ ذاك قالت : « لقد ذكره لى ٠ لقد أفصح لى ، بعينيه المحملقتين ، عن عاطفة أثارت ضحكى ! » ٠٠

واصطنع موريس الضحك اصطناعا ٠ على انهما لم يكادا يستقران فى احد القوارب ، ويجذفان مبتعدين عن الشاطىء ، حتى غشيهما من جديد ذلك الشعور بالقلق وعدم الاطمئنان ٠٠ **كان الحاضر ، الذى يرعيانه ويصونانه بكل حيلةومهارة ، والذى اقصيا كل الذكريات والاحتمالات حتى لا تشوبه شائبة ٠٠ كان هذا الحاضر يرتج من أساسه لأتفه حادث عارض ! ترى أية أسواريجب أن يحاط بهاهذا الهوى لوقايته من الناس ، ولما ينقض بعد عام واحد على مولده ؟!** ٠٠ كان هذا الحب ـ الذى ضحيا من أجله بكل شىء ـ محاصرا بضغط الحياة من كل جانب ٠٠ بل انه كان محاصرا بقلبيهما الخافقين أيضا ، كتلك الجزيرة التى تبدت أمامهما محاصرة بالماء !

وكانت المرأة أول من أحس بالأسى الذى ران عليهما ، فنهضت عن مجلسها ودنت منه ٠ وبدلا من أن يسرى عنها ، راح موريس يروى لها أسطورة القديس « جول » ، التى لم يكن فيها مايهم أيا منهما ! ٠٠ وراح يقول : « لقد كانت هذه الجزيرة فيما مضى مأوى للأفاعى ، فلما أراد القديس جول أن يذهب الى (أورتا)،رفض أصحاب قوارب الصيدأن يعيروه قاربا ، فما كان منه الا أن بسط معطفه على الماء ، وجذف بعصاه ٠٠» ، فقاطعته أديث محنقة : « يالك من عالم ! » ٠ ولكنه استطرد قائلا : « اننى أواظب على قراءة هذه الأسطورة » ، فصاحت : « لكم أكره كتابك ! » ٠٠ وأدرك السبب فى كراهيتها الكتاب: **ففى ذلك اليوم الأخير من العام الأول لهواهما ٠٠ فى ذلك اليوم، كانت مشاعرهما من الارهاف بحيث كان يجرحها كل شىء ويؤلمها كل قول ٠٠ حتى أكثر الحديث براءة وسذاجة !**

ورسيا بقاربهما عند سلم يفضى الى الشاطىء ، فربطا القارب الى حلقة حديدية مثبتة الى البر لهذا الغرض ، وولجا الكنيسة الرومانية العتيقة التى ضمت تحفا أثرية بيزنطية اكتشفت حديثا تحت طبقة سميكة من الطلاء ٠ كما كان هناك متبو من

الرخام الأسود ، وتابوت ، ولوحات من نقش « فيرارى » و « لوينو » • ولم يشعرا بمتعة وهما يريان مناظر الماضى فى الكنيسة ، فما أجدر العشاق بمناظر دائمة الجدة والطرافة ، لأنهم يخشون الأحاسيس الفاترة ويصدونها بدافع من خوف غريزى • فضلا عن أن هذين الحبيبين كانا يسلكان فى الهوى دربا ضيقا لا عهد لهما به ، فلاغرابة فى أن يخشيا أن ينتاب عواطفهما ملل أو فتور !

* * *

◆ **وكانت** قمة المرتفع الذى تتألف منه الجزيرة مشغولة بأكملها بمبانى مدرسة للاهوت ، تشبه الحصن فى طرازها • ودار العاشقان مع انحناءة فى الطريق الضيقة ، فاذا هما قد انتقلا الى بقعة منعزلة تماما ، بين جدارين شاهقين ، فى جزيرة •• وبدا لهما أن ليس فى العالم اذ ذاك سواهما ! •• **أو ليست هذه أمنية العشاق جميعا ؟ •• لقد كانا يتوقان – فى العام الماضى – الى أن يقضيا بقية عمريهما فى مثل هذه العزلة ، فلما وجداها ، اذا بهما يفران منها معا ، متجهين الى الشاطىء ! ••** وهناك ، كان ثمة شيخ يصطاد السمك فى غمرة من أشعة الشمس • وتحت ظلة – على مقربة منه – جلس طفلان حافيان ، يلهوان بقذف الأحجار الى الماء • بينما بدت المنازل الريفية بين الأشجار الممتدة على طول الشاطىء ، والتى أخذ الخريف يجردها رويدا من أوراقها • وانعكست صورة (أورتا) على مياه البحيرة الهادئة ، فاذا منظر الحياة الوادعة ، فى هدأة الظهيرة ، يبعث ارتياحا فى نفسى العاشقين القلقين !

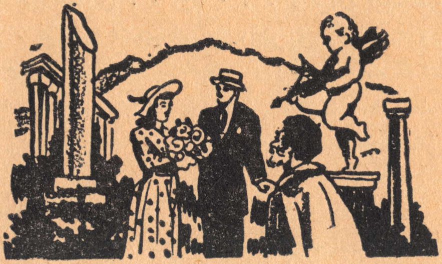
وتناولا الغداء على درج السلم المؤدى الى الهيكل • ثم قضيا فترة من الأصيل يطوفان بزورقهما فى البحيرة ، بحثا عن مكان مجهول يبعث النشاط فى أحاسيسهما ، ومالبثا أن يمما شطر الميناء • حتى اذا بارحا الزورق ، راحا يفكران فى طريقة يقضيان

بها بعض الوقت . فقال موريس لاديث ، حين بلغا الميدان الصغير : « هلا عدنا الى الفندق ؟ » .. فصاحت محتجة على هذا السجن الاختيارى : « أوه ، لا ! لاتزال الشمس مرتفعة فوق الجبل ، فلنسر متمهلين فى الطريق العامة » .. وكانت الطريق - بعد المدينة الخالية من الأرصفة - تمتد بمحاذاة البحيرة ، متدرجة فى الارتفاع ، حتى تطوق (مون ساكريه) - الجبل الذى يشرف بأشجاره وكنائسه الصغيرة على شبه الجزيرة - وتمتد على طول أسوار « الفيلات » التى ازدانت مداخلها بالنخيل وأشجار البرتقال . وحين بلغ العاشقان «فيلا» متواضعة تكاد تتداعى - كانا قد لمحاها من الطريق خلال بابها الذى ترك مفتوحا - تنسمت اديث أريج ورود وأزهار ، فأهابت بحبيبها : « انتظر .. ان لهذه الزهور شذى بديعا ، وانها لآخر زهور الموسم » . فقال : « لندخل ، وسأطلب لك بعضا منها ! »

ودخلا ، فاذا بهما فى حديقة حوت مجموعة بديعة من الأعمدة المهشمة ، والأبراج الصغيرة نصف المحطمة ، وأروقة ناقصة ، فكأنها صورة مصغرة لمدينة من مدن الفن غدت أنقاضا .. ولكنها كانت حطاما منتظما ، منسقا ، فى شكل زخرفى . وفى وسط الأحجار المتناسقة المتراصة بنظام خفف من آثار الزمن الهدامة ، قام تمثال صغير من الرخام تحيط به شجيرات الورد .. تمثال « الحب » الذى استوى مبتسما على قاعدة عالية وقد شد قوسه أمامه . ولم تر « الشابة » سوى هذا « الحب » المحوط بالورود ، فقالت : « انه لفاتن ، وكأنى بضوء النهار يعانقه ! » .. فقال موريس : « كأننا فى سوق للتحف القديمة .. ولعلنا فى دار فنان يهوى العاديات الجنائزية .. فان الايطاليين لا يحجمون عن الجمع بين الجمال والموت ! »

واقترب منهما رجل فى باكورة الشيخوخة ، يرتدى قميصا أبيض ، ويمسك فى يده ازميل النحاتين ، فحياهما باشارة تنم

عن وقار يمتزج بالاكرام والنبل ، وراح يتحدث بالايطالية مع الشاب ، بينما انهمكت اديث فى اقتطاف الأزهار باذن منه .



وما لبثت أن انضمت اليهما وفى يدها باقة ، وقالت : « هاهى ذى باقتى . سأمنح كلا منكما وردة » . فطفق رب البيت يشكرها ويعبر عن عرفانه بصنيعها ، دون أن تفقه حرفا . واذ ذاك قام موريس بتقديمه اليها قائلا : « السيد أنطونيو سيكاردى .. ان السيد يقلد التحف الأثرية .. وانها لمهنة جميلة ! » . فتطلعت اديث الى عشيقها متسائلة ، واذ ذاك قال : « سأوضح لك ذلك فيما بعد »

وفيما كانا منصرفين — بعد أن استأذنا مضيفهما — أخذت المرأة الشابة تتندر هازئة بهذه المهنة غير المألوفة : « صانع تحف مقلدة ؟ ! » .. فقال موريس : « ولم لا ؟ .. ان هذه التحف تستخدم فى تزيين الحدائق . ولو أننا أقمنا بجوار المقاعد — فى الحدائق الغناء — عمودا مهشما ، أو تمثالا لاحدى الحوريات الخرافيات ، أو حجراً ذا طابع خاص ، لكان ذلك بديعا جدا . اننى أعرف رجلا فاضلا — فى الحى اللاتينى — كان يصنع خيوطا كنسيج العنكبوت ، توضع على زجاجات الخمر التى تقدم فى السهرات أو المآدب الكبرى ، لتوحى بأن الخمر معتقة ! »

ـ وهل يربح كثيرا من المال ، من مهنته هذه ؟
ـ أجل ، كثيرا ـ هذا مستحيل !
ـ لقد روى لى أن جميع الأغنياء المحدثين ـ وكم من محدثين أثروا من التجارة وما اليها ! ـ قد شغفوا بفنه ، وأصبحوا يزينون المنازل الجديدة التى يشيدونها بتحف مقلدة !
ـ حسنا ، ولكن .. تمثال الحب ؟ .. لماذا يقوم الحب وسط هذه الأطلال الزرية ؟ .. كان من الممكن الاكتفاء بالزهور
فقال : « لقد سألت الرجل فى ذلك » ، فسألته : « وبماذا أجابك ؟ »
ـ أجابنى وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة ، كابتسامة الجيوكندا ، بأن من المؤكد أن « الحب يستمرىء العيش بين الخرائب والأنقاض ! »
وصاحت اديث : « عجيب هذا ! .. فبينما نرى الآيطاليين ينحتون الرخام ليضعوا قطعا منه فى مقابرهم فيحيلوها الى قاعات استقبال أنيقة ، اذا بهم يختارون التحف التى تشير الى الموت ليزينوا بها حدائقهم ! » .. وراحا يصعدان فى بطء جبل (مون ساكريه) ، الذى كان يرتفع على مستوى المدينة بحوالى مائة متر • فلما بلغا القمة ، كان الليل قد أرخى سدوله فأضفى بهاء سحريا على غابات الصنوبر والشربين والكستناء والأرز ، التى كانت تحتضن معابد القديس « فرانسوا الأسيسى » العشرين المتناثرة ، التى شيدت بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ، على طرز متباينة منها المربعة ومنها المستديرة ، ومنها ذات القباب ومنها التى بدون قباب ، ومنها القوطية والرومانية ، وأكثرها بيزانطية • وكان فى مكان الهيكل ـ فى كل معبد ـ منظر يمثل فترة من حياة القديس ، تبدو فى تمثال من الفخار بالحجم الطبيعى : فكأنه استعراض تاريخى صامت جامد • ومما كان يكمل قداسة المكان ، تماثيل لأطفال رفعوا أيديهم فى ابتهال الى السماء ، أو اشعاعات رسمت بخيوط

ذهبية موحية بوجود الله !

ولم يكن موريس واديث يدعان يوما يمر ـ منذ استقرارهما في (أورتا) ـ دون أن يذهبا الى (مون ساكريه) ، اذ لم يكن يبعد عن فندق بيلفيدير بأكثر من بضع خطوات • وقد اختارا المعبد الخامس عشر دون بقية المعابد ، اذ كان يقال ان الرسوم التى ضمها من صنع « ميشيل أنج » (ميكائيل أنجلو) • وكان هذا المعبد على شكل اسطوانى ، تعلوه قبة وبرج قائم على أعمدة صغيرة من الجرانيت ، مما كان يذكرهما بكنيسة (كالفير دى ليمنك) ، حيث اتخذا قرار الرحيل • أما الأقواس ذات الاحدوداب الخفيف ـ التى كانت تقوم على طول الردهة المرتفعة على مستوى الأرض ببضع درجات ـ فكانت كالاطارات ، تبين خلالها مناظر الغابة ، أو المعابد الأخرى الجاثمة بين الخضرة ، أو فوهة احدى الآبار ، أو جزء من صفحة السماء ، أو ركن من البحيرة ، أو جزيرة القديس جول التى كانت ، ببرجها القائم فى المقدمة ، أشبه بحصن كبير وسط البحيرة الصغيرة !

* * *

• **وكان** من الطبيعى أن يتجها الى معبدهما المختار ، فراحا يصعدان الدرب الموصل اليه ، وقد بدت أشجار الأرز كأطياف سوداء على صفحة الأفق الضاربة الى الحمرة • وهنا وهناك كانت المعابد البيضاء تتوارى تحت الأفنائ ، كأنها بيوت تفيض بالود والصداقة •• وأمسكت اديث ورودها باحدى يديها ، بينما أحاطت كتفي حبيبها باليد الأخرى ، وتنهدت هامسة : « لقد كانت أمسية جميلة كهذه ؟ » • فتساءل : « أية ليلة » •• وكان جوابها : « منذ عام •• أفتراك نادما على شيء ؟ » •• فقال وهو يشيح بوجهه : « لا » • ولكنها عادت تسأله : « وهل لن تندم قط على شيء ؟ » • فأجاب فى شيء من الجفاء وقد ضاق بالحاحها : « لا •• مطلقا ! »

ومالت الى الأمام لتسعى الى شفتيه ، واذا بها ترى فى عينيه نظرات بعيدة أثارت مخاوفها ٠٠ كان ذاك الذى قام بينهما طوال هذا اليوم الأخير من العام الأول فى غرامهما ، يبدو واضحا فى عينى موريس ! ٠٠ واذ ذاك نطقت بما كانت الحكمة تصدها عن قوله : « أين شامبيرى يا موريس ؟ » ٠ **فأجاب بسرعة وفى ايماءة صدرت عن ثقة زادت من هلع المرأة : « هناك ! » ٠٠ اذن فقد كان يصوب نظراته - فى أكثر الأحيان - نحو هذه الوجهة ٠٠ اذن فحبه لم ينسه شيئا !** وانبثقت الدموع من عينى المرأة ٠ ولم يعن الشاب بسؤالها عن سبب البكاء ، ولكنه حاول أن يسرى عنها بأن عانقها متسائلا : « لكم أحبك يا اديث ! » ٠ فأرسلت أنة أسى :

- أكثر من أى شىء ؟ **- أكثر من أى شىء !**
- وحتى الموت ؟ **- أجل**
- أو لا يفوقه شىء ؟ **- محال !**

فصاحت فى رغبة ضارية : « ولكننى لأريد أن أموت ٠٠ انما أريد أن أعيش ، فهل ستحبنى غدا الى هذه الدرجة ؟ » ٠٠ فتساءل فى دهشة : « ولماذا غدا ؟ » ٠ فقالت : « لأننى خائفة! ألا ترى معى أننا لن نستطيع أن نستمر على هذا المنوال ؟» ٠٠ واذ ذاك هتف موريس : « **آه ! هأنتذى تعترفين ! لا ، لن نستطيع المضى فى العيش على هذا النسق ٠ فليس بوسعنا أن نتغلب على المستقبل ، والماضى ، والناس ! ٠٠ ولكنك كنت ترفضين الخوض فى هذا الأمر !** » ٠ فصاحت : « اسكت يا موريس ٠٠ صه ! » ٠ ووضعت يدها على فمه ، ثم عادت تقول ضارعة : « غدا ٠٠ غدا أعدك ٠٠ سأطيعك ، ولك أن تقرر مصيرنا ٠٠ ولكن ، غدا وليس الليلة ٠٠ هذه الليلة الأخيرة من حقى أنا ! » ٠٠ وحل فمها محل يدها على شفتيه !

ومر النهار سريعا ٠ وأخذ الوهج الأحمر الذى كان يصبغ الجبال فى الاضمحلال شيئا فشيئا ٠٠ ورانت على مياه البحيرة

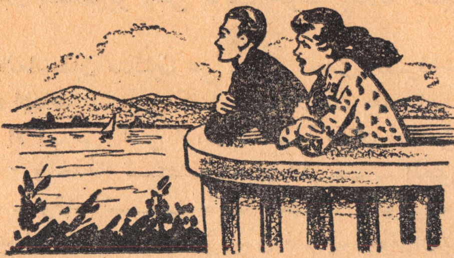
غلالة رمادية كانت أشعة الشمس الآفلة تتخللها فتبعث فيها رمقا من الحياة ٠ وما لبث موريس أن هبط درجات المعبد ، وسار صوب الاتجاه الذى أشار اليه منذ لحظات ، وكأنه مسلوب الارادة لا يفطن الى ماكان يفعل ! ٠٠ ثم التفت فرأى حبيبته واقفة بلا حراك ، بين عمودين ، وقد تجلى قوامها الأبيض على الجدار الذى كان أقل بياضا ٠٠ تماما كما كانت تقف منذ عام على هضبة (كالفير) تنتظره ! ٠٠ وغلب مرة أخرى على أمره ، فغمغم : « ما أجملها !» ٠٠ أما هى ، فكانت تشم الورود وتتأمل المساء ٠ وارتد ذهن موريس الى الزيارة الغريبة التى قاما بها فى الأصيل ، فقال لنفسه : « الحب ووروده ! » ٠٠ ثم صاح « اديث ، ألست قادمة ؟ ٠٠ لقد أخذت البرودة تشيع فى الجو ، وليس معك معطف ! »

وفيما كانت فى طريقها اليه ، اتجه ببصره نحو الأفق ، وتصور بلده فهتف لنفسه : « ان الأطلال باقية هناك ! »

ولكن ألم يقل له فنان (أورتا) بابتسامته الغريبة ان« الحب يستمرىء العيش بين الخرائب والأنقاض » ؟!

٢ ـ العيد الأول

◆ **أراد** موريس ـ فى يوم عيد الميلاد الأول لحبهما ـ أن يحمل زميلته على الرحيل٠٠ فبعد أن تناولا غداءهما ، اصطحبها الى الطريق التى تفضى الى (مون ساكريه) ، والتى تتخللها شرفات صغيرة محوطة بسياج من الحجر ، أقيمت لمن يستطيعون تأمل البحيرة من عل ٠ وكانت الشمس حامية ، ولكن المرء يستطيب ـ فى شهر أكتوبر ـ أشعتها بدلا من أن يتحاشاها ٠٠ ولم تنبس اديث ببنت شفة ، سواء عن حزن أو عن شرود بال ، ولكنه مالبث أن كان السباق الى قطع حبل الصمت الذى أصبح يفرق بينهما بدلا من أن يوحد بينهما ! ٠٠ اذ قال : « **كان لابد أن**



يأتى هذا اليوم يا اديث • لقد كنا سعيدين هنا ، ولكن هناك من ينتظرنى فى باريس • وسيكون هذا بداية حياة جديدة» ••
وكان يرجو منها تشجيعا ، فلما لم يتلق شيئا ، استطرد فى ارتباك : « **سنهيىء لحبنا جوا عائليا ، وسيكون لنا بيت • ثم اننى سأعمل على تعديل وضعنا ، والحصول لك على طلاق من زوجك • وهو ما لم تكونى ترغبين حتى الآن فى أن أشغل به• لقد فصمنا جميع العرى دون أن ننظر الى الوراء !** »

وأرادت اديث أن تروغ من هذا القرار •• فقد كانت تفزع من مغادرة ايطاليا ، ومن ثم تظاهرت بعدم الاهتمام بالمشروع اطلاقا ، وقالت : « ما أجمل الطقس فى هذه الساعة ! لقد كنت أحس أمس ببرودة ! » • فجاراها فى صبر قائلا : «برودة ؟•• ان الهواء عليل حتى ليخال المرء أن الوقت لم يزل بعد صيفا!»•• فعقبت قائلة : « ومع ذلك فقد حان الخريف • انظر ! » •• كانت شطآن البحيرة – المرتفعة ، الموشاة – تترامى تحت أقدامهما ، وقد ظهرت فى مواجهتهما تضاريس الجبال ذات الانحرافات المتناسقة ، بينما انتثر هنا وهناك هيكل ، أوقرية، أو برج يحدد معالم المناظر الطبيعية • أما الأشجار والغابات فقد تبدل لونها فى أيام معدودات ، فلم تحتفظ بالخضرة الناضرة

سوى أشجار الصنوبر التى كانت محوطة بغلالة ذهبيـة من الضياء ٠٠

ووقف العاشقان متكئين على سياج احدى الشرفات ، وقد أشاع جمال المناظر ـ التى كانا يوشكان أن يفتقداها ـ شجى كان يثير الألم فى نفس اديث ، كما جرى لها من قبل فى (السافوا) ٠ وأخذت تستنشق عبير الخريف ـ الذى كان موشكا على الفناء ـ وقد اتسعت طاقتا أنفها ، وتوترت أعصابها ، وسرت فى بدنها رعدة ٠ أما موريس فلم يستطع أن يحول عينيه عن ذلك الوجه الذى لم يكد يذكر أنه رآه قط هادئا ، بل كان دوما حافلا بالعواطف ، وكان يبدو وكأن ثمة نارا مستعرة تلتهم ما فى نفس صاحبته ، وتنعكس خلال العينين ! ٠٠ لقد تجمعت فى صفحة ذلك الوجه الصغير بعض خطوط دقيقة رقيقة ، تنم عن حركة الدم وهو ينساب فى العروق تحت بشرة صفراء ، وأريج ينبعث من شعر أسود ، و ٠٠ وجمال الدنيا بأسرها ! ٠٠ **واستطاع موريس أن يلمح ـ بنظرة واحدة ـ أثر العام الماضى على المرأة ٠٠ كان الشباب المستعاد ، والحرية ، واللهو ، والمدن الغاصة بالفنون ـ التى زاراها ـ قد ساعدت على ازدهار حسنها ! ٠٠ كان قلبها يضطرم ـ عندما رحلا ـ بشهوات مستعرة ، أما الآن فقد هدأت واكتملت فى وقت واحد ٠٠ قط لم يحدث له أن قدر سحر اغرائها كما قدره اذ ذاك ٠٠ بل انه كان يشعر بحزن مستعذب كلما فكر فى أنه قد يفقدها !**

واحست اديث بنظراته الملحاحة ، فابتسمت وأشارت الى الأفق بحركة واسعة من ذراعيها ، وكأنها تحتويه بينهما ، وقالت : « هذا أجمل مما أتيح لنا فى الأيام الأولى » ٠ فلم يتمالك أن يجهر بآخر فكرة عنت له : « وأنت أيضا ٠٠ انك أجمل مما كنت !» ٠ وعجبت لهذه التحية غير المرتقبة ، فأجابت : « أصحيح هذا ؟» ٠ فقال : « أجل ٠٠ انظرى الى الاشجار !٠٠

انها أخف مما عهدناها ، كأنها تخففت من حمل لا نفع له · ومن الممكن الآن التطلع خلال أفنانها الى مسافات شاسعة · وكذلك النظر الى عينيك يقود الى أغوار أعمق من ذى قبل »

– حتى أغوار قلبى ؟ ! **– حتى أغوار قلبك !**

وابتسمت وهى تستعرض كل ما يجهله أى شاب عن قلب أية امرأة · ولما كانت لاترتاب فى مدى سلطانها عليه ، فقد رأت أن الفرصة مواتية كى تثير من ناحيتها أمرا كانت تنأى عن الخوض فيه منذ زمن · كان غرضها أن تتخفف من جميع الأكاذيب ، وأن تشد عشيقها اليها برباط لاانفصام له ، وذلك بأن تحمله على أن يقبل أن يشاطرها ذنبا يستحيل عليها أن تكتمه بعد الآن · فان قبوله خليق بأن يكون أعظم دليل على الحب الذى يصيبها من موريس · ولو أنها كانت فى مكانه ، لما أحجمت عن أن تهبه ذلك الدليل · ولكن المرأة حرية بأن تكون على حذر من الرجال ، الى أبعد مدى ، لأن رأيهم فى الشرف عجيب !

ان حقها فى أخذ ونقل المبلغ الذى منحها اياه السيد فرازن، كان أمرا لا يحتمل أى شك فى نظرها · فأية منحة هذه التى يملك المانح استبقاءها لديه ؟ لقد ذهبت الى درجة التحلل من أى لوم قد يثيره ضميرها ازاء الطريقة التى استولت بها على المبلغ ·· ففيم تهمها الطريقة ؟ **ان النساء لا يفهمن جميع ما يتعارض مع مصالحهن فهما كاملا ! لقد قيل لها ان المال يخصها ، فوجدت فى هذا ما يكفيها ! ·· انها ما شعرت بأى حرج عندما سرقت زوجها ·· فقد كانت تكرهه ، بل انها لم تعتقد قط أنها سرقته ، فهى لم تأخذ سوى المبلغ الذى كان من حقها فقط ، مع أنه كان فى وسعها أن تستولى على أكثر منه · ثم انها قدمت – من جانبها – شبابها وجمالها ، ودفعت الثمن من حياتها ، مرطبا بالدموع · أفيستطيع أحد أن يرد لها تلك السنوات التسع التى قضتها فى نفور مكبوت ، واشمئزاز**

متراكم ؟ !

* * *

◆ ومع ذلك ، وفى اللحظة التى همت فيها بأن تجهر بكل شىء ، تولاها نوع من التردد. ومالبثت ان قالت فى أعـذب صوت : « اذن فالسعادة تخلع على المرء جمالا ؟ ... ان هذه أولى سنى السعادة فى حياتى ، منذ طفولتى ! .. آه ! ليتك تعرف ماضى حياتى ! » . فهتف بها : « لطالما سألتك ان تحدثينى عنه يا اديث .. ارويه لى ! .. ائتمنينى عليه ! .. انك لم تعـودى تقوين على صون الأسرار ! » ... وكان ما روته قصة معـدة ومنقحة ، ككل سيرة فى التاريخ : طفولة سـعيدة مدللة ، فى وسط راق مترف . ثم افلاس ابيها الذى ابتلى بالميسر ، وكان افلاسا لم يحتمله ، فقاده سريعا الى القنـــوط ، والافراط فى الشراب ، فالمرض ، فالموت ... ثم الانزواء فى الريف ، مع أم مضعضعة القوى ، حزينة . والثورة النفسية التى اجتاحت اديث على هذه الحياة الرتيبة .. وحمى الشهوة المتأججة ، تأكل قلب الفتاة الشابة التى ورثت عن أبيها تهوره واسرافه ، والتى هوت الى درجة الاضطرار الى تدريس العزف على « البيانو » لابنـاء القادرين من الجيرة ، وهى ترتقب بفارغ الصبر ذلك الحب الذى كانت تأمل فى أن يواتيها بالحرية !

وقاطعها الشاب متمتما : « تلك كانت حياة تعسة » . وظننت انه يرثى لها ، فابتسمت شـــاكرة . واذ كانت مستغرقة فى ذكرياتها ، فانها لم تفطن الى الانتباه الذى راح يبديه نحو كل صغيرة وكبيرة من كلامها .. وقالت : « تقريبا ! » . فسألها : « وهل كنت اذ ذاك جميلة ؟ » . فأجابت : « ما أظـن ذلك ، فقد كنت نحيفة كجزع الكرم ! » . ولكنها كانت تعرف فتنتها، اذ اردفت فى دلال : « .. الذى يستخدم فى ايقاد النار ! » ... وعادت تستأنف قصتها . فقد أخذ فرازن يلاحقها . وكان يثير

اشمئزازها بعينيه الغائرتين ، والعناد الذى استشعرته وراء ما كان يتظاهر به من دعة · وثارت عليه ، فقرر آن يكون اول من يتقدم ـ من كل الذين كانوا يتقربون اليها ـ لطلب يدها · وكان يمتلك ثروة طيبة ، ومركزا محترما فى باريس ، وفى وسعه ـ لو شاء ـ أن يتخذ مكتبا للتوثيق فى جرينوبل أو أية بلدة مجاورة ·· وكان زواجها منه « زواج مصلحة » فى أبشع صوره ·· فقد كانت تكره الفقر ، وكانت أمها ـ التى لم تألفه ـ تمقته هى الأخرى وتخشاه · فالمسنون من الناس لا يشغلون بغير الحياة ، أما الحب فلا يحرك فيهم ساكنا ! وهكذا كانت الظروف العائلية تسد على الفتاة كل المنافذ ··

واختتمت قصتها قائلة : « **وهكذا ·· بعت نفسى !** » · ولم يكن موريس قد قاطعها خلال ذلك ، بل راح ينصت ودقات قلبه تتسارع كشخص ينحدر الى هاوية · حتى اذا كفت عن الكلام ، لفظ فى جهد الكلمات التى كانت على طرف لسانه منذ لحظة : « وصداقك ؟ » ·· فأجابت : « مهلا ، فسوف تفهم كل شىء » ·· وكان ثمة نفر قليل من الناس قد خرجوا للتريض فى الطريق المشمسة ·· كما كان ثمة أطفال يلعبون فى الغابة ، بعيدا عنهما · وبذلك كانا وحيدين تقريبا · **ولكن وجود الناس فى تلك اللحظات الحرجة التى كان العاشقان يجتازانها ، والتى كانت المرأة قد أرجأت أوانها بلباقة حتى ذلك الوقت ·· كان وجود الناس ـ وان لم يضايقهما فى شىء ـ قد حرم المرأة سلطانها الأكبر فى الجدل ·· سلطان القبلات !** ولقد ادركت ـ اذ لم يكن فى وسعها سوى ان تدرك ـ سر قلق حبيبها واهتمامه · وكم فكرت فى ذلك من قبل · كان هذا الموضوع مبعث عذاب لهما منذ وقت طويل ، ولطالما حاولت استبعاده بجهود كثيرة ، وبأكاذيب ، وباعراض عن الحديث فى الماضى ، فان المحب لا يحسب للنتائج حسابا ·· وكان كل ما يهمها هو آن تقصى ذلك الموضوع عن نطاق هنائها ·· بل كانت فى قرارة نفسها ترى أن

التخلص من هذا الموضوع ضمان لدوام ارتباطهما !

وبينما كانت تشحذ ذكاءها بهمة ، وكأنه سلاح تحاول ان تفرض به تبريرا كانت تبغى ـ مخلصة ، صادقة ـ ان يحسم الأمر ، عاد موريس يقول بصوت محتبس : « صـــداقك ؟ ٠٠ ألم يكن لك صداق ؟ » ٠ وفى نفس اللهجة الآمرة التى أخذها عن أبيه ، قال : « تكلمي ٠٠ يجب ان تتكلمى ! ٠٠ هيا ! » ٠٠ ورمقته مذهولة ، مرتبكة ، وقد داخلها نوع من الذعر ٠ **ان هذا الشاب الكبير ، الذى بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة ، والذى كان جد لطيف ـ بل جد محبوب ـ والذى خالت انه في قبضتها ٠٠ لكم تحول فجأة الى سيد آمر ٠ اذن ، فهى لم تكتشف بعد كل أركان القلب الذى استحوذت عليه !٠٠** ودفعتها الغريزةالى الافضاء بأقل ما كان لديها من الحقيقة ، حماية لحبهما ، فقالت : « صداقى يا موريس ؟ ٠٠ انه ملكى فعلا ! » ٠ ولكنه تساءلفى اصرار : « ومن أين جاءك ؟ ٠٠ انه لم يكن من أهلك اذن ؟ ٠٠ آه ، لقد فهمت ! ٠٠ ألم يكن « هو » الذى نص عليه فى عقد زواجك ؟ ٠٠ أجيبى ! »

وحاولت ان تسترضيه بمجاراته ، فقالت : « أجل ، هو الذى منحنى اياه ٠ وماذا فى ذلك ؟ ٠٠ انه ملكى ! » ٠ وتمالك نفسه ـ مراعاة لوجود المارة ـ وقد استبد به ذعر يفوق ذاك الذى تولاها ٠ على أنه شاء ان يختتم استجوابها قائلا : « لا ، ايتهـا التعسة ٠٠ انه ليس ملكك ، فأنا خبير بهذه العقود ٠ لقد كان منحة تتقاضينها اذا عشت بعد موت زوجك ٠ هكذا هو ، وانى لموقن من ذلك ، فاستجمعى أفكارك ، واحذرى ! » ٠٠ فجمد كل كيانها ازاء هذا الانذار الذى انساب من بين شفتيه الحبيبتين٠٠ الشفتين الرقيقتين ، الحمراوين ! ٠٠ **ان الأمر لم يعد ـ بالنسبة لها ـ سعيا الى تحويل عشيقها الى شريك فى الذنب ، ليكـون ذلك أعظم ضمان للحب ، وانما أصبح الأمر يقتصر على انقاذ**

هذا الحب ! ولم تكن تملك سوى نبرات صوتها التى كانت تدرك مدى تأثيرها عليه ٠٠ ثم ، ألم يكن ما اعتزمت ان تؤكده هو الحقيقة بعينها ؟

وهتفت : « لا تعاملنى هكذا يا موريس ، فأنت مخطىء ٠ ان صداقى ملك لى ، اذ آل الى مباشرة ، بفعل اصرار أحد أصدقاء أبى ٠ فهل تريد دليلا ؟ ٠٠ لقد كنت أعطى أمى - اثناء وجودها على قيد الحياة - ريعه ، وكان لى الحق فى سحبه ٠ أفرأيت خطأك ؟ ٠٠ لا تعاملنى بهذا الشكل ! » ٠ واخذ الموظف السابق بمكتب فرازن يستعيد - فى غمرة الارتباك - كل معلوماته فى القانون ، باحثا عن سند ، ثم قال : «انها منحة ، على أية حال٠٠ منحة منه ٠ والمنحة عرضة للالغاء فى حالة الطلاق » ٠ ولكنها راحت تؤكد له فى حرارة : « لم يكن صداقى من هذا النوع ٠٠ أقسم لك ! » ٠ فقال : « حاولى ان تفكرى بدقة يا اديث ، فالأمر خطير الى درجة تجعل حياتى مهددة » ٠ فهتفت : « حياتك ؟ » ٠٠ وكان جوابه : « نعم ٠٠ أو شرفى ٠ وهما سيان ! أكنت تستغلين بنفسك هذا الصداق ، وتستولين على ريعه ؟ » ٠ فأجابت : « هكذا كنت »

ومن حديثه اهتدت الى الطريقة التى يخلق بها ان تتبعها فى الاجابة ، فأقبلت على الكذب فى شراهة ٠ **لقد كان من المتفق عليه فعلا ، ان المائة الف فرنك - التى منحها اياها السيد فرازن - ملك لها ، ولكن استثمارها كان باشراف الزوج ٠٠ ولم تكن لتبقى بعد دعوى الطلاق ! وفى كل الأحوال ، لم تكن لمدام فرازن الحرية فى التصرف فيها ، ولا فى استثمارها ، ولا فى أن تسحبها وحدها ٠ ولكن ، ما الذى يهم من كل هذه الحجج ؟٠٠** على أن موريس ظل سادرا فى اسئلته ، وكأنه من قضاة التحقيق ٠٠ فقال : «أين كان ذلك الصداق مودعا ؟»٠ فأجابت: « فى مصرف «يونيفرسال» ، فى شكل سندات عملت على تحويلها كما سبق ان رويت لك ٠ فدعنى ! » ٠٠ ولكنه مضى فى تساؤله:

« أكانت مودعة باسمك ؟ » ٠ وأجابت فى اصرار : « باسمى » ٠٠ فسألها : « أمن هذا المصرف سحبت المبلغ قبل سفرنا ؟ » ٠٠ وكان جوابها : « من هناك » ٠٠ وعاد يتساءل : « أكان بوسعك ان تسحبى من فرع شامبيرى هذا المبلغ بتوقيعك وحدك ؟ » ٠٠ واكدت له ذلك ، فقال : « آذن فقد تزوجت على أساس انفصال ممتلكات الزوجين ؟ » ٠ وكان جوابها فى هذه المرة أيضا : « هو ذلك ! »

* * *

◆ **وكان** قد سألها مرارا فى هذا الصدد ـ منذ باحت له بحبها، ثم منذفرارهما ـ مستفسرا عنمصدر ثروتها الشخصية، فكانت تلقى فى روعه انها ميرآث عائلى ٠ فلما ابتكرت خرافة المصرف ـ وقد توهمت انها لا توقظ شكوك الشاب ـ حرصت جاهدة على التشبث بها ٠٠ وكانت اجاباتها الدقيقة ، السريعة ، تطابق ايضاحاتها السابقة ، وجديرة بأن تلقى فى مجموعها تصديقا ٠ فلم يكن من البعيد عن الصدق ان مستشار الأسرة ـ « دانيمارى » ـ قد تدخل قبل توقيع العقد ، مستغلا حب السيد فرازن ، للحصول على هبة مباشرة ، مطلقة ، نهائية ، بغية ضمان مستقبل الفتاة ، وليكفل لها ـ فى ذلك الحين ـ مزيدا من الاستقلال والكرامة

فلماذا ارتاب موريس فى مثل هذه الحقائق ؟ ٠٠ ألم تقض هذه الحقائق على هنائه بما فيه الكفاية ؟ ٠٠ لقد كان شططا منه ان استسلم لمثلهذه الغواية التى أفاق الآن منها ثائرا،وانقبل ـ فى رضى مشين ! ـ ان يؤخر السعى للحصول على عمل ، حتى انقضاء هذا العام من عمر حبه ٠ **على انه لم يكن يعتقد لحظة واحدة ان ثروة اديث ـ التى كان يتوق الى عمل كى يتم نقصها ـ نبتت من ذلك الاصل المسمم ! ٠٠ ولكن ، ها هو ذا الأصل يتكشف له ، ليحطم عزة نفسه ، وليهدم فيه كل احترام**

لنفسه ! ٠٠ وحتى اذا كانت هذه الثروة حقا خالصا لزميلته ، الا انها جاءت فى الواقع من رجل هدم هو حياته العائلية ٠ ومن ثم فان أتفه قدر تسرب منها الى حياته ، انما يعتبر خزيا لايقوى على تحمله ، مهما يكن الثمن !

وراح ـ فى حيرته ـ يحسب الرقم الذى بلغه دينه ، ثم سألها : « ان نقودك مودعة فى المصرف الدولى بميلان ٠ فهل تعرفين كم نقصت ؟ » ٠٠ فأجابت اديث : « انما انت الذى تتولاها » ٠ فقال : « لقد بلغ النقص ثمانية الاف فرنك تقريبا » ٠٠ واذ ذاك قالت فى ليونة ، متظاهرة بالاحتجاج : « اذن فنحن لم نبذر كثيرا » ٠ والواقع ان هذا المبلغ ، الى جانب ما كان يحمل هو ، كان قليلا بالنسبة الى نفقات عام كامل انقضى فى رحلات وأسفار ٠ ولكن الحياة كانت رخيصة فى (اورتا) ـ حيث قضيا ستة أشهر ـ كما ان الملاهى كانت قليلة ، وزهيدة النفقات ٠ ولقد ارتدت اديث ـ بعد فترة قصيرة من التبذير ـ فباتت تؤثر البساطة والاعتدال ، وتقنع بالقليل من النفقات ٠٠ مكتفية بالحب !

ترى كيف ، ومن أين ، يحصل على هذه الآلاف الثمانية من الفرنكات ؟ ٠٠ لسوف يرى نفسه مجردا من الكرامة والشرف مالم يردها ، ولسوف تصبح الحياة عبئا يثقله ٠ وأخذ موريس يوسع صاحبته قسوة ، نتيجة ما داخله من شعور عميق بالضعة : « هذا حسن ٠٠ اننى مدين لك ، وسأوفى الدين ، ثم ننظر فى الأمر بعد ذلك ! » ٠ فتنهدت وقد خارت قواها ، وخبت عزيمتها ، وغلبت على أمرها ، وقالت : « اى حديث هذا الذى يدور بين حبيبين ٠٠ وفى عيدنا الأول ؟ » ٠ وأخفت وجهها فى راحتيها ، فسار اليها ـ وهو أشد منها تعاسة ـ وحاول أن يقصى راحتيها عن وجهها قائلا : «اسمعى يا اديث ٠٠ اننى لا اتهمك انت بالذات ٠ فنحن نعيش معا كما لو كنا زوجين ، ومن ثم فلست أفكر الا فى غرامنا ٠ لقد أخطأت ٠٠

اننى ما زلت شابا صغير السن ! » • فأسلمتـه يديها دون أن تخشى ان يرى عينيها المغرورقتين بالدموع ، وقالت : « أولست أتقبل كل شيء منك بالشكر والعرفان ؟ » • فقال : « ولقد كنت أود أن تكون هذه حالى •• **ولكن ، ان يكون ماتقبلته « منك » انت ، وليس منه « هو » ! •• لقد ثار لنفسه ، واذا كنت قد قوضت بيته ، فانه قد طعن هنائى** » •• فتساءلت : «أو تراني أفكر فيه ؟ » •• ولكنه استطرد فى أسى واصرار أليم : « لقـد كنا نعيش فى غير هم ولا شاغل • ولكن هذا العهد قد انتهى ! »

وكان فى لهجته من القنوط ما حملها على أن تلقى بنفسها بين ذراعيه هاتفة : « اصمت ! » •• وارادت ان تجره الى خارج الشرفة التى تركا فيها ثقتهما تتسرب وتتبدد ، فقالت : « تعال الى الغابة يا موريس •• تعال اجلس فى الظل ، خلف معبدنا ، فهناك نكون فى خلوة ، ويخف شقاؤنا ! » • فقرر فى التو ان يستجيب لها ، وقال : « أجل •• لننصرف من هنا ! » • وكانت الأشعة تتخلل أشجار الصنوبر ، راسمة هالات مضيئة حول اوراق الشجر الذابلة المتساقطة على الأرض ، فبدت هـذه الهالات على الطريق الظليلة ، وكأنها بقع رخوة يجب تخطيها • ودارا حول المعبد ، ثم اختارت اديث ركنا ظليلا منعزلا ، حملت حبيبها على الجلوس فيه ، ثم احتوت وجهه بين راحتيها واغرقته بالقبلات • وبدا الشاب مستسلما لغزلها فى البداية ، ولكنه ما لبث ان دفعها عنه فجأة ، وصاح : « **لا ، دعينى ! •• انصرفى •• ان ارادتى تتلاشى عندما تلاصق شفتاك شفتى • اننى لم أعد شيئا مذكورا •• لم أعد اكثر من قلب ينبض بين جوانح ميتة !** »

ــ اننى أحبك ــ وانا أحبك كذلك !

واستوى على قدميه ، كمن ذهب عقله ، وأومأ الى البحيرة التى كانت تتألق خلال الأفنان ، فارتعدت أوصال اديث ــ اذ أدركت ما كان يرمى اليه ــ وهتفت : « ولكننى أحبك أكثر من ذى قبل •

ما عليك الا ان تأمر فأطيعك واصغى اليك »

ـ أتجيئين معى ؟ ـ والى أين تقودنى ؟

فقال مومئا نحو البحيرة : « هناك ! » ٠ فانكمشت بحركة غريزية وهتفت : « اسكت ! » ٠٠ وكما أقنعته بالرحيل ، على هضبة (كالفيردى ليمنك) ، أخذ هو ـ فى هذه المرة ـ يحاول اقناعها : « **تعالى ، فان العام الأول فى هوانا قد مات ! تعالى ، فان حبنا قد مات ، ولن يفتقدنا أحد ٠ ان الماء ليس قارسا ، ولننزلق اليه من أحد القوارب ! لقد غدوت مجردا من الشرف ، فهل تجيئين معى ؟** » ٠ وأمسكت اديث بذراعه بقوة ، وصرخت مذعورة : « لا ، لا ٠٠ اننى أحبك ، واذا أحب الانسان فانه لا يرغب فى الموت ٠ ان الانسان اذا أحب لا يتورع عن الكذب ، والسرقة ، والقتل ، ولكنه لا يرغب فى الموت ! والعشاق الذين ينتحرون ، لا يحبون غرامهم ! » ٠٠ وتخلص موريس من قبضتها ، دون ان يشفق من ان يجرح شعورها ، وصاح :



«دعينى ٠٠ لاتلمسينى !» ٠٠ وانطلق هاربا ٠ وبنفس سرعته، هرعت المرأة فى أثره ٠٠ وكف الأولاد عن لعبهم فى الغابة ، لينصرفوا الى متابعة السباق !

على أن موريس كان قد ابتعد عنها ، فلم يعد فى وسعها

اللحاق به . ويمم لفوره الى فنـاء « بوتشيونى » ، وهو مكان كان قد اكتشفه فى نزهاته مع اديث ، يقوم فيـه برج مربع عال ، هو الطلل الباقى من قصر قديم ، وقد حفت به جدران مهدمة ، تخللتها الاعشاب والنباتات المتسلقة .. وكان موقعه فى الطرف الأقصى لبحيرة (اورتا) ، على تل اكتسى بأشجار الكستناء ، وأطل على مساحة شاسعة تنتهى فى الجنوب عنـد (نوفار) ، وهى مدينة بديعة تقوم فى نهاية سهل ، يليه جبل (مون روز) الذى تشرف قمته النائية على سهول اخرى تحف بها جبال بدت ثلوجها متألقة تحت الشمس . وكان المكان قفرا ، لا مثيل له فى البطاح المجاورة ، من حيث انبسـاط الطبيعة وتجليها أمامه . وكان موريس يكثر من التردد عليه ، عندما كانت صاحبته تتركه لنفسه بضع ساعات ، وقد برح بهـا التعب .. وهناك ، كان يحلو له ان يسرح البصر صوب بلده ، وهو يستشعر وطأة الغربة !

ومكث موريس فى تلك البقعة طويلا ، وهو ينكأ جراح نفسه ويحيى مواتها .. ترى لماذا لم يداخله فى تلك الساعة سوى الشعور بالشقاء ، رغم ما كان ينبغى ان يغمر شبابه من عواطف جياشة ؟ .. لابد اذن ان هناك شيئا آخر غير الحب .. شيئا بلغ من سلطانه انه كان من القوة بحيث نزل بالحب الى المرتبـة الثانية ـ وان لم يستطع القضاء عليه ـ فأفسد بذلك ما كان فى الحب من ألوان السعادة ! .. **ان الحب لم يكن يشغل الحياة بأسرها قط ، بل انه لم يقو يوما عـلى أن يعيش فى معزل ، منفصلا عن بقية الحياة .. وهو اذا ترك وشأنه لم يعد سـوى قوة جامحة هدامة !** وهكذا وقر فى نفس موريس أن حبه قد أوقع ـ ولا بد ـ كارثة حلت بمن كانوا فى الجانب الآخر ، خلف تلك الجبال التى كانت تحجب الأفق .. فهل فى وسعه ان يلقى التبعة على الظروف وحدها ؟ .. لا ! انه لو استعاد الماضى فى صراحة ، لوجد ان هذا الماضى يدينه . لقد تكشفت له نفسه ،

فرأى أنه مسئول عما بدر منه من رعونة وضعف : **مسئول عن قبول الرحيل مع تلك المرأة ، فى حين انه كان خليقا بأن يدرك ان موارده لن تلبث أن تنضب قبل مضى وقت طويل ٠٠ مسئول عن التبريرات التى ادلت بها اديث اليه دون ان يطالبها بدليل واحد عليها ، مع أنه كان من السهل عليه ان يلمس ضعفها ٠٠ مسئول عن انصياعه لغوايتها ، وموافقته على الاستمتاع معها بالحاضر ، دون ان يربط بين هذا الحاضر وبين اى ماض أو مستقبل ٠٠ ومسئول كذلك عن استسلامه لضراعاتها عندما ألحت عليه فى أن يمنحها من حياته عاما يقضيه فى نسيان ٠٠ عاما يقضيه فى هناء ٠٠ عاما يقضيه فى كسل وخسة !**

وتجلى له انه اذا أراد الابقاء على شرفه ، فلن يتسنى له الانقاذ الا على أيدى أسرته ٠٠ فقد رأى انه بغيرها ضائع ، لأنه لن يستطيع — وقد لا يستطيع لأمد طويل — ان يسدد تلك النقود التى لم يكن راغبا فى انفاقها ٠ ولم يداخله شك فى أن الأسرة ستخف الى نجدته لو انه استغاث بها ، اذ كيف تنكص عن ذلك ؟ أو ليست متضامنة معه فى عاره ؟ لو انها كانت متضامنة فى عاره ، فهو آذن مطالب ازاءها بالتزامات هرب منها ٠ لقد كان الابن المفضل فى أسرته منذ مولده ، وقد ارتبط نحوها بالتزامات أهملها ، فحكمها اذن حكم العقد المفسوخ !

هذه الأسرة التى ندين لها بالعون فى أوقات المحن ، وفى الخطر ٠٠ بأى حق نسيها فى انطلاقه وراء سعادة أنانية تكاتفت تبعاتها كلها ضده ؟ لقد فرقت كبرياؤه بينه وبين أبيه ، ولكن امه خليقة بأن تكون موضع ثقته ، فليطلب منها المبلغ اللازم لتحريره ٠٠ فان هذا المبلغ هو كل ما ينبغى ان يناله فى الحال ، حتى يسترد كرامته وشرفه فى نظر نفسه ، قبل كل شىء !

وما ان عقد النية على ذلك ، حتى عاد الى الفندق فكتب الى مدام روكفيار ٠ ولم يكد يتم الخطاب ويسلمه الى البريد ، حتى عادت اديث ٠ ولمحها فى نهاية الردهة ، فبهت اذ رآها بهذه

السرعة ولم تمض الا ساعات قليلة على ابتعاده عنها ٠ لقد ظلت – منذ عام – تشغل كل أيامه ، وكل خفقة من قلبه ، فهل تراها قد وجدت نفسها مجردة من هذا السلطان ، بهذه السرعة ؟

أما هى، فقد وقفت حين وقع بصرها عليه ، وقد انعقد لسانها، ثم هرعت اليه فألقت بنفسها بين ذراعيه هاتفة : « أهـــذا أنت ؟ اهذا أنت ؟ » ٠٠ فأجاب فى حنان ضاف : « يا حبيبتى ٠٠ ياعزيزتى ! » ٠٠ وقالت : « اذن فأنت هنا ٠٠ ما أسعدنى ! » ٠ واومأت الى البحيرة فى ذعـر ، لتوضح له عما جال بخاطـرها ، وقالت : « لقد جئت من هنـاك ٠٠ سرت على طول الســاحل الرملى ٠ لنجلس ٠٠ ألا تريد ؟ لم تعد ساقاى تقويان على حملى ٠٠ لكم استبد بى الخوف »

ولم تكف عن التحديق فيه ، فوجد فى منظرها الفتنة القديمة ٠ وكان الخـــريف يلفهما باغـراء ناعم ، فوقف الحب منتصرا على الأطلال !٠٠ وأقبلا على ارتشاف هناء كانا يعلمان انه مسوق الى الفناء !

* * *

◆ **ولم** يعودا – منذ ذلك الحين – يتحدثان عن الماضى ٠ وكان موريس من ناحيتـه ينتظر ردا على خطـابه ٠ أما اديث ، فلم تجسر على ســؤاله ، وانما راحت تضاعف من فتنتها كى تروق له ٠ بيد ان هذه الفتنة ذاتها كانت قد تغيرت ، فلم يعـد فيها اثارة ولا احتدام دائب ، اذ ان خوفها من فقدان حبيبها جعلها وادعة خانعة ، تذوب ضعفا وحنانا ٠ وكانت تسعى لاجتذابه الى الحديث ، وتجهد فى البحث عن الموضوعات التى تلذ له قراءتها ، وتعزف له المقطوعات الموسيقية التى يؤثرها ٠ فى حين انه لم يعد يعاملها الا فى ترفق ٠ وكان كل منهما ينعم بهـذا الوئام الناعم المتجدد ، ولكن ٠٠ فى شىء من الضيق ، اذ ان وجودهما

معا بات مجردا من البهجة ، ومن الثقة ، ومن الاطمئنان !

وكان ثانى أيام شهر نوفمبر قاسيا عليهما اكثر من سواه • فقد أراد موريس ان يخرج للنزهة وحيدا ، كى يستعيد ذكريات اسرته فى ذلك اليوم الذى كان يحتفل فيه باحياء ذكرى الأموات • ولكن اديث توسلت اليه ان يصطحبها ، فقبل فى غير ابتهاج ، وذهب ينتظرها عند (مون ساكريه) ريثما تستكمل تأهبها وتلحق به • وسألته حين وافته : « الى أين نذهب ؟ » ، فأجاب : « إلى المقابر ، كما يفعل كل الناس اليوم » • وكان عليهما ان يجتازا — فى طريقهما الى المقابر — حقلا غير مزروع ، كان فيما مضى جزءا من مقبرة (اورتا) ثم ازيلت منه الأضرحة ، وفصل عنها • وكانت المقبرة تضم قبورا غير ظاهرة ، ولا يعرف اصحابها ، اذ لم يكن ثمة ما يبرزها للنظر : فلا اسماء ، ولا صلبان ، ولا ارتفاع فوق مستوى الأرض • ولما كان ذلك اليوم هو عيد جميع القديسين ، فقد نثرت ايد مجهولة باقات البنفسج هنا وهناك ، فحولت القفر الى حديقة !

ووقفت اديث وموريس فى ذلك المكان المنعزل الذى أحاطت به أشجار الكستناء ، وقد بدت أوراقها معلقة فى الهوآء ، تكفى لفحة من نسيم لاقصائها عن الاغصان • و هبت مع دنو الليل نسمة عليلة ، فتساقطت بعض الاوراق ، وراحت تدور حول نفسها فى الهواء ، ثم استقرت احداها على قبعة المرأة الشابة ••

وأثار مشاعر موريس — فى ذلك اليوم المفعم بالانفعالات الجياشة — ان رأى هذا الرمز الحزين ، فوق ذلك الوجه الساخن البشرة ، ذى العينين اللتين تشعان لهيبا •• وفوق ذلك القوام الذى كان — رغم وقوفه بلا حراك — ينضح بحرارة الحياة !

وإذ طال صمته ، أومأت اديث الى الزهور وقالت : « ما أجمل الزهر ! » •• واخذ فكراهما يحومان حول الموت الذى غطاه الزهر • وافاق العاشقان الى نفسيهما على مهل ، فتأملا الاشجار

التى كانت تقوم فى صف حجبهما عن الأنظار ، ثم دنا كل منهما من الآخر ٠٠ وتعانقا ٠٠ فوق القبور !

٣ - الأطـلال



◆ استدعى موريس - فى اليوم الثانى بعد تلك النزهة - الى مكتب الفندق ٠ وقيل له : « ان ساعى البريد يطلبك ، بشأن خطاب مسـجل » ٠٠ وعرف موريس المظروفات الصفراء التى يستعملها أبوه ، فأسرع الى فض الأختام ، بينما كانت مديرة الفندق تتأمله فى عجب ، بعد اذ قرأت بيانات التسجيل ٠ وكان الخطاب المجلل بالسواد يحتوى على ورقة ماليـة من ذات المائة فرنك ، واذن مصرفى قيمته ثمانية آلاف فرنك ، على المصرف الدولى بميلان ، بتوقيع اخته « مرجريت » ٠ وهتف الشاب لنفسه : « الآن أصبح سيد نفسى ! » ٠٠ كان الاعتزاز بالنفس هو أول ما خامره بعد الهوان ٠ وحـين اطمأن ، فطن الى حافة الخطاب المجللة بالسواد ، فانقبض قلبه ٠ لقد وقع حادث سيئ هناك أثناء غيابه ٠ والمرء فى ميعة الشباب - وبعد ذلك احيانا - لا يتصور قط احتمال فقدان اولئك الذين يحبهم ، بل انه ينأى

عنهم وهو واثق من انه سيجدهم عنـــد عودته • ثم يتبدد هذا اليقين فى المستقبل ، عند وقوع أول مصاب • ولما كان موريس قد فارق أهله ، وحرم انباءهم ، وانصرف الى نزوات الحيـــاة ، واستغرقته أنانية الهوى ، فقد كان حريا بأن يجهل ذلك القلق الذى ينهش الصدر فى نهم وحشى عنـدما تعاوده الذكريات • وكثيرا ما كان يتذكر أسرته ـ بل كثيرا جـدا ـ فيتمثل الفراغ الذى خلفه فيها •• ولم يكن وجـــود اديث كافيا لطرد أطياف الذكرى دائما ، ومع ذلك فانه لم يتصور قط حدوث وفيات فى الأسرة • **على انه منذ بضعة أيام ـ أى منـــذ بدأ فصل الخريف يخلع تقلباته على هناء العاشـقين ـ كان موريس يتمثل وجه أمه الشاحب ، اكثر من ذى قبل ، ويحس على وجهه اللمسة الأخيرة التى ربتت بها يدها الباردة وجهه ، فعاد يستشعرها رغم مرور عام !**

ولم يكن متأهبا لتلقى الصدمة •• ما السبب فى ان مرجريت هى التى كتبت له ؟ ثم ، على من تفرض كل هـــذا الحداد ؟ ولم يجرؤ على الاجابة عن هذا السؤال •• فقد كان الجواب يفرض نفسه فرضا • وتناول موريس قبعته وغادر الفندق والخطاب فى يده •• كيف يقرأه فى مكتب الفندق ؟ لا ولم تكن الشرفة بالمكان الملائم ، ولا الطريق المحفوفة بالأشـجار ، ولا الغابة •• **فقد تلحق به اديث بعد هنيهة ، فتفاجئه ، فى حين ان الحزن الأليم الذى حمله الخطـــاب كان حزنه الخاص ، وما كان راغبا فى ان يقتسمه مع أى شخص •• فان اقتسامه يخفف من حدته ، فى حين انه كان يريد ان يحس بوخزاته !**

وحين أصبح خارج الفندق ، قرأ السطور الأولى ، ثم انطلق فى الطريق كوحش جريح مطارد • وأخذ يواصل انطلاقه كلما لمح أثرا للمنازل ، اذ كان ينشد خلوة يبكى فيهـا دون أن يراه أحد • ومن ثم يمم شطر برج « بوتشيونى » • ولم يتوقف الا عنـد قمة التل ، فى أســفل البرج • وكان لاهث الأنفاس ،

فتهالك على العشب النامى بين الجدران المنهارة ، اذ ظل يعـدو وكأنما كان فى وسعه ــ أو فى وسع أى امرىء ! ــ ان يفر من القدر المحتوم ! وما ان استرد أنفاسه ، حتى استبد به الخوف ، وراح يعتصره • وكان الخطاب المؤلف من بضع ورقات قد تجعد فى قبضته •• ولم يجرؤ على قراءته كله ، فقد كان يعوزه جهد عظيم حتى يستطيع ان يواصل القـراءة ، ومن ثم أخذ يقرأ على دفعات •• كانت الرسالة تحمل اليـه من الفواجع فوق ما كان بوسعه أن يحدس • وقد جاء فيها :

« شامبيرى ، فى ٢ نوفمبر

« عزيزى موريس : عهـــد بخطـابك الى ، فكنت أنـا التى فضضته • وكنت أنتظره منذ أمد طويل ، اذكنت موقنة من أنه سيجىء ، أو تجىء أنت •• لقـــد انبأتنى أمنا بذلك ، لأنه ما كان بوسعك ان تنســـانا الى الأبد ! ولقـد ادركت وانا أقرأ خطابك انك لا تعرف عنا شيئا منـذ رحيلك ، فوجدت فى ذلك تعليلا لصمتك المستمر • ولعلك فهمت الآن انه لم تعد لنا أم • **وأنا اذ أنبئك بهذا ، أستجمع كل الأسى الذى لا أريد ان أفقده ، لأنه يقربنى منها • فابك معى يا أخى المسكين •• ابك بدمع ســخين وعوض ما فاتك من بكاء • ولـكن ، لا تدع القنـوط يجرفك ، فانها لا تريد ذلك ••**

« لقد غادرتنا فى الرابع من ابريل الماضى ، أى منذ ســبعة شهور • فقد إخذت قواها تتضاءل طيلة الشتاء فى بطء ورفق • ولم تكن تتألم ، او انها لم تكن تشـكو ، على الأقل ! ولم تكف عن الصلاة • وفى ذات مساء ، فاضت روحها وهى تصلى ، دون ان يبــدو عليها ما ينذر باحتمال موتهـا • وكنت وأبى معها ، فتطلعت الينا ، وحاولت ان تبتسم ، وتمتمت باسم أدركنا معا انه اسمك •• ثم مال رأسـها الى الوراء ، وانتهى كل شىء !•• وكانت قد حدثتنى عنك قبل ذلك ببضعة أيام ، وكأنما كانت تعلن رغباتها الأخيرة ، على ما فهمت فيما بعـد • وكانت تتكلم

ببساطتها المعهودة ، فقالت لى : « لسوف يعود موريس ٠ انه تعس أكثر مما هو مذنب ٠ انه لا يزال يجهل الأمر ، ولكنه لن يلبث ان يعرفه ، وسيحتاج الى كل شجاعته ٠ فعدينى ان تحسنى استقباله اذا ما عاد ، وان تصلحى بينه وبين ابيه ، واسرته ، وان تدافعى عنه ٠٠ وأخيرا ، ان لا تتخلى عنه مطلقا ، مهما يحدث ! » ٠ وما كنت بحاجة الى أن أعد ، ومع ذلك فقد وعدتها ٠ ولما وصل خطابك ، لم أتردد فى فضه ، وانى لأنوب عن أمى ٠٠ ومع اننى لا أضارعها ، الا اننى أحاول بكل قلبى

« واعلم ان أمنا لم تكن تراك مذنبا ، وكذلك أنا ٠٠ وكذلك ابونا ، وانى لواثقة من ذلك ٠ **ولكنه قال لنا ان الضعف نوع من الذنب ، وان ذاك الذى كفلته أسرته فى سنى عمره الأولى ، حتى بلغ مبلغ الرجال ، ليس حرا فى ان يجر عشيرته كلها الى الهوان بأعماله** ٠ على انه لا يتحدث الآن عنك قط ٠ ولكنى أوقن انه كثيرا ما يفكر فيك ، ويعانى من هذا التفكير ٠ فتذكره بدورك يا موريس — كما تتذكر أمنا فى مرقدها الاخير — اذ أنه قد تغير ٠٠ وتغير كثيرا ٠ لقد أدركه الهرم فى أيام قلائل ، وهو الذى كان يحتفظ بشبابه فى مشيته ، وأساريره ، وصوته ٠ وهو يعمل دون هوادة ، اذ يجد فى العمل سلوى ونسيانا للمحن ٠٠ وقد وعدت بأن لا ألومه على ذلك ٠ وفى الوقت ذاته ، جدير بك ان تعرف ما حل بناجميعا ، ما دمت لم تتلق انباءنا منذ عام ٠٠ فلا يزال ابونا يتمتع بمكانته ، حتى ان احدا من عملائه لم يسحب منه ثقته ٠٠

« أما هوبير — الذى كان من حقه ان يمكث عامين فى فرنسا — فقد حصل على اذن بالعودة الى المستعمرات ، ورحل فى شهر مايو الماضى قاصدا السودان ، حيث يحتل بحاميته مركزا أماميا فى داخل البلاد ، عند (سيكاسو) ٠ وهو موقع معرض للاخطار ، ولكن هوبير هو الذى طلب ان يعين فيه ٠ أما فيليسى فلا تزال فى مستشفى هانوى ، وهى شديدة القلق من أجلك ٠ وقد روت لنا

أخيرا مصرع اثنتين من المبشرات البلجيكيات ، ذبحتا على حدود الصين ٠٠ **وبدلا من ان تجـزع ، فانها مغتبطة لاستشهادهما ، وآسفة لأنها لا تملك ان تجود بحياتها من أجل ذاك الذى تدعوه « الابن الضـال » ، وما اظنك الا تعرفه !٠٠** لقـد ورثت عن أمنا تقواها العارمة ٠ فليحفظها الله لنا فى مقرها بالطرف الآخر من الدنيا !

« أما اسرة مارسيلاز فقد بارحتنا ، رغم توسلات جيرمين ٠٠ اذ ان شارل باع مكتبه ليتخذ مكتبا آخـر فى (ليون) ٠ وكان رحيلهم هذا قاسيا علينا ، وان رأى ابونا انه أمر معقول ، لأنه اتاح لزوج اختنا ان يصبح على مقـربة من اسرته التى تقيم فى (فيلفرانش) ــ كما تعرف ــ وفى ذلك نفـع له ! وقد قضوا الصيف معنا فى ضيعة البرج ٠ وتوردت وجنات بيير وأدريين ، وان ظـل الصغير جوليان ــ وهو احبهم الى ــ شـاحب اللون قليلا ٠ على ان هواء (سافوا) اكثر ملاءمة له من هواء (ليون) الملبد بالضباب ٠ ولذلك تركته جيرمين ليقضى الشتاء معنا ٠ وهو يشيع الحياة فى بيتنا الذى خيم عليه الحزن ٠٠

« وبهذا أختم عرضى للأنباء ٠ لقد كانت أمنا ــ فى الماضى ــ هى مجمع أخبار الغائبين ، ومصدر أنباء الآخرين لهم ٠ وهأنتذا ترى اننى أحاول أن أحل محلها ٠ أما ما بقى ، فسأذكره دون ما عتاب ، اذ يبدو لى إن هذا خير أسـلوب ٠ وسأفضفض لك فى البداية ، ولن تلبث أن تدرك ان شقاءنا هو شـقاؤك ٠ ولابد انك لا تعرف ما جرى عقب رحيلك مباشرة ، والا ما لزمت هـذا الصمت الذى أضنانا ٠ لقد رفع السـيد فرازن دعوى ضدك ــ أجل ، ضدك أنت ــ متهما اياك بسـوء استغلال ثقته ٠ هكذا توصف الدعوى التى كانت موضوع لغط القـوم ٠ وهو يتهمك بأنك اخـذت من خزانته مائة ألف فرنك ٠ وقد ادعى بالحـق المدنى ليجبر العـدالة على تعقبك ٠ وبما انك غير موجود هنا ، فقد صدر الحـكم عليك غيابيا ٠ وسـأشرح لك الأمر بنفس

الكلمات التي استعملت : لقد رفض المستشارون ادانتك ، ولكن موظفي المكتب ـ لا سيما السيد فيليبو ـ شهدوا ضدك في الجلسة ، وصرحوا بأنك كنت تعلم ان الخزانة كانت تضم المبلغ ٠ ثم انك كنت آخر من غادر المكتب ، وكانت المفاتيح في حوزتك ، كما كنت تعرف الأرقام السرية لفتح الخزانة ٠ **ومن ثم فقد قضى بادانتك ، وبسجنك عاما ، مع مراعاة الظروف المخففة ٠ ويبدو ان هذا هو الحد الأدنى ، اذ روعيت المؤثرات التي كنت خاضعا لها ٠ ولكن عليك ان تفهم انهم أدانوك ٠٠ وكان هذا في الشهر الماضي ، ولم تكن أمنا على قيد الحياة ٠** وعندما أنبأني أبي ، كان وجهه ممتقعا ، حتى انني خشيت ان يصاب بضر ، ولكنه كظم أساه كعادته دائما ٠٠ وكنت أفضل لو انه بكى ، ولكنه ليس ممن يبكون ، بل هو يكتم آلامه ٠ وهذا أسوأ ما في الأمر ٠٠

« ولقد ألصق الحكم على باب بيتنا ، ونشر بالصحف ٠ ويبدو ان القانون يقضي بذلك ! ان كل الخدمات التي اداها آل روكفيار السالفون للوطن ، لم تشفع في تفادي الصاق هذا الحكم على بابنا !٠٠ وهناك كذلك المائة الف فرنك التي يجب ان تسددها للسيد فرازن ٠ ومن رأى أبي ان يبيع الضيعة ليدفع المبلغ ٠ وهو يقول ان مدة غيابك تثبت ـ لسوء الحظ ـ انك أفدت من هذا المبلغ ، وان عملك ـ من وجهة الشرف ـ شبيه بالسرقة ! أما شارل ، فيرى عكس ذلك ، اذ يعتبر ان الدفع اعتراف بذنبك ، وان هذا ما يجب ان نتجنبه بأي ثمن ٠ ولكنه لا يراعي شرف الأسرة ، ولذلك فانني من رأى أبي ٠ وعلى كل حال ، فقد عينت المحكمة حارسا قضائيا أجرى تقسيم ثروة أمنا ، ليحصل على حصتك ٠ ولما كنت قد بلغت رشدي ، فانني طلبت الى أبي ان يسلمني حصتي ، وهي التي أرسلها لك الآن ٠ ولقد دهش أبي لطلبي هذا ، ولا أدري ما اذا كان قد أدرك الباعث على انني عرضت عليه خطابك فأبى ان يقرأه ، وقال ما أنقله لك

بنصــه : « لا .. انه فى نظرى ميت ، ما لم يعــد ليثبت براءته ! » .. لذلك اضفت مائة فرنك لنفقات عودتك . فعليك ان تعود .. وهأنتذا ترى ما سببت لنا من متاعب : **فباسم أمنا التى كانت عودتك آخر رغباتها وآخر أوامرها .. وباسم والدنا الذى طعنت قلبه ، هذا القلب البالغ النبل والحنـان .. وباسم فيليسى وهوبير اللذين يتـألمان من أجلك .. وباســم جيرمين وأختك الصغرى .. وباسم جميـع أهلنا الذين لم يأتوا على مر السنين سوى كل عمل مشرف ، والذين يستحلفونك ان لا تهدم فى يوم ، عمل جيل بأسره .. باسم هؤلاء جميعا : عد ! اننى أنتظرك ، وستجدنى دائما بجوارك ، وسأســاعدك ، فاننى أثق فيك** .. فعد ، ومن الميسور اصلاح كل شىء بعد ذلك ، مادمت غير مذنب .. بل من المستحيل ان تكون كذلك ..

«واننى لأرى جليا ـ خلال رسالتك ـ انك غير مذنب. وحتى اذا كان ثمة خطر يتهددك ، فان عودتك واجبة ، لأن من العـدل ان تنال نصيبك من العذاب ، وما أظنك من الجبن بالدرجة التى تجعلك تتهرب . بهـذا أختتم خطابى ، وكم أرجو ان أوفق الى اقناعك . أما اذا كانت « هى » أقوى سلطانا منا جميعا ، واذا لم تر العودة فورا ، رغم كل تضحياتنا وآلامنا ، فسـأظل أنتظرك طيلة حياتى .. حياتى التى كرستها لأبينا ولك ، فاعلم اننى لن أتخلى عنك قط . أفلم أعد أمنا بذلك ؟ لقد كنت انت آخر من فكرت أمنا فيه ، فاذا أحزنك خطابى ، فتذكر وصيتها لك بأن تكون دائما شجاعا ، وتذكر قول أبينا : ما ضاع حـق طالما ان صاحبه لم يمت ..

« وداعا يا موريس .. وانى لأقبلك : اختك ـ مرجريت »

***

◆ **ما** كان اضأل الحزن والهوان اللذين استحوذا على موريس ـ بعد اعترافات عشيقته الناقصة ـ اذا قيسا بذلك السيل من

العذاب الذى انصب عليه من رسالة مرجريت !٠٠ **وكيف يتحمل الصدمة وهو الذى أصاخ لحظات لنداء الموت ، لمجرد شبهة مشينة تمس الشرف ؟٠٠ كانت البحيرة القابعة تحت قدميه سادرة فى مناداته، تعرض عليه النسيان ، والصمت ، والسلام! ٠٠ ومع ذلك فانه لم يرها اذ ذاك ، فان نداء العشيرة اخذ يتردد فى صدره ، وبدلا من ان يستسلم للضعف ، استجمع كل قواه ليواجه النكبة التى أحاقت به** ٠ ان التفكير فى الموت أمر طبيعى لدى العشاق اذا ما خامرتهم الشكوك فى خلود هنائهم ٠ ولكن موريس لم يفكر فى سعادته ، فهى شيء شخصى يتعلق به وحده ــ وان كان قد فكر من قبل فى ان من حقه ان لا يعيش اذا فقدها ــ وانما فكر فى ان أسرته بأسرها كانت مهددة ، ومصيرها متوقفا عليه ، واذ ذاك شعر بأنه لم يعد ملك نفسه ، وانه مرتبط بأهله ــ شاء أو لم يشأ ــ وان العزلة التى ضربها حول نفسه لم تكن سوى سراب وهباء ٠ على انه فى الوقت الذى فقد فيه خيال المحبين الأزلى الذى يصور لهم الحب عزلة تباعد بينهم وبين الناس جميعا ٠٠ فى هذا الوقت بالذات ، راح ينهل العزاء والراحة النفسية من ذلك التضامن الذى كان يفرض نفسه عليه فرضا ، كما ينهل الانسان من معين طافح بالطاقة والنشاط !

وكان أقسى آلامه ، هو عجزه عن ان يبكى أمه بحرارة وحرية ٠٠ وان يبكيها وحدها ٠ وشعر بحسد للأبناء الذين يتركون العنان لأحزانهم ــ أمام توابيت أمهاتهم ــ دون ان يتمالكوا أنفسهم ٠ ألم تكن له يد فى هذه النهاية التى لم تجل بخاطره قط ؟٠٠ وتذكر ان الطبيب لم ييأس من المريضة ، وانما ذكر ان شفاءها كان يتوقف على اخلادها للراحة والهدوء ، فكيف كان لهذا الكيان الواهن ان يقاوم العاصفة ؟٠٠ **ان العاصفة التى أثارها قد اجتاحت « البيت »وقوضته ، وشتتت شمل الأسرة » فرحل آل مارسيلاز ، وانطلق هوبير ينشد قسطا من الشرف لاسم أصبح مضغة فى الأفواه ٠٠ وهاهى ذى الريح تحمل نذير**

الخراب ممثلا فى بيع الضيعة العريقة · ولم يعد فى البيت سوى ابيه المكتهل ومرجريت ·· ولكن ، لماذا لم تتزوج مرجريت ؟·· أترى خطيبها كان من الخسة بحيث حاسبها على وزر غيرها ؟ انها لم تتحدث قط عنه فى خطابها ·· بل انها نسيت نفسها ، وهى تعدد مصائبهم ، وكان كل ما قالته هو : « حياتى التى كرستها لأبينا ولك » ، ولم تشر بأية اشارة اخرى الى تضحيتها · **لم ينج من الكارثة شخص واحد ، اللهم الا المذنب الذى راح يتذوق كل ملاذ الحياة ، تحت سماء صافية !**

ذلك لأنه وان لم يكن مسئولا عن التهمة المشينة التى رماه بها السيد فرازن ، الا انه قد أثم فى حق اسرته عندما اعتقد انه حر فى ان يخونها ·· ولقد اتهم عشـيقته التى كان تهورها من اسباب العار والخـزى ، والتى كان حبها سببا فى دفعـه الى الحضيض · ولـكن ، هل كان الحب حقا هو الذى هـوى به الى الحضيض ؟·· ذلك الحب الذى طالما اشتهاه فى شـبابه الحافل بالعواطف المشبوبة والدراسـة الدائبة ، والذى كان يهب على قلبه كتلك النسمات الشذية التى كانت آلات الموسـيقى المعلقة على الأشجار ـ كما ورد فى الأساطير ـ ترتقبها لتمس أوتارها ؟ ·· لقد كان يعزو ارهاف مشاعره الى الحب ، كما كانت تعزى نغمات الأوتار الى النسيم ! ·· ولقـد كان يعزو اليه النضوب والاندفاعات التى كانت تعترى المعين الدافق فى أعماقه !·· وفى هذه الرحلة الخاطفة خلال حيـاته ، تذكر عينى اديث ، وفمها ، وحركاتها ·· **أجل ، لقد كانت نغمات قلبه ناجمة عن دلال هذه الحـركات ، وعذوبة هـذا الصوت ، واللهب المنبعث من تلكما العينين ·· انه قد يهجر هذه المرأة ، ولكنه لن يتنكر لحبه !**

ومن ناحية أخرى ، ما الذى يأخذه على اديث ؟ هل دار بخلدها ان مأساة أليمة ستحيق بأسرة كاملة بسبب زلتها ؟ لا ، بكل تأكيد ! لقد استولت على تلك النقود كما تستولى على القلوب ، دون ان تفكر فى شر ، وانما عن يقـين بأنها تمارس حقـا من

حقوقها • ولو انه أفضى اليها بما حدث ، لتولاها الذهول ، ولما أحجمت عن العودة معه الى (شامبيرى) لتعلن أمام القضاة — بأعلى صوتها — براءة عشيقها • ولكنه لم يكن راغبا فى هذا الكرم • بل كان من الأفضل ان تظل دائما فى جهلها ، وان لا تعرض نفسها لأى خطر • فهل يسافر الليلة ؟ لا ، ليس الليلة ، وانما غدا صباحا ، ودون ان ينبئها •• وبعد ان يكمل صداقها غير المشروع فلا ينقص منه شىء ! ولكن •• ماذا يكون مصيرها اذا هجرها هكذا ؟ ألا تزال عليه واجبات نحوها ، وهى التى كان الحب جماع حياتها ؟•• **وحاول موريس أن يتصور مستقبلها ، فاذا به يراها ممزقة القلب ، مشتتة النفس ، تلعنه، ثم تعود فتبكيه ، تباعا •• وتشكوه الى الغابة المقدسة ، والهياكل ، والى كل شهود غرامهما • لسوف يساعد فعلا على تعذيبها !** •• ولكنها — من ناحية أخرى — كانت تمتلك فى نفسها موردا قويا : مرونة ، ورغبة جامحة فى الحياة تمكنها من المقاومة والصمود والبقاء على قيد الحياة ! ألم يرها تقاومه فى وجل ، وفى ثورة ، عندما تكلم عن الموت ؟ وأحس بقلبه يتلوى حين فكر فى انها قد تجد عشيقا آخر ، وان اللهب المتأجج فى جوانحها قد يدفىء يوما رجلا سواه •• فهتف لنفسه : « لا •• كل شىء الا هذا •• لست أريد هذا ! »

وكانت هذه هى المعركة الأخيرة فى سبيل حبه ، وهو قد إعترف فى الواقع ، منذ اللحظة الأولى ، بهزيمته • فان موت أمه ، ونداء اسرته ، والحكم المشين الذى صدر ضده ، لم تكن تدع له مجالا للاختيار ، ومن ثم لم يبق له سوى ان يدبر أمر سفره ، بحيث يخفف من شقاء اديث ما استطاع ! •• انه لم يعد يبغى بقاء معها ، ولكنه كان يتعذب الى درجة تكاد تدفعه الى الأنين ، وهو يتخذ قرارا سريعا بفراقها !

وكانت اديث تنتظره على درجات سلم الفندق بصبر نافد ، فما آن رأته حتى هرعت للقائه ، وغمغمت وفى لهجتها شىء من

الشـكوى ، لاالتأنيب : «أخيرا !»٠٠ وحاول أن يبتسم قائلا : «نهار سعيد يا اديث» ٠ وراحت تتفرس فى وجهه بكل حنـان واهتمام ، فلاحظت آثار الدموع ، واذ ذاك قالت :«لقد أصبحت فى خوف دائم من أن تنأى عنى ! »

ـ خوف من ماذا ؟ ـ من أن لا تعود !

فهتف : « ياعزيزتى ٠٠» ، ولكنها قاطعته مستأنفة حديثها فى لهجة جادة : « اننى أعرف أنك ستخرج فلا تعود يوماما ٠٠ ألا قل لى ان هذا اليـوم لم يحن بعـد ! » ، فصـــاح : « **كفى يا اديث ٠٠ لسوف أظل أحبك على الدوام !** »

ـ دائما ؟ ومهما يحدث ؟ **ـ مهما يحدث !**

وتناولت يده فرفعتها الى شـفتيها فى تبتـل ، ثم قالت فى استحياء :«قيل لى انك تلقيت أنباء من فرنسا ، هذا الصباح»٠ فقال : « أجل » ٠ واذ ذاك سـألته : « وهل هى طيبـة ؟ » ٠ ووجد من الشجاعة ما مكنه من أن يومىء بالايجاب ٠٠ أما وقد احتفظ بأساه لنفسه ، فقد أحس بأن هذا فراق بينهما فعلا ٠ على أنها عادت تقول : « أما أنا فلا أرتقب أنباء قط ٠٠ انك كل فؤادى وحياتى ! » ٠٠ وبينما تقدمته الى الشرفة ، حيثوضعت مائدتهما الصغيرة فى وقاء من الهواء ، راح يسائل نفســه : « ترى هل لدى القوة على الرحيل ؟ »

٤ ـ العـــودة

• **كانت** اديث فى فراشها ، وقد رفعت رأسـها فوق حافة السرير ، واعتدلت لتتمكن من مشاهدة عشيقها وهو يسـوى هندامه ، وقد وضع المصباح على الأرض حتى لا يسقط النور على وجههـا ٠ وسألته بصـوت مثقل بالنعاس ، وهى لاتـكاد تقوى على فتح عينيها : « لماذا تغادر فراشك فى مثل هذا الوقت المبكر ؟ » ٠ فأجاب : « لقد شبعت نوما ٠٠ وأوشك النهـار أن



يطلع » . وأطفأ المصباح ، فانساب الى الحجرة - بعد برهة - ضوء باهت تسلل خلال خصاص النافذة . وعادت اديث تقول: « ان الوقت لا يزال ليلا يا موريس » .. واذ ذاك سألها : « ألا ترين قبسا من النهار ؟ » .. ولكنها أجابت : « ما هذا بضوء النهار ،وانما هو نور القمر » . فقال : « استأنفى النوم يا اديث ، فلا يزال الوقت متسعا أمامك » .. فقالت : « أجل، فانني أحس بخمول .. خمول مستعذب ! » .. وتهالكت على الوسادة ، وأغلقت عينيها .. وكانت تحتفظ بفتنة مثيرة ، حتى فى نومها ، فدنا من السرير ، وانحنى متأملا وجهها على ذلك الشعاع الواهن المتسلل خلال النافذة ، وهو يفكر : **« ان هذا اللهب الضئيل المنبعث من عينيها ، والذى أذكى غرام حياتى .. هذا اللهب قد خبا ، بالنسبة لى . لن أعود أراه وهاجا..بل اننى لاأرى جريان الدم تحت بشرة وجنتيها ، ولا لمعان أسنانها مع أن الشفتين منفرجتان .. وأكاد أتبين بعناء شكل فمها ، وأنفها ، وتلك الكتلة السوداء من الشعر الذى أشم عبيره .. أما جسدها فسوف أحرم منه ! »** . وغلبه التأثر بدرجة طاغية..كان كل شىء يغريه على البقاء .. وانحنى،ومس جبينها ، فأحس بحرارته العذبة . بينما أشرقت على وجهها ابتسامة مبهمة ، وظلت عيناها مغمضتين

وغادر موريس الغرفة ، فلم يلتق فى ردهة الفندق بغير صبى راح يتثاءب وهو ينظف الأرض • ولم يجتذب هندامه انتبـــاه الصبى • وكان المتاع الذى حمله مؤلفا من حقيبة صغيرة ومعطف شتوى وعصا • وكانت أقصر طريق الى محطة (أورتا) هى تلك التى تخترق (مون ساكريه) • وأخذ القمر يفقـــد تألقه أمام طلائع الصباح ، ويتسلل خلال الغابة فى خوف ورهبة • وكانت أشعته تنساب خلال جذوع أشجار الصنوبر الباسقة ، فتمتد الى الأوراق الذابلة المتناثرة على الأرض ثم تستقر على واجهات المعابد • وحين بلغ موريس المعبد الخامس عشر ، كف عن السير ورفع رأسه ، فاذا الأعمدة الصغيرة الرشيقة تبدو بيضـــاء متباعدة ، وقد انعكست منها ظلال سوداء على الحائط • وصعد الشاب الدرج ، ثم استدار ليستوعب للمرة الأخيرة المنظـر الطبيعى المألوف • وكانت حواف الآبار ، ومبانى بعض المعابد الظاهرة ، تتواثب حوله وكأنها أطياف • وتبين الجبال القائمة فى مواجهته ، وبعض أجزاء من البحيرة • ولم يكن فى وسعـه أن يرى فندق بيلفيدير الذى كان المنحدر يحجبه ، مع أنه كان ينشده بالذات • وراح يحفر المنظر على صفحة ذاكرته : هـذه الأحجار التى كان يركلها بقدميه ، والأشجار ، والمعابد ، وكل هذه المعالم غير الواضحة التى لن تلبث الشمس أن تعيد اليهـا بهاءها •• لسوف يراها ماثلة بأكملها أمام عينيه ـ ماظل محتفظا بذاكرته ـ لما كان لها من فتنة خاصة ، فكأنها المعالم الاضافية التى تحيط بصورة أصلية لتميزها وتبرزها •• **وكانت تلك الصورة الأصلية ـ زهرة الشباب الفريدة ـ لاتزال تبســط سحرها عليه ، على البعـد •• وبدلا من أن يهرب ، وأن يمضى فى فراره دون أن ينظر الى الوراء ، مكث جامدا فى ذلك المكان الذى كانت « هى » تحبه ، والذى جاءته ممسكة بالورود بـين يديها ، فى اليوم السابق ، لعيد حبهما الأول •• اليوم الأخير فى عمر هنائهما !**

لقد كانت نائمة فى غرفتها ، مستسلمة للخمول العذب • وعندما تنهض للحاق به ــ بعد ساعة أو اثنتين ، أو قبل ذلك ــ ستجد على منضدة الزينة خطاب النعى الذى يعلن اليها الفراق بكلمات حنون •• ولن تفهم الخطاب لأول وهلة ، ولكن الأوراق التى يضمها المظروف ستجلو لها الأمر • فهناك بيان حساب الفندق ، مؤشرا عليه بأنه دفع •• وبعض أوراق النقد ، وايصالات بالمبلغ الذى أودع باسمه فى المصرف الدولى بميلان ، مضافا اليه الاذن المصرفى الذى أرسلته مرجريت روكفيار ، وقد حوله موريس الى اديث • **اذ ذاك ستدرك الانقلاب الذى انقض عليها ــ فان الاسرة التى تغلبت عليها من قبل قد استردت منها حبيبها ! ــ وستطلق صيحة ألم مدوية ، ولسوف يسمعها تتردد فى أعماقه ، مهما يكن بعيدا عنها !**

وأخذ نور القمر يذوب فى ضياء الصباح • ومرت ساعة وموريس مستند الى أحد الأعمدة ، يكاد يعجز عن أن يحمل نفسه على الرحيل ، وهو يقول لنفسه : « من أين ترانى استمددت الشجاعة على أن أحطم قلبها وقلبى ؟ •• انها لاتزال جد قريبة منى ، ولو أننى عدت اليها ، فلن تعرف من الأمر شيئا ، ولسوف تستيقظ فى لين ودعة • ولكن ، لا •• لن أراها بعد اليوم قط ، فهناك من الأواصر مالا يستطيع الحب فصمها • اننى أدرك أن السعادة ليست حقا •• وانني لأعذب اديث وأحبها • أما الأذى الذى ألحقته بى ، فلم يكن عن طوع خاطرها ! اننى لاأذكر سوى أننى أحس الحياة فى قربها ، ومع ذلك فاننى لم أعد أقوى على العيش معها ! اديث ، أفتذكرين الماضى ؟ لقد أعطيتنى زهورا فى الليلة الأولى ، ثم منحتنى شفتيك الشبيهتين بالزهور ، فى غير ما تردد • وعندما قلت لى : « سأكون لك ، ولك وحدك ، عندما تشاء » ، أحسست مقدمها بلمسات يديك الناعمة تتغلغل فى جسدى • آه ! ان الوجد الملتهب الذى يشوب لمساتك المدللة ، والألم الذى سينتابك بسبب خطأى

أنا ، وضعفك ٠٠ كلها تجعلني أرتعد من المستقبل ٠ فلا تظني أن حبي قد نقص ، وانني سأنساك يوما يا اديث ٠٠ ان هـذا لن يخطر ببالي ، بل انني قد أزداد حبا لك ! ٠٠ ترى أية ذكرى ستحفظينها لي ؟ ٠٠ **لقد عاش حبنا بين خريفين ، وانك لتفضلين هذا الفصل الذى يتقد فيه اغراء الطبيعة ٠٠ لقـد وجدت لونه الذهبي في عينيـــك ، ووقدته المحمومة في أحضانك ، حيث اكتشفت اللذة العارمة ٠٠ أما الآن ، فاني أرى الخريف ممثلا في زهـور الأقحـوان في مقبرة (أورتا) ، وهي تخفي الموت تحتها ٠٠ أجل ، الموت ، فهـلا أدركت ؟** ٠٠ انني لم أودعك ، فقد انتهى كل شيء ٠ وهكذا الموت بالنسبة الينا ٠ لســوف تبكين ، وستتكلمين ، وستمشين ، وســتكونين في نظر الغير مخلوقا حيا طافحا بالدلال والشباب ٠٠ أما بالنسبـة لي – أنا الذى لن أعرف عنك شيئا – فستكونين ميتة ! والحـق أنه من الخير أن تكوني ميتة ، لانك لن تلعنيني اذ ذاك ، أنا الذى أحبك ، والذى اضطررت الى أن أذبح هوانا ذبحا !»

***

٠ **وانتزعه** من أساه – الذى كانت ارادته تتبدد فيه رويدا – صفير قطار ٠٠ فهل تراه غفل عن الوقت ؟ لا ، لابد أن هذا هو القطار السريع القادم من (نوفار) ، والذى يسبق القطـــار الذاهب الى (دومودوسولا) بدقائق ٠ وقد جاء هذا التنبيه في الوقت المناسب ليرده الى عزمه ، فغادر المعبـد ، واجتاز الغابة راكضا ، حتى بلغ المحطة وقد بدأ الصباح يشرق عـلى القمم ، وأخذ ضوء القمر يتلاشى في الفضـاء ٠ وابتاع موريس تذكرة الى (كوركونيو) – وهي محطة جد قريبة من أورتا ، ولكنهـا في اتجاه مضاد لمقصده – خشية أن تهتـدى اديث الى اتجاهه اذا حاولت اللحاق به !

وكان الخط الحديدى يمتد عبر البحيرة حتى مدينة (أومينا) ،

فجلس موريس فى عكس اتجـاه القطار ـ فى العربة ـ واتكأ على النافذة ليلتقط ببصره صور هذه الأماكن الحبيبة • وسرت فى مياه البحيرة رعشة خفيفة مع مقدم الصباح• ولاحت أشجار شبه الجزيرة فارعة ، وارفة •• هناك ذاق طعم السعادة ! •• وغادر القطار مدينة (أومينا) ، فحاول عبثا أن يمد بصره ليلقى نظرة أخيرة على (أورتا نوفاريس) ، وأن يستوعب بعينيـه وفؤاده هذا المنظر الطبيعى الذى كان يولى منه • **وكانت الثوانى التى تزيد من ابتعاده أشبه بأحجار يلقى بهـا الى هاوية ، فيسمع ارتطامها حجرا اثر حجر !** •• وان هى الا ساعة ، حتى بلغ (دومودوسولا) ، وهى مدينة ايطالية صـغيرة ، تقبع على جبـال الألب الـكبرى ، وتشرف عـلى نهر (توسـا) السريع الانحدار ، الذى يصب فى بحـيرة (ماجير) • ومن هناك كانت العربات ذات الجياد تنطلق لتربط بين ايطـاليا وسويسرا ، مجتازة المنطقة العليا من ممر (سـمبلون) • وكانت هـذه العربات تقطع المسافة التى تفصل وادى (أوسولا) عن حوض (الرون) ـ وقدرها أربعة وستون كيلو مترا ـ فى اثنتى عشرة ساعة ، بفضل جيادها القوية التى كانت تستبدل بانتظام على طول الطريق

ولم يتكبد موريس فى السفر ـ الى (دومودوسولا) ـ سوى فرنكات قلائل • وكان الشاب قد أنفق معظم نقوده ، كى يرضى ضميره تماما نحو آديث • ومن ثم استعان بدليـل السـكك الحديدية ، فتبين أن السفر عن طريق (تورين) أبهظ نفقـة • وبقليل من الحساب ، وجد أنه اذا دفع نفقات سفره فى الدرجة الثالثة من (أورتا) الى (دومودوسولا) ، ومن (بريبيج) الى (شامبيرى) ، فلن يتبقى له سوى ثمن ثلاث أو أربع وجبات متواضعة •• وهكذا تكون عودته « عودة الابن الضال » حقا ! وتحمل ـ فى غير تذمر ـ هذه الفاقة التى حشرته مع صـغار العمال ، اذ اضطر لأن يشاركهم مقاعدهم فى القطار • وكان

اهتمامه بهذه الصغائر يباعد بينه وبين اللوعة التى كان خليقا بأن يعانيها لو لم يجد ما يشغله ٠٠ **فقد كان عليه أن يعرف الطرق التى يسلكها ليقتصد فى نفقات السفر ، وكان عليه أن يتجنب الفنادق الغالية فى (بريبج)** ٠٠ فوجد أن ثمة بيتين للضيافة فوق الجبل هما مأوى (سمبلون) ومأوى (سان برنار) اللذان كانا يستضيفان الفقراء من عابرى الجبال دون أجر ٠ بل ان السياح أنفسهم لم يكونوا يتحرجون عن الافادة منهما ٠ وكان جاره فى الرحلة من أبناء مدينة (بيمونت) ، فزوده بما كان ينقصه من معلومات ، وقال : « ان الملجأ مفتوح دائما ٠٠ ليلا ونهارا ، ونهارا وليلا ! وفوق ذلك تستطيع الحصول فى الليل على حجرة فى الطابق الأول دون أن تستأذن أحدا ! »

وهكذا هانت عليه مصاعب الرحلة ٠٠ فما كان عليه سوى أن يجتاز ممر (سمبلون) على قدميه ، وينام فى المأوى ٠ لذلك بارح القطار فى (دومودوسولا) ، ومر فى أنفة بجوار العربة التى تجرها الجياد ، والتى كانت واقفة أمام المحطة ، حتى اذا امتلأت بالركاب لم تتأخر فى اللحاق به،تجرها جيادها الخمسة بقوتها المألوفة ٠ وكان موريس اذ ذاك فى بداية الطريق الصاعدة الى القمة ، فحملق الحوذى فى ذلك الشاب الأنيق الذى حمل حقيبته فى يده ، وانطلق دون أن يخشى على حذاءيه من أن يتلفهما السير ! ولوح الحوذى بسوطه فى الهواء ليسترعى نظر موريس ، ثم أشار بحركة رشيقة ـ كتلك التى تقدم بها باقة ورد الى أحد السادة ـ وعرض عليه مكانا فى العربة ، فأجابه موريس : « شكرا ٠٠ انني ماض على قدمى » ٠٠ فصاح الحوذى: « هذا مستحيل ٠٠ هذا مستحيل على ساقى « السيد » ! ثم انك ستتأخر كثيرا ، وأعتقد أن « السيدة » فى الانتظار ! » ٠ ولكن الشاب قال : « ليس هناك من ينتظرنى » ٠ واذ ذاك قال الحوذى :« **آه ! هذا من سوء الطالع ، فما أحلى أن يجد المرء عند وصوله نارا مشتعلة ، وحساء ساخنا ، وامرأة !** » ٠ ثم جمع

أعنة الجياد ، واستحثها ، فان هي الا لحظات حتى غابت العربة عن بصر موريس · وأصبح وحيدا ، فاستأنف السير ، صاعدا فى بطء · وقبل أن يبلغ دروب الألب الضيقة ، التفت يملى بصره بالابتسامات الأخيرة المنبعثة من الجمال الايطالى الرائع ، الذى تجلى في الوادى المتعرج ـ حيث يجرى نهر (توسا) ـ وفى المنحدرات المكتظة بالأشجار ، بل وعلى الحواف الجبلية الوعرة التى كانت تكسوها الادغال الذهبية اللون ·· كان منظر هذه البطاح ـ تحت الشمس ـ حبيبا الى النفوس ، رغم مشاق الجبال الوعرة! وكانت الفلاحات الساعيات آلى الكنيسة ـ اذكان اليوم من أيام الآحاد ـ يحطن أعناقهن بمناديل ملونة ، تدلت أطرافها على ظهورهن ، كما ارتدين ثيابا مزركشة · وكن يبادرن المار بتحية الصباح فى بشر مس شغاف قلب الشاب ، فانتابه شعور بأنه قد قضى على نفسه بالنفى طواعية ·· ألم تكن اديث وطنه ؟·· اديث ! لابد أنها استيقظت الآن وعرفت كل شىء !

واذ تذكر ذلك ، أسرع فى مشيته لينسى فى الاجهاد لوعته! وقسم الكيلو مترات الأربعة والستين الى ثلاث مراحل : الأولى طولها ١٨ كيلو مترا ـ وتنتهى عند (ايسيل) ـ والثانية طولها ٢٢ كيلو مترا ـ وتنتهى عند القمة ـ والثالثة طولها ٢٤ كيلو مترا وتنتهى عند (بربيج) · وخطر له أن يتناول الغداء فى (ايسيل) ، ثم يسعى الى القمة ـ التى ترتفع على سطح الأرض بألفى متر ـ فى موعد العشاء ، ويبيت هناك فى المأوى ، على أن ينحدر الى (بربيج) مبكرا ، فى صبيحة اليوم التالى ، ليتمكن من اللحاق بقطار لوزان وجنيف ، الذى يتصل باقليم (السافوا) عند الحدود الفرنسية · وبهذا يصل الى (شامبيرى) فى الساعة السادسة من مساء يوم الاثنين

أما (ايسيل) التى تقوم على مشارف سهل صغير مزدهر فهى آخر قرية تسبق سويسرا ـ وفيها يحس الانسان فعلا بأن عليه أن يودع ايطاليا محسورا ! ـ وهى مشيدة بشكل مستطيل

على حافة طريق نابليون ، يحف بهـا جداران جبليـان يتراوح ارتفاعهما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف قدم ٠ ويكفى أن تتطلع الى الخلف كى تبصر المروج الخضراء ، ومجمـوعات من الشجر كالباقات ، وما يشبه فجوة من نور خلال الجبال ٠ ولم يكن ثمة ما يبعث الحياة فى القرية الصغيرة سوى جلجلة العربة التى كانت تبدل جيادها فى (ايسيل) ، وتوفر عملا لرجال الجمارك الذين كانوا بادى اليقظة والمهابة ، كأنهم جنود ، مما دعا الى تسميتهم بحراس الأموال ٠ الى أن كان شهر أغسطس من سنة ١٨٩٨ ، فبدىء فى مد الخط الحديدى عبر جبال الألب ، فازداد عدد سكان القرية الى أربعة أمثالهم بسحر ساحر ، وأقيمت مساكن للعمال ، و « فيلات » صغيرة ذات حدائق للمهندسـين ورجال الأعمال ٠ وقد اجتمع كل هؤلاء فى شوارع البلدة فى يوم الاحـد ٠ فلما بلغها موريس ، كانت الأجراس تدق مؤذنة بالخروج من الكنائس ٠ فاخترق موكب النساء العائدات الى بيوتهن والمسابح فى أيديهن ، بينما انصرف الرجال الى لعب الكرة ، وتصاعدت من الحانات ـ مع أبخرة المطابخ ـ أنغام « الجيتار » و « الهارمونيكا »

وتناول موريس غداءه فى مطعم حقـير ، مقابل ثمن بخس ، ومع أناس صاخبين ، صائحين ٠ وبدلا من أن يسـتغل فرصـة النهار للتعجيل بالرحيل ـ اذ كان الليل يحل مبـكرا فى شهر نوفمبر ـ أخذ يتلكأ عن غير قصد ، وكأنه كان يؤثر البقاء وسط هذا الصخب المزرى على الوحدة ٠٠ **أو كأنه كان عاجزا عن المضى فى اجتياز الحدود ، لأنه رأى فى هـذا الاجتياز صـورة مادية لانفصـام عرى حبـه ٠٠ الحب الذى كان متعلقـا به الى درجة الجنون ٠ وفى ذلك المطعم الذى تكاثف فيه الدخان ـ والذى كان الضجيج المنبعث فيه يلهيه عن آلامه ـ خيل اليه أنه لا يزال على صلة باديث ٠٠ وان بعدت !**

وقبيل شلال (كوندو) الجبلى ، حيث تتدفق الميـاه من مساقطها ، وجد الحد الفاصل بين الدولتين ، فلما اجتازه ، أحس

بالظلام يطبق على فؤاده ، ولما يبلغ المنطقة الضيقة التى يجب أن يجتازها بين صخرتين . ورفع رأسه فرأى فلول الشفق الوردى تتلاشى . وباغته الليل مبكرا - أكثر مما توقع - فلم يتمكن من سلوك الطريق المختصرة التى تجنبه طريق (الجابى) الطويلة ، واضطر الى سلوك هذه ، فبلغ قرية سمبلون مكدودا ، فى ساعة متأخرة .. وهناك تناول عشاءه واستراح . حتى اذا استأنف السرى ، كان الظلام والصمت ينتظرانه عند نهاية القرية ، فاستقبلاه كما لو كانا رفيقيه الطبيعيين فى رحلته الحزينة . وأحس بأنه كان يؤدى واجبا لا مناص منه رغم كل الظروف .. **أفلم يقتل بيديه هناءه ؟ أو ليس على القتلة أن يكفروا عن ذنوبهم ؟**

وكان موعد شروق القمر قد حان .. على أنه لم يظهر الا حين اقترب موريس من القمة ، حوالى الساعة الحادية عشرة . وعلى ضوئه الزاهى ، ألفى موريس نفسه وحيدا فى مكان مقفر موحش ، تحيط به الثلوج وكأنها تخلع على الأشياء كلها لباسا موحدا . ولم يكن يسمع حتى وقع قدميه ، بينما كان ظله يتبعه كرفيق مزعج ، يستطيل ، ثم يتضاءل .. ويختفى ، ليعود الى الظهور . وقضى الشاب وقتا طويلا وهو يتطلع بعينيه نحو الأفق ، يستكشف المأوى ، وقد تقطعت أنفاسه ، وتخاذلت ساقاه . أيكون قد مر به دون أن يراه ؟ لقد بلغ به الاعياء حدا لم يعد معه يحسن تقدير المسافات ! **ومع ذلك ، فما جدوى هذه الجهود التى كان يبذلها ؟ ما عليه الا أن يترك نفسه ليهوى على جانب الطريق .. فعلى الثلوج يحلو النوم .. أو الموت ! وبهذا وضع حدا للتفكير ، وللمسير . وصاح بأعلى صوته : «اديث!» .. وما أن رجع الصدى صوته ، حتى كف عن السرى منتفضا ، وقد خيل اليه أن أحدا كان يناديه .. ألم تكن هى التى نادته مرة أخرى .. بل مرة أخيرة ؟** .. انه لم يعد يحس لقدميه وجودا ، فليدع نفسه تنساب الى اديث فى هدوء ، كما تنساب

أشعة القمر فى الثلوج ٠ وأصابه الاعياء المفرط والبرد وخفة كثافة الهواء ـ واليأس أيضـا ـ بهذيان ٠ والذى يتوقف عن السير فى مثل تلك الحال من الاعياء ، يكون هلاكه مؤكدا ، ولايقدر له أن يقدم قدما على أخرى ، اذ يغدو كآلة تحطمت تروسها ٠٠

وهتف مرة أخرى : « اديث ! »، ثم ابتسم ٠ ولم يكن ثمة ألم ينتابه ٠٠ وكان من أسهل الأمور أن يجلس وينتظر ٠ وكانت فى مواجهته ـ الى اليمـين ـ جبال (مونت ليونى) الثلجيـة ، ترسل وميضا مرتعشا ، وكأن ثمة حركة تسرى فى كيانها !٠٠ وخيل اليـه أن الأفق كله كان يتحرك متقهقـرا ، متطلعـا الى ايطاليا ٠٠ وبعث الاسترخاء فى نفسه شعورا مستعذبا ، ولكن غريزة البقاء ، أو لعله حب الاستطلاع ، أبقى عينيـه مفتوحتين رغم هجوم النعاس عليهما ٠ الا أنه لم يحس برغبـة فى الاتيان بأية حركة ٠ وخيل اليه ـ فى سكون الجبـال ـ ان ضياء القمر والثلوج تتسع حتى لتملأ الفراغ كله ، وترقى الى النجوم ٠وفى غمرة هذا الاستغراق ، اضطر الى قطع تأملاته ، اذ هوت الحقيبة من يده دون وعى ، فأفاق من غشـيته على صـوت سـقوطها ٠ وفطن ـ حين أحس بعناء تحريك أعضائه ـ الى الخطر المحدق به٠ وقال لنفسه فجأة : « هل أموت هنا ؟ ٠٠ وحيدا ، فى هـذه القفـار ؟ » ٠٠ انه يموت ، يا اديث ، وهـو الذى كان يظن أنه راجع اليك !

وغابت اديث عن خياله ، كطيف يغيب فى أعمـاق البحـر ، ليحل محلها منظر البلاد التى نشأ فيها ، والهضبة التى تقـوم عليها المزرعة ، وأسرته ٠٠ وهتف لنفسه : «انهم ينتظروننى»!٠

أفكانت ذكرى هذه السنين الأولى من حياته ـ التى حلت محل رؤى فترة الغواية والشهوات ـ تميمة سحرية ضد الموت ؟ ٠٠ لقد خف شبابه الى نجدته ، فاسترد شيئا من القوة والنشاط ، وأخذ يرفع قدميه ـ واحدة بعد أخرى ـ وكأنه ينتزعهما من وحل سميك غاصتافيه ٠ وسار ، أو بالأحرى جر نفسه جرا ، ليقطع

مسافة لم تزد على بضعة أمتار . واذ ذاك ، شعر بالخوف ، فصمد ازاء الخطر الذى أحس بوجوده الى جواره ، يصحبه فى كل خطوة ، فى هذه العزلة ، كعدو يتربص مترقبا لحظات ضعفه وخوره . وكان يعرف أن ثمة أكواخا من الخشب أقيمت على جانب الطريق - بالقرب من القمة - ليلوذ بها السائحون اذا فاجأتهم العاصفة أو الريح الزمهرير .. فبات كل مطمعه أن يعثر على أحد هذه الأكواخ . وفى تلك اللحظة ، لمح فى أسفل (مونت ليونى) ضوءا خافتا ، لا يكاد يبين فى الليلة المشرقة .. **ذاك هو الملجأ الصغير ، الملتصق بالجبل ، والذى ترك بابه مفتوحا ، بل ووضع عنده مصباح يرشد اليه .. اذن ، فقد كتبت له النجاة ! .. ولم يحول بصره عن ذلك البريق المشجع .** ومالبثت معالم المبنى أن ظهرت بوضوح ، فاذا هو مبنى كبير ، مرتفع ، من الاحجار الضخمة ..

وصعد أخيرا درجات السلم ، وولج المكان . وأعلن وصوله نباح انبعث من حظيرة نائية للكلاب . ولم يصادف أحدا فى الردهة التى كانت أشعة القمر تنفذ اليها .. فهل سيترك وحيدا مع قنوطه وهمومه ، وقد بلغ مرساة الأمان ؟ .. وهم بأن يستلقى على الأرض ، لولا أن تذكر ما قاله له الرجل الذى كان يرافقه فى القطار : « فالمرء - اذا ما جن الليل - يستطيع أن يأوى الى حجرة فى الطابق الأول ، دون أن يستأذن أحدا ! »

وصعد الى الطابق الأول ، فلجأ الى أول باب ، ولكنه وجده موصدا .. وعالج الباب الثانى ففتح ، واذا به فى حجرة بسيطة ، ولكنها مريحة ، ضمت سريرا ذا ملاءات نظيفة وغطاء كاف ، ومنضدة للزينة ، وأخرى ذات أدراج ، ومقعدين أو ثلاثة ، وبساطا .. وابتسم مغتبطا بهذا الأثاث . وبدت المبالغة فى الكياسة والكرم ، اذ كانت هناك زجاجة « روم » وكوب به سكر ، وضعا بشكل يلفت النظر . وهدأ الشراب من روعه .. وما أسرع نسيان الخطر لدى شاب فى الخامسة والعشرين من

عمره ! ٠٠ وقال لنفسه فى غبطة : « كأننى فى بيتى ٠٠ ومع ذلك ، فكأننى لص ! » ٠ وتأهب ليستمرىء الحياة من جديد ٠ ولكن الفكرة جعلته يجفل ٠٠ كأنه « لص » حقا ! ٠٠ ألم يحكم بادانته فى قضيةسرقة ؟ ٠٠ ونغصت عليـــه الذكرى العابرة سروره ، فسارع الى النـوم ٠ وبعث دفء الغطاء السميك فى جسده حرارة عذبة ٠ وكان التعب قد هده ، فواتاه النعاس فى الحال ، دون أن يخطر له أن تلك أول ليلة يقضيها بعيـــدا عن اديث ، وبعيدا عن ايطاليا ، منذ هجر منزل الأسرة !

* * *

◆ **واستيقظ** فى اليوم التالى ، بعد الموعد المناسب للسفر الى (بريبج) بكثير ٠ وما ان علم رهبـان بيت الضيافة بتطورات رحلته ، حتى استبقوه فى رعايتهم يوما آخر ٠ على أنه رفض أن يستقل عربة البريد فى سفره ، وان أبت عليـه عزة نفسـه أن يبوح بالباعث ! ٠٠ وقضى اليوم فى راحة ، وشبه نسيان ٠ وتولاه فى هذا المكان المنعزل ، القائم على ارتفاع ألفى متر ، مرح يشبه مرح الأطفال ، تخللته فترات مفاجئـة وقليلة من الأسى والوجوم ٠ وراح يأكل كالوحش المسعور ، كما تمشى فى رحاب بيت الضيافة ، ليخفف من التيبس الذى أصاب قدميه ٠ وأخذ يداعب كلاب الصيد ـ ذات الشعور الطويلة ـ وهى فى حظائرها، ويتأمل تأثير الشمس على الثلوج ، وتباين أشكال قطع الجليد الناصعة الدقيقة ٠ وتولته الرغبة مرارا فى أن يبقى فى الجبل أمدا أطول ، ثم أوى الى فراشه مبكرا ٠ **وما كان فى وسـع من يراه أن يتصور أنه قد فارق ـ منذ أمد وجيز ـ أعز حبيبـة وأنه كان فى طريقه الى فرنسا ليسلم نفسـه الى السجن ! ٠٠ ففى غمرة الأحزان المتكاثفة ، تسوق الينـا المصادفات واحات غير مرتقبـة ، تعالج ما فى فطرتنا من ضعف يعرقل صمودها**

للألم ، وتذكى غريزة حب البقاء الجامحة التى تعضدنا على الرغم منا !

وغادر موريس بيت الضيافة فى الساعة الرابعة من صباح يوم الثلاثاء ، بعد أن تناول قليلا من الخبز والجبن ، كان الأب الراهب المكلف برعاية الأغراب قد أصر على أن يحملهما معه الى الغرفة فى الليلة السالفة ، ليكونا له فطورا فى الصباح . على أن موريس رأى من الحكمة أن يحمل معه نصف هذا الزاد من قبيل الحيطة ، اذ لم يكن مطمئنا الى أن ما تبقى فى جيبه يكفل له زادا بعد أن يدفع نفقات السفر . ولم يكن أحد ممن فى المكان قد استيقظ بعد ، فرحل متسللا كما حضر ، وكان الباب مفتوحا على مصراعيه كما وجده ليلة وصوله . واستقبله الظلام - بدلا من القمر الذى كان يرجو أن يسير على هدى نوره - وأحس بالجليد متراكما على السلم وهو يهبط الدرج .. وكان مضطرا الى أن يسير مسرعا ، اذ كان هبوط الجبل أقل سهولة من صعوده . وعندما بلغ الطريق ، التفت ليتأمل المبنى الأسود فى الظلام .. وخالجه الأسف وهو يودعه !



وسار الى المستقبل المجهول فى غير وجل ، وقد استرد ثقته بنفسه .. فقد سكب السلام - المخيم على الجبل وعلى الرهبان -

سكينة وطمأنينـة فى قلبـه ، دون أن يفطن · وانطلق بخطى ثابتة ليستعيد مكانه فى « بيت الأسرة » الذى أضلته عنه نزوة عارضة ! ·· **كانت المصـادفة التى يدين لهـا بنجاته قد ردت اليه ـ فى الوقت ذاته ـ صوابه ·· وكان فى عودته الى الحيـاة العادية ينهج نهجا خياليـا جريئـا ـ يتحاشـاه سواه عادة ـ ويستمرىء تضحيته فى حماسة وشغف !** ·· وكان الجليد قـد تساقط ساعات طويلة خلال الليل ، اذ أن الطريق لم تكن ممهدة واضحة ، فواصل السير وهو يخشى أن يضل · واجتاز نفقـين أو ثلاثة نحتت فى الصخر ، وكان الظـلام فيها كثيفا ، حالكا ، حتى انه ظن ـ عندما بلغ نهاية احدها ـ أنه قد فقد بصره ، فراح يتلمس طريقه بطرف عصاه التى أمسك بهـا فى يده اليمنى ، بينما بسط ذراعه اليسرى الى الأمام ، رغم أنها كانت تحمـل الحقيبة ، ومضى يغوص مستنقعات الماء المتساقط من الصـخر · وأدرك أنه بلغ نهاية النفق عندما أحس بالهواء البارد ، قبل أن يرى النور بفترة طويلة · على أن صعاب الطريق شحذت همته ·· ذلك لأن المحن شىء لاغنى عنـه للشبان ، و هم اذا سعـوا الى الحب ، فانما يسعون عن رغبة متأججة فى الحياة ، أكثر ممـا يسعون عن رغبة فى المتعة ! ·· وما أشبه ذاك الذى يهرب من الهناء بمتسول لا يأسى على فقدان كل النعم !

وهكذا راح موريس يكافح البرد والثلج والليل والخوف بجلد قوى ، فاذا الصراع يذكى فى كيانه حرارة الحياة · وأقبل نور النهار رويدا ، ولكن الشاب لم يفد منه كثيرا ، اذ كان الضباب الأبيض قد أحاط به من كل جانب ، كما يحيط البحر بالجزيرة الصغيرة ! وبدت له الطريق البديعـة ، التى تكشف للبصر عن جبال الألب البيرينية ، وجبال (اليتشى)الجليدية ، والمرتفعات الرائعة المحيطة بوادى (الرون) ·· بدت له هذه الطريق وكأنها شقت وسط قطن متراكم · وكان يرى أحيانا شجرة من أشجار الصنوبر تهوى من مكانها تحت ثقل الصقيع ، وتستلقى على بعد

عشر خطوات منه ٠٠ وفى غمرة هذه المناظر الرتيبة ، فطن الى أنه قد وصل الى (بربيج) ، خاتمة هذه المرحلة من كفاحه !

وقضى فى القطار يوما بدا طويلا مرهقا ، رغم اقترابه الحثيث من مسقط رأسه ٠ وفى الساعة السادسة مساء ، هبط فى (فيفييه) ، وهى أقرب محطة الى (شامبيرى) ٠ فان الخوف من أن تكشف شخصيته فيقبض عليه وهو يغادر القطار فى البلدة ، أوحى اليه بهذا القرار ٠ ومن ثم سار على قدميه فى طريق (اكس) ، فلما مر بأسفل هضبة (كالفير دى ليمنك) ، توقف ، وهتف متأوها : « اديث! » ٠٠ وفطن الى مدى ماباعدت هذه الأيام الثلاثة بينه وبين اديث ٠٠ ولما كان يحبها ، فقد أخذ يلوم نفسه على قسوته ٠ ثم اقترب من الحاجز الذى كان مقاما على حافة الهوة الجاثمة تحت الهضبة ٠٠ وكانت أنوار (شامبيرى) تتألق ، فاجتذبته ٠ **ولكنه قال لنفسه : «المقبرة ، ثم البيت!» ٠٠ ومن ثم آثر أمه بالزيارة الأولى ، ولكنه وجد دار الموتى مغلقة ، فلم يستطع أن يلجها ٠ ثم سلك بعض الطرق الملتوية ، حتى بلغ البيت ٠ وكانت ثمة ساعة تدق الثامنة ٠٠ وكان موريس مقرورا ، جائعا ، فالى أين يولى وجهه اذا لم يوله نحو هذا المكان ؟**

وضغط زر الجرس وقلبه يدق بعنف ، ففتحت له الباب خادم جديدة ٠ وبدلا من أن يدخل فى غير كلفة ، سألها بصوت متحشرج : «الآنسة روكفيار !» ٠٠ فقادته الى البهو ، وتركته ٠ وفكر فى الهرب ــ تحت وطأة الذل والخزى ــ الى أى مكان آخر فى الدنيا ٠ أية قوة غريبة تلك التى راحت تدفعه دفعا حتى انتهت به الى بيت أبيه ؟ ٠٠ وما لبثت مرجريت أن أقبلت ، فارتمت عليه هاتفة : « أنت ٠٠ أهذا أنت يا موريس ؟ » ٠٠ وبينما كان يغالب البكاء ، قالت له : «اننى أنتظرك منذ أمس!» ٠٠ وقادته الى غرفة المائدة ، فاستسلم لرعايتها وهو محطم ، خائر القوى ٠ ولم يكن غطاء المائدة قد رفع بعد العشاء ٠٠

وسألها فى شىء من الوجل : « وأبى ؟ » ٠٠ فأجابت : « لقد احتبس نفسه فى مكتبه بعد العشاء ، وانكب على العمل ، بينما انهمكت أنا فى تغيير ثياب جوليان الصغير ٠٠ سأخطر أبانا بمقدمك ! » ٠٠ فهتف : « لا يامرجريت ٠٠ لا تذهبى » ٠٠ وسألته فى دهشة : « لماذا ؟ » ٠ ولكنه لم يجب بأكثر من : « لست أدرى » ٠٠ ثم تمتم بعد صمت ثقيل : « أترينه قد تغير كثيرا ؟ » ٠٠ فأجابته : « أجل »

وكان جائعا ، ولكنه لم يقو على تناول شىء من الصحاف التى أحضرتها مرجريت من المطبخ بنفسها ٠ وأدركت مابه ، حين رأته مستغرقا ، فتسللت ثم ركضت الى حجرة مكتب أبيها ، وصاحت به : « أبى ٠٠ انه هنا ! » ٠٠ **وكان السيد روكفيار منكبا على احدى الملفات ، فنهض فجأة بحركة عنيفة ٠ الا أنه تمالك نفسه مسرعا وقال : « لقد تأخر كثيرا » ٠٠ وهتفت فى ضراعة : « ألا تقابله ؟ ٠٠ انه جد تعس ! » ٠ ففكر روكفيار ، ثم قال فى عناء : « سأقابله غدا ، فى السجن ، لأدبر الدفاع عنه ٠٠ وليس الليلة ! » ٠ واذ أجهشت مرجريت بالبكاء ، ضمها الى صدره قائلا : « أما أنت ، فاعتنى به ، واذا كان مكدودا فاسهرى على راحته ٠ فلن يزج به فى السجن قبل غد ! »**

ـ ألا اصفح عنه يا أبى ٠٠ من أجل خاطر أمنا !

ـ آمل يا مرجريت ان يثبت يوما أنه أهل لصفحى ٠ أما الآن ، فلست أقوى على أن أنسى بهذه السرعة ما ألحقه بنا من ضرر برحيله ٠٠ اننى أرغب فى أن يدرك مدى هذا الضرر ويقدره ، فان هذا ضرورى لنا ـ بالنسبة لماضينا ـ وله ، بالنسبة لمستقبله ! ٠٠ لا تبكى ، فاننى لم أكف عن حبه ٠ بل ان عودته تثلج صدرى ! »

ولقد غادر روكفيار غرفته فيما بعد ـ بعدذلك بوقت طويل ـ فتسلل الى حجرة ابنه ، على أطراف أصابع قدميه ٠ وحجب

ضـوء المصباح الساهر بيـده ، ثم أنصـت برهة الى الأنفاس الخفيفة المنتظمة التى كانت تتصاعد من ابنه النائم · واذ ذاك ، أضاءت ابتسامة رقيقـة ذلك الوجه الذى عصف به الأسى ·· وهتف الأب لنفسـه : « **هاهو ذا هنـا ·· هـذه هى النقطـة الجوهرية · ولسوف أنقذه ، وأنقذ معه السلالة كلها !** »

القسم الثالث



١ ـ رفيق الشدائد

• **عندما** دخلت مرجريت الى غرفة مكتب أبيها ـ كعادتها كل يوم ـ لتوقد المصباح ، وتسدل الستائر على النوافذ ، ولتخفف عنه همومه ـ قبل كل شىء ـ وجدته يتتبع هبوط الظلام السريع • وقال لها حين رآها : « أهذه أنت ؟ ان الضوء لم يكن كافيا ليسمح بالعمل ! » • واعتذر عن شرود ذهنه كما لو كان قد ارتكب خطأ • على أن مرجريت كانت تعرف سبب انشغال باله الذى لم يشأ أن يفصح عنه • وتساءلت : « ان هؤلاء السادة لم يحضروا بعد ؟ »

ـ اننى أنتظرهم من لحظة لأخرى •• لا بد أنهم رأوا موريس فى السجن بعد ظهر اليوم

ـ ومن الذى سيترافع ؟ ألعله الأستاذ هاميل ؟

ـ ان الأستاذ هاميل نقيبنا • ولما كان موريس مقيداً فى

النقابة ، فقد طلبت من النقيب أن يتولى الدفاع عنه ·· وهو تقليد مرعى · ومع أن الأستاذ هاميل يرعى مهنتنا ، بما يشرفها ، منذ نصف قرن ، الا أنه يرى أنه قد تقدم فى السن ، وانه تخصص فى مسائل القانون المدنى الى حد لا يمكنه من تولى الدفاع فى هذه القضية · وهو يريدنا أن نكل هذه المهمة الى الأستاذ باستار ، وهو أشهر من يترافع أمام محاكم الجنايات ، كما أن له فى الواقع تأثيرا كبيرا على المحلفين

وحين سمعت الفتاة اسم باستار ، بدا عليها شيء من الامتعاض ، وقالت : « لقد سمعته وهو يترافع يا أبت · انك تجيد الكلام خيرا منه ! » ، فتأثر المحامى الشيخ لهذه الاجابة وقال :

ـ اننى لا أجيد الكلام يا صغيرتى ·· اننى أقول ما أعرفه فقط !

ـ لماذا لا تتولى أنت الدفاع عنه ؟

ـ ماذا ؟ هذا مستحيل ! ألا تدركين الأمر ؟

فتقدمت اليه ووضعت يدها على كتفه ·· ثم أسندت رأسها على صدره وتمتمت قائلة : « ألم تصفح عنه ؟ »

ـ انه لم يسألنى الصفح !

ـ ذلك لأنه يتألم !

ـ نعم ، ربما · ان القدر يضربه بقسوة ، ولكنه هو الذى استفز القدر !

ـ تذكر أمنا !

فانحنى ليقبل جبهة ابنته قائلا : **« لا تطلبى منى أن أكون ضعيفا يا مرجريت ! لقد زرته مرتين فى السجن ، فوجدته سادرا فى كبريائه ·· ثم انه لم يعبر لى عن أى أسف لمسلكه الذى جلب علينا كل هذه الأضرار ! ·· اننى لا أنتظر منه غير كلمة لأصفح عنه ، ولكننا لا نتبادل غير عبارات تافهة !**

ـ انه يبكى أمنا عندما يكون معى ·· أما معك فهو لا يجرؤ على ذلك !

ـ ان واجبى يقتضينى أن أنتظره ٠٠ وسأنتظره !

ولما كانت مرجريت مطأطئة الرأس ، فإنها لم تر العذوبة الحزينة التى انتشرت على الوجه الشائخ فخففت من صلابة أقواله ٠ ورددت الفتاة قائلة : « انه يتألم ! انه تعس ! » ٠ فقال السيد روكفيار : « **ونحن ؟ ألسنا نتعذب ؟ !** » ٠٠ ثم رفع رأس الفتاة برقة ، وسألها بدورها ـ مغيرا مجرى الحديث : « ماذا فعلت بعد ظهر اليوم ؟ » ٠ فأجابت : « لقد خرجت فى نزهة مع الصغير جوليان ، ثم كتبت خطابا مطولا الى هوبير »

ـ آه ! لقد كتبت له أنا أيضا

فلقد كان هوبير هو الآخر مبعث قلق لهما ، اذ تضمن آخر خطاب ورد لهما من السودان ، أنباء عن اصابته بالحمى ، ومرضه فى كوخ منعزل دون أية عناية طبية ٠ **ومع أنه هو نفسه كان يهزأ من هذه الوعكة التى لا خطر منها ، الا أن عبارة خاصة فى الخطاب ـ صيغت فى قالب وداع حنون ! ـ صدمت أباه وأخته وأحزنتهما حزنا عميقا ٠٠ ومن ثم صمتا وقد انقبض قلباهما** ٠ ثم أشعلت مرجريت المصباح لتطرد الظلام الذى كان يملأ الحجرة بطوالع الشؤم ! ٠٠ وبينما كانت تسدل الستائر ، اذا بطرق على الباب ، فقال السيد روكفيار : « هاهما قد جاءا »

ولم يكن لدى الفتاة متسع من الوقت لتمرق منصرفة خلال الباب المؤدى الى المسكن قبل دخول الضيفين ٠٠ بل ان أباها كان قد تقدم بالفعل لاستقبالهما ٠٠ ودخل الأستاذ هاميل أولا ، يتبعه الأستاذ باستار

* * *

◆ **كان** النقيب يتمتع فى نقابة محامى (شامبيرى) بمركز محترم ، فرضته سنه المتقدمة وغزارة مادته القانونية وحياته الوقورة ٠ وكان شيخا فى الخامسة والسبعين من عمره ، نحيفا بحيث يكاد يتأرجح فى سترته الرسمية ـ (الردنجوت) ـ

البالية ، التى كان يؤكد فى اصرار أنها ستبقى ما بقى هو على قيد الحياة • فاذا حل الشتاء ، لم يجد غضاضة فى أن يلتحف بمعطفه الذى بلى كماه • وكان يجلل وجهه الحليق تاج من الشعر الأبيض الأشعث ، كما كانت وجنتاه الشاحبتان تبدوان شفافتين • ومع أن قامته الفارعة انحنت كما تنحنى الأشجار الهزيلة التى تعبث بها الرياح ، الا أن خلقه لم ينحن قط • فما استطاع شىء أن يجعله يحيد عن مبادئه الراسخة ، التى اعتنقها منذ شبابه وسار فيها مترسما تقاليد أسرته ! وكان فاتر اللهجة ، مترفعا ، ذا صوت آمر ، يظهر من الصلابة فى التمسك بمبادئه نفس القدر الذى يظهره من المجاملة فى علاقاته بالناس • وكانت عظمته تلك تتبدى فى الظروف العادية والظروف الهامة على السواء ، فلم تتأثر نفسه بما تعاقب عليها من رخاء وشدة ••

على أنه عرف الشدائد ـ على الأخص ـ فى سنى حياته الأخيرة، وفى الوقت الذى يحق للانسان أن يخلد الى الراحة • فلقد جلبت عليه تصرفات ابنه السيئة واسرافه ، الخراب ، فاستأنف الرجل عمله من جديد ـ ببساطة ! ـ ليكسب قوته اليومى !

على أنه قلما كان يترافع فى قضايا ، اذ كان « المستشار » الذى يلجأ الناس اليه فيما دق من الأمور التى ما كان يبدى فيها غير الرأى المتزن ، الصائب • ولم يكن يرى قط خارج مكتب استشاراته الصغير ، الحقير ، الذى كان يقصده الناس ليعرضوا على صاحبه ـ بصفة خاصة ـ قضايا الصلح والتحكيم، كما كانوا يعرضونها على قاض عظيم ! •• فاذا خرج ، ففى المساء ، ليذهب الى الكنيسة بخطى لا تخلو من السرعة ، وقد بدا عليه التأثر والخشوع وعدم الاكتراث بالعالم الخارجى ، مصغيا الى صوت الله الذى كان ينتظر نداءه بصبر مستسلم

وبالرغم من فارق العمر بين روكفيار وبين هاميل ، فقد توطدت بينهما صداقة من تلك الصداقات القديمة التى تدعم أواصرها الحياة المتشابهة والكفاح المشترك ، الى الحد الذى يجعلها

تتساوى مع صلات الدم ! .. فقد تعهد هاميل نشأة روكفيار المهنية ، كما آزر هذا هاميل فى محنة انهيار مركزه المالى ، مناضلا ضد الدائنين ، حاصلا على تأجيلات وامهالات ، منظما على أحسن وجه عمليات البيع وسداد الديون . فلما أصيب ابن هاميل الأصغر - بدوره ! - بنفس الضربة ، كان أخوه الأكبر قد تخلص من متاعبه وخرج من ورطته ، الا أن الأب كان قد بدأ يحس بالعجز وبرودة السنين

وقد فرضت عليه شهرة باستار أن يضعه فى المكان التالى له . وكان هذا الشاب - فهكذا كان يحلو للمحامى الشيخ أن يدعوه رغم سنيه الخمس والأربعين - لايكف عن مضايقته بنوع من القحة فى المناقشة ، وبنظرته الى القضايامن زاوية أتعابها !. أما فى ساحة المحكمة ، فقد كان مرهوبا كجيش مسلح ! .. **كان ساخرا لاذعا ، مستهزئا أو مثيرا ، يكيف صوته كما يفعل أى مغن قوى الحنجرة ، وحركاته كأى ممثل بارع ، ومن ثم أهله كل ذلك لأن يقوم بالدور الأول فى الجلسات ! .. وبذقنه المرسلة ، وقسمات وجهه الدقيقة ، وصلعته اللامعة - كاللافتات البراقة ! - واهتزازاته وارتعاشاته ، كان يسيطر على الجلسة كلها ، ثم ينتهى به الأمر الى أن يطوى المحلفين والقضاة والخصوم فى ثنايا ردائه الذى كان ينشره كالعلم !** .. هذا التفوق الذى لا يمكن انكاره ، والذى كان يتمتع به باستار فى محاكم الجنايات ، كان من الواجب أن يوضع موضع الاعتبار . وعلى هذا ، وبالرغم من أن هاميل كان « خادم الحقيقة المطيع » ، الذى يكره بهرج الفصاحة وزخرف المظاهر ، الا أنه آثر أن يطرح مبادئه الخاصة جانبا فى هذه القضية ، حتى يزيد بذلك من الضمانات التى تكفل تبرئة ابن صديقه

ومع أن روكفيار لم يكن من المعجبين بباستار ، وكان كثيرا ما يتصدى له فى الجلسات - فى غير هوادة - ليكشف عن تمثيلياته وألاعيبه بأسلوب سهل يتمثل فى الاتجاه مباشرة الى

الهدف ، بسرعة الفرسان ، الا أن ذلك لم يمنع باستار من أن يخف الى معاونته معاونة تفرضها الزمالة ، وسارع الى قبول الدفاع عن موريس بحماسة واصرار !

* * *

• **وبعد** تبادل المجاملات ، لخص النقيب الموقف فى بضع كلمات :

ـ انك تعلم يا صديقى العزيز أنى رجوت زميلنا باستار أن يخف الى معاونتنا ، بعد أن بلغت من الشيخوخة حدا لاأستطيع معه استثارة العواطف ٠ وعلى هذا فسوف يترافع هو ، على أن أتولى أنا مساعدته ٠ وقد درسنا ملف القضية معا ، ورأينا ابنك فى السجن ، الا أن ثمة صعوبة تصادفنا

فقال الوالد فى لهفة : « وما هى ؟ »

ـ ان باستار يستطيع أن يوضحها لك أفضل منى

فهز هذا رأسه « الجميل » ! ولما كان يعلم أنه لا فائدة من اللجوء الى العبارات الضخمة فى هذا المكتب ، فقد قنع بعرض واضح مختصر : « نعم ، لقد درست ملف القضية ٠ **ان الدليل المادى على اساءة استعمال الثقة ثابت من أقوال الموثق ومحضر رئيس البوليس ٠ أما أنا فلا أجد أدلة ضد ابنك ، وان كانت هناك قرائن خطيرة : فقد كان يعلم بايداع المبلغ ، وكان آخر من ظل فى المكتب بعد أن حصل على المفاتيح ، وأمكنه أن يكتشف سر الخزانة الحديدية من مفكرة رئيس الكتاب التى كان الرقم مقيدا فيها ، ولم تكن له موارد خاصة كبيرة ، وكان يريد اختطاف زوجة رئيسه** ٠ كل هذه الوقائع جعلوا منها مادة لاقامة الدعوى ٠ يضاف الى ذلك : السفر الى الخارج ، والتزام الصمت ، والعودة المتأخرة ٠ ثم ان أقوال المدعو فيليبو ـ خاصة ـ مملوءة بالمرارة والحقد ! ولابد أن تكون الغيرة قد ملأت قلب هذا الشاب من زميله الذى كان مفضلا عليه ٠ ويخامرنى الشك فى

أنه كان يحب مدام فرازن حبا يائسا • فقد كانت امرأة لا تقاوم ! حقيقة انها نحيلة ، ولكنها ذات عينين جميلتين ! ان هذا النوع من النساء لا يستهوينى ! »

ولما كانت نفس باستار قد صيغت من معدن رخيص ، فانه لم يشعر بأن ملاحظته هذه كانت فى غير محلها ، وبأن وجود والد المتهم كان يفرض عليه أن يكون أكثر تحفظا ! •• وبعد أن توقف برهة استأنف كلامه : « لا يكفى موريس أن يعلن أنه برىء ، فما دامت السرقة قد وقعت ، فان المحلفين سيبحثون عن مذنب ، ومن واجبنا أن نكشف لهم عنه • وقد لاحظت دائما أن الاتهام أقوى أثرا من الدفاع •• فهو يحول الاهتمام عن مكانه ليركزه فى مكان آخر • وأنا أستخدم هذا الأسلوب بنجاح دائما • أما فى الحالة التي نحن بصددها ، فان المتهم معين كل التعيين ! » ••

وتناول مجموعة المواد القانونية وراح يقلب صفحاتها ، بينما كان مستمعاه يصغيان اليه دون أن يقاطعاه : اعلما أن مدام فرازن لا تتعرض لأى خطر •• فان المادة ٣٨٠ تحميها : « الاختلاسات التى يرتكبها الأزواج بقصد الاضرار بزوجاتهم ، والزوجات بقصد الاضرار بأزواجهن •• لا يمكن أن تكون محلا الا لتعويضات مدنية »

فعقب الأستاذ هاميل قائلا : « اننا نعرف ذلك ! »

– ان أفراد الأسرة الواحدة لا يسرقون بعضهم البعض ومن ثم ليس فى اماطة اللثام عن مدام فرازن ما يعرضها للعقاب • بل هناك ما هو أفضل ! ان احساسى لا يخدعنى قط ! لقد حصلت على عقد زواج فرازن ، اذ فكرت فى اننى لابد أن أعثر فيه على شىء • وقد حصلت على نسخة من العقد بواسطة احد وكلائى فى (جرينوبل) ، فوجدت فيه الدليل على أن مدام فرازن ، بأخذها مائة ألف فرنك من الخزانة الحديدية الخاصة بزوجها ، انما ظنت أنها تستوفى حقا لها !

وفى هذه المرة ، تكلم روكفيار فقال : « اننى لا أفهم ! » ••

فقال باستار : « سوف تفهم ٠٠ فان الأمر من الوضوح بحيث يخطف الأبصار ! فلقد قرر فرازن لزوجته فى العقد ، منحة قدرها مائة ألف فرنك » ٠٠ فتساءل روكفيار : « فى حالة بقائها على قيد الحياة من بعده ؟ »

ـ لا ، بل فورا ! ولكن كان من الطبيعى النص على الغائها فى حالة الطلاق ٠٠ فان النظام الذى تم الزواج فى ظله هو نظام انفصال الممتلكات ٠ ولما كانت مدام فرازن تجهل القانون ، فقد افترضت أنها تملك هذا المبلغ ، وأنها بتركها منزل الزوجية يصبح لها الحق فى أن تأخذه معها ٠ انه تعليل سخيف ، ولكن لا عجب فهو تعليل امرأة ! ٠٠ ومن هنا أفهم السبب الذى من أجله حرص السارق على أن لا يسحب غير مائة ألف فرنك ، من مبلغ المائة والعشرين ألف فرنك ، الذى كان بالمظروف ٠ ان هذا ليس سرقة ، وانما هو استيفاء حق ٠٠ وقد ظنت مدام فرازن أنها تباشر حقا لها !

فقال روكفيار ، مبديا اهتمامه بهذه الحجة الدامغة : « نعم ، ان العقد يفسر كل شىء ! » ٠٠ فبدأ باستار يتقد حماسة ، ويحرك ذراعيه الكبيرتين ، قائلا : « ان هذا معناه البراءة المؤكدة التى لا جدال فيها ٠ فأى محلف يستطيع أن يصمد أمام دليل كهذا ؟ اننى لم أحصل الا فى النادر على أمثال هذه الأدلة القاطعة ، أمام محاكم الجنايات ! »

فغمزه النقيب قائلا : « انك لا تدافع دائما عن أبرياء ! »

ـ أبرياء أو مذنبون ٠٠ ان الذى يهم هو الدليل ، والدليل هنا فى أيدينا !

أما والد المتهم ، الذى كان يريد رد اعتبار ابنه كاملا ، فقد قال عندئذ : « ان العثور على العقد هو فى الواقع عنصر هام لصالح الدفاع ، وستعرف يا باستار كيف تستخدمه ـ بفصاحتك ! ـ أحسن استخدام ، وبهذا يمكننا احراز النجاح النهائى ٠ **ولكن ثمة نقطة أخف عليك بالرجاء فى أن تعالجها**

أثناء مرافعتك ٠٠ فان موريس لم يسافر وهو خالى الوفاض مع مدام فرازن ، اذ حمل معه أكثر من خمسة آلاف فرنك ، اقترض الجزء الأكبر منها ، من شقيقتيه وعم أبيه اتيين وزوجة عمه مدام كاميل روكفيار ، الذين سيشهدون بذلك اذا اقتضى الأمر ٠
وفى مدينة (أورتا) التى أوى اليها ، تلقى شيكا بمبلغ ثمانية آلاف فرنك ، من شركة شامبيرى للتسليف ، التى يمكنها أن تقدم الكعب ٠ وهذه البيانات ضرورية من وجهة نظر مزدوجة : فأولا ، هى ترد مقدما على اتهام جديد قد يلجأ اليه المدعى بالحق المدنى ، تاركا المادة ٤٨٠ التى تنص على اساءة استعمال الثقة ، ليتذرع فى هذا الاتهام بالمادة ٣٨٠ مكررة : « بالنسبة لجميع الأشخاص الآخرين الذين يكونون قد أخفوا أو استخدموا لمنفعتهم الأشياء المسروقة أو جزءا منها ، فان هؤلاء يعاقبون كمتهمين بالسرقة » ٠٠ ومن ثم يجب أن لا يكون هناك أى مجال للبس ٠ وحتى اذا لم تكن هذه المادة موجودة ، فاننى ما زلت أحرص حرصا أكيدا على حماية شرف ابنى من تبعة الاشتراك فى حياة لا يتحمل هو نفقاتها ! »

فأمن الأستاذ هاميل على ذلك بقوله : «حسنا جدا» ٠ وردد باستار نفس العبارة ، ولكن بلهجة مغايرة ٠ أما روكفيار ، الذى كان النضال قد ألهب وجهه باشراقة الأمل فى الخروج من هذه المحنة ، فقد لخص الموقف فى كلمتين : « الآن ، نحن مسلحون ، والنصر أكيد » ٠٠ فنظر اليه النقيب بعينين حزينتين كستهما الشيخوخة بزرقة باهتة ، وقال : « هل تراك نسيت يا صديقى الصعوبة التى حدثتك عنها فى بداية مقابلتنا ؟!» ٠٠ فعادت الكآبة الى وجه روكفيار ، وقال : « أية صعوبة ؟ »

وهنا عاد باستار يحتل مكان الصدارة الذى لم يكن ليتخلى عنه مختارا ، اذ قال : « هاك هى : ان خطتنا المحكمة ، التى لا يحتمل نجاحها أى شك فى رأيى ، قد تفشل بسبب عناد ابنك ! » ٠٠ فهتف الأب : « عناد ابنى ؟ »

ـ تماما ! فقد أوضحنا له فى السجن قبل مجيئنا ما انتوينا فعله لانقاذه ٠٠ أفتعرف بماذا أجابنا ؟

ـ آه ! أخشى أن أكون قد استنتجت جوابه !

ـ انه يعارض بشدة فى أن يذكر محاميه اسم مدام فرازن ، وهو يهدد بأنه سيلقى التهمة على نفسه فى الحال ، اذا حدث هذا

فغمغم روكفيار فى صوت منخفض : « هذا ما كنت أخشاه! »

ـ لقد حاولت عبثا أن أقنعه بأن هذه شهامة (فروسية) مضحكة ، وان ذلك الدفاع لا يشهر بأى انسان ، طالما أن مدام فرازن ليست معرضة لأية تبعات ، وما دام ان ما فعلته يعزى الى عدم خبرتها بهذه الأمور ، والى سوء تأويلها لعقد زواجها ٠ ومع ذلك ذهبت كل جهودى هباء ، اذ اصطدمت بعناد لا يقهر !

ـ وهل قدم لك أسبابا ؟

ـ سبب واحد : الشرف !

ـ انه سبب من بين الأسباب ؟ !

ـ لا ، انها مجرد عاطفة ! ولكن أمام القضاء ، يجب أن لاننظر الى أنفسنا من زاوية الشرف ، وانما من زاوية القانون !

أما النقيب ، الذى لم يحبذ هذه النظرية ، فقد عرض الأمر فى شكل آخر ، اذ قال : « ان شرف مدام فرازن هو الذى يعنيه بصفة خاصة ! ولكى يحافظ على شرفه هو يتعين عليه أن يقيم الدليل على أنه لم يسرق مبلغا من المال ، ولا انتفع من اختلاس وقع من شخص آخر ٠ ويمكنه اثبات الأمر الأول بتقديم عقد زواج مدام فرازن ، واثبات الأمر الثانى بالشهادة المحررة من البنك الدولى بميلان ، حيث أودعت أموال مدام فرازن ٠ ولكنه يرفض بشدة تقديم هذه الأدلة ! »

ـ وهل أحطته أنت علما بذلك ؟

ـ لقد أحطته علما به ، وبأنه يعرض نفسه لخطر جسيم اذا مثل أمام المحلفين وهو أعزل من السلاح !

ـ وبماذا أجابك ؟

ـ بأنه لن يدع قط مدام فرازن تتهم بأى شيء كان ، وبأنه يحظر على المدافع عنه أن يلفظ ولو مجرد اسم هذه المرأة ! وقد ألفيناه مصرا على ذلك اصرارا لا يلين ! ٠٠ وحين اعترض عليه باستار بقوله : « اذن فقل لنا كيف تريدنا أن نضطلع بمهمة الدفاع عنك ؟ » ، أجاب فى أنفة : « كيف يمكن لانسان أن يتصور أننى مذنب ؟ فلينظروا من أية أسرة أنحدر ، ومن أنا ٠٠ ويجب أن يكون فى هذا الكفاية ! »

واستطرد باستار يقول ، وهو يربت ذقنه الجميلة فى رضى : « أى ابن هذا ؟ ان شرف الاسرة حجة قوية من غير شك ، وفى نيتى أن أستفيد منها فى المحكمة ، ولكنها على أية حال حجة ثانوية ٠٠ فهى لا تمس صميم الموضوع ، ولا يستطيع الانسان أن يتذرع بأقربائه فى المرافعة ٠٠ والا فلماذا لا يستشهد بالأموات ؟ ! » ٠ فأجاب الأستاذ هاميل بشيء من الخشوع: « لو طلبنا شهادة الأموات لشهدوا لنا ! »

ـ يجب أن لاننسى أن هناك متهما ٠ وسيبحث عنه المحلفون فاذا لم يكن هذا المتهم هو العشيق فسيكون العشيقة ٠٠ واذا لم يكن العشيقة فسيكون العشيق ! وفى يدنا الدليل على اتهام العشيقة ، فكيف نأبى أن نقدمه ؟ ان هذا ضرب من الجنون ! **لقد حذرت ابنك يا زميلى العزيز من أننى لا أستطيع قبول مهمة الدفاع عنه فى هذه الظروف ، وهأنذا أكرر لك الآن هذا القول ٠** انك تعلم جيدا مبلغ حماستى للاضطلاع بهذه المهمة ، وبأية عناية سأتوفر على تأديتها ٠ فاذا شلت حركتى ، فماذا عساى أستطيع فعله ؟ انك ترانى شديد التأثر من هذا القرار الذى اتخذته ، ولكن من المستحيل على أن أتقدم الى المحكمة وأنا مكتوف اليدين هكذا !

فمد الوالد التعس يده اليه وهو يقول : « اننى أفقد معاونة ثمينة ، وقد تكون فيها نجاة ابنى ٠ الا أن الدفاع يجب أن لا يعوقه أى عائق فى سبيل تأدية واجبه ! » ٠٠ وبالرغم من

أنه لم تكن ثمة مودة متبادلة بين المحاميين ، الا أنهما كانا متساويين فى درجة التأثر ٠٠ فليس عبثا أن يشترك اثنان فى مهنة واحدة ، وفى معارك واحدة ، وينشغل عقلاهما بمشاكل واحدة !

وقال الأستاذ باستار وهو يهم بالنهوض : « فلتذهب أنت لرؤيته ، وقد توفق فى الحصول منه على ما لم نحصل نحن عليه ! » ، ولكن الأب قال : « لا ٠٠ لا أعتقد ذلك ! » ٠ ولم يستمع المحامى لرأيه ، بل مضى يتم حديثه : « فاذا أفلحت فى اقناعه ، وجدتنى رهن تصرفك ، ويمكنك أن تعتمد على مجهودى الخاص ٠ لقد قاربت الساعة العاشرة ، فاعذرنى ، لأن عندى موعدا خاصا ببعض الأعمال »

فاقتاده روكفيار الى الباب ، وشكره على عتبته قائلا : « لقد اختلفنا يا زميلى فى بعض الأحيان ، ولكننى لن أنسى قط أنك لم تضن على باخلاصك وكفاءتك فى أحرج ظروف حياتى ! » ٠٠ فأجاب المحامى الكبير ـ الذى دهش لحب نفسه للخير : « لا ، لا ٠٠فقد ظننت أننى سأوفق أكثر من قبل ٠ انها قضية مثيرة ! فلتقنع ابنك ، وعندئذ أعود ! »

وعندما عاد روكفيار الى مكتبه ، وجد الأستاذ هاميل قد اقترب من المدفأة وأخذ يحرك النار وهو شارد الذهن ، فجلس أمامه ٠ وظل الاثنان وقتا طويلا يفكران فى صمت ٠ وأخيرا قال النقيب متابعا استطراداته السابقة : « ان صوتى لم يكن مجلجلا فى يوم من الأيام ، وقد حطمته السنون ٠٠ ولم أكن أعنى فى مرافعاتى بغير اظهار الوقائع ، دون استثارة العواطف ، ومع ذلك فسأكون هناك ، وسأقول بضع كلمات عن أسرة المتهم ، وعن المتهم نفسه ٠ ولكن يجب ان يكون هناك محام أصلى ، اذ ليس فى مقدورى سوى مساعدتك فقط ياصديقى ! »

ولم يذكر رأيه فى مسلك موريس ٠٠ ومن المحتمل انه لم يجد له تفسيرا ٠ **فقد كان يطوى نفسه على حذر ـ يقرب من**

الاحتقار ـ من المرأة ٠٠ حذر كثيرا ما نلتقى به فى ختام حياة متقشفة منظمة ! ٠٠ ان شرف امرأة كمدام فرازن لم يكن يساوى فى رأيه كل هذه الرعاية ٠ وقد روى عنه هذا الحادث البالغ الحساسية : فى ذات يوم ، حيا امرأة ذات سمعة سيئة ، فاستغلت المرأة تحيته وراحت تزهو بها ، اذ كان رجلا مشهورا بالوقار ٠ وعرف هو ذلك ، فاذا به يكف منذ ذلك الحين عن تحية كائن من كان فى شوارع المدينة !

وفى صوت مرتفع ، تساءل روكفيار ـ الذى كان أقدر من غيره على فهم ابنه : « ترى هل سيوفق المحلفون الى استنتاج ما ينطوى عليه صمت موريس من النبل والشهامة ؟ ان هذا قليل الاحتمال ! » ٠٠ فأجاب هاميل مؤكدا فى وضوح : « ان هذا مستحيل ٠ ان ابنك يلقى بنفسه الى التهلكة ، فى الوقت الذى لا تدعو الحاجة الى انقاذ هذه المرأة ٠ ولكن ، أليس من حقنا ان ندافع عنه بالرغم منه ؟! »

ـ وكيف يكون ذلك ؟

ـ انك تعرف ، كما أعرف أنا ، ان الدفاع اجبارى فى محاكم الجنايات ٠ فاذا لم يحضر عن المتهم محام موكل منه ، كان على المحكمة ان تعين له محاميا يختاره الرئيس ٠ فاذا عين الاستاذ باستار من المحكمة ـ ويكفى آن أشير على الرئيس بتعيينه بصفتى نقيبا ـ فانه سيصبح مطلق الحرية فى الدفاع ، ولو انه يكون معرضا لخطر الرد من موريس فى هذه الحالة !

ـ ولكن هذا الرد ان حدث ، فسيؤثر فى المحلفين تأثيرا سيئا !

ـ اننى لا أرى سبيلا آخر ، الا اذا ٠٠

وسكت الشيخ الوقور ، ولم تفلح استفسارات روكفيار العديدة فى اخراجه من صمته ٠ وما لبث هذا الاخير ان تمتم : « انها قضية خاسرة ! » ٠٠ وعندئذ نهض هاميل قائلا : « **انك تؤمن بالله مثلى ياصديقى ٠٠ فأضرع اليه يلهمك سواء السبيل !**

ان ابنك برىء ، ويجب ان يحكم ببراءته · ان غلطته الحقيقية لا تتصل بالعدالة الانسانية ·· فهى لا تضر أحدا سواه ·· وسوى أسرته مع الأسف ! »

وتأهب للرحيل متجها الى الباب ، ثم تراجع الى الخلف وفتح ذراعيه لزميله فجأة · وأفصحت هذه الحركة الفريدة عن عمق الحنان الذى كان مختفيا تحت الصرامة ، منذ عدد كبير من السنين ·· كانت حركة مدهشة ، عذبة مثل التعبير الذى يرتسم نضيرا ، طاهرا ، على وجه امرأة عجوز ، أو مثل تلك الورود التى تستمر فى النمو حتى عندما تغطيها الثلوج ! ·· وتعانق الرجلان عناقا مؤثرا ، ثم قال روكفيار لصديقه : « لست أنت بالذى يمكن ان يتخلى عنا · شكرا لك ! » ·· فرد الشيخ : « اننى مازلت أذكر أفضالك ! » ·· ووضع على كتفيه معطفه الذى كان كماه الفارغان يتأرجحان ، ثم خرج الى الردهة بخطى مسرعة ، بحيث وجد مضيفه صعوبة فى مرافقته حتى الباب الخارجى

* * *

◆ **وعندما** ألفى روكفيار نفسه وحيدا ، جلس الى المنضدة - التى طالما حلت عليها مشكلات مالية وأدبية - ووضع رأسه بين يديه ، ثم راح يبحث عن طريقة ينقذ بها ابنه الذى يكون فقدانه فقدانا للسلالة كلها ! ·· **ولما كان أقل صلابة واكثر ترفقا وقدرة على فهم الحياة والناس من الأستاذ هاميل - المنطوى على مبادئه المتزمتة ، كما لو كان يعيش فى برج ! - فقد عرف فى تشبث المتهم بموقفه ، ذلك العناد وعدم التخلى عن المسئولية اللذين خلقا وشدا من أزر أسرة روكفيار جيلا بعد جيل ! ·· ولكن ابنه يستخدم تلك الصفات نفسها لتحطيم قوة الأسرة : فلكى يقيم صرح سعادته الخاصة ، عرض للانهيار والتقوض ماضى أسرته ومستقبلها ·· هذه الأسرة التى حافظ على صفاتها المميزة ، حتى فى الخطأ الذى ارتكبه ! ··** ولما كان

الأب يجد في ابنه انسانا مجردا من الجبن والحقارة ، فقد فكر في أنه اذا قدر لابنه ان يحتل مكانه يوما ما في الأسرة والمجتمع ، فانه لن يدع تقاليد الأسرة تضعف ، وسيوجه امكانياتهـــا ومقدراتها ـ التي أساء استعمالها ـ الى هدفهـا الطبيعي ! ٠٠ ومن ثم يجب انتزاعه سليما من هذه النزوة ـ التي يأبى التخلص منها ـ مهما يكن الثمن ، « الا اذا ٠٠٠ » ، وأعـاد روكفيـــار التفكير في عبارة النقيب الغامضة التي صدمتـــه ٠٠ ترى ماذا يعني هذا الاستدراك ؟

ورفع جبهته ، واستند بظهره على المقعد ، ثم نظر أمامه ٠ وتوقفت عيناه على خريطة المزرعة التي كانت معلقة على الحائط ـ وقد ظهرت غير واضحة لبعدها عن دائرة الضوء المنبعث من المصباح ـ فاستعاد معالم هذه الأرض كما يستعيد ذكرى أحد أجداده أو ذكرى مستشار ناصح ٠ وفي الوقت نفسه استعاد حجج باستار المنطقية المفزعة : « ان هناك سرقة وقعت ٠ واذن فهناك مذنب ٠ فمن منهما ؟ اذا لم يكن هو ، فتكون هي ٠ وهو لا يريد ان تكون هي ٠ اذن فهو السارق ! » ٠٠ بماذا يرد على هذا التعليل البسيط بساطة عقول المحلفين الساذجة ؟٠٠ وفجـأة ، وبينما كان يحـــدق في خطوط الخريطة المضـطربة ، وثب الى ذهنه خاطر كأنه البرق في جنح الليل : « **اذا ألغينا وجود السرقة فلن يكون هناك متهم ، وسيرغم المحلفون على الحكم بالبراءة ٠ ولـكن كيف نلغي وجود السرقة ؟ !** »

وردت عليه « المزرعة » !

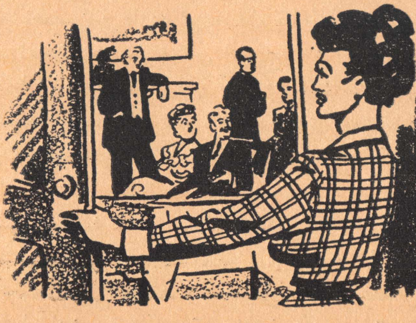
وبعد لحظات ، طرقت مرجريت الباب برفق ، فقال : « ادخلي ٠ انني بمفردي » ، فسألته بعد ان دخلت : « والآن ، ماذا قررت يا أبي ؟ » ٠٠ فشرح لها المأزق الجديد ، الخطير ، الذي وضعهم فيه موريس بعناده ، والذي يعرضه للادانة ، وقال : « لقــد تخلى عنا الأستاذ باستار : انه يرفض الاضطلاع بمهمـــة الدفاع ! » ٠٠ فتساءلت مرجريت في جزع : « ومن سـيدافع

عنه اذن ؟ وعلى اى وجه سيكون الدفاع ؟ » .. فأجـاب : « لا تنزعجى يا صغيرتى .. فقد تكون لدى وسيلة ! » .. فتساءلت : « وما هى ؟ »

ـ سأخبرك بها فيما بعد ، فدعينى أعمل التفكير فيها .. انها تقتضينا تضحية كبرى !

فلمعت عينا الفتاة بلهيب حاد ، انعكست عليه روحها الطاهرة الكريمة ، وقالت : «فلتسارع بها يا أبت ! » .. فتمتم الأب فى كبرياء : « يا ابنتى العزيزة ! » .. وابتسمت الفتاة لأبيها ابتسامة واهنة ، كتلك التى ترتسم على وجوه الذين يعيشون فى شقاء وقتا طويلا ، ثم قالت : « **لقد كنت أعتقد دائما يا أبى انك أنت الذى ستدافع عنه !** »

٢ ـ مجلس الاسرة



◆ **وقفت** مرجريت عند مدخل غرفة المكتب ، بعد ان تبينت وجود عدة أفراد بداخلها ، وقالت : « هل تروننى متطفلة على مجلسكم ؟ » . فأجاب أبوها : « لقد كنت أوشك أن أدعوك ، اذ يجب ان تكونى بيننا » . وهنا صاح كهل أعجف ، أحكم ازرار

سترته ، واتكأ على حافة المدفأة حيث كانت النار تتأجج : « ان النساء لم يكن يستشرن فى أيامنا ! » • واذا بسيدة على شىء من البدانة ، ناهزت سن النضوج ، وارتدت ثيابا سوداء ، تجيب ـ من المقعد الذى غاصت فيه ـ بحدة وعنف : « ومع ذلك ، فان الذى عرض البيت للخطر لم يكن من النســـاء ! » •• على ان النقاشى لم يتجاوز تقرير مبدأ ، اذ مالبث الاثنان ان كفا عنه ، ليرحبا بالفتاة فى حفاوة وبشر • وحيتهم مرجريت تبعـــا لترتيبهم : **اتيين روكفيار ، عم أبيها الذى كان أكبر ســنا من السيد هاميل ـ اذ كان يقترب من الثمانين ، وان لم يحن عبء هذه السنين ظهره ـ ثم زوجة عمها ، السيدة كاميل روكفيار ، وابنها ليون ـ وكان من رجال الصناعة فى (بونتشـــارا) بمقاطعة (دوفينيه) ـ وأخيرا ، شارل مارسيلاز ، الذى كان قد وصل فى ذلك الصباح •**

وكانت السماء ـ فى الخارج ـ مكفهرة ، مثقلة بالغيوم ، تبدو منحدرة نحو الحصن وكأنها تريد أن تنقض عليــه فتسحقه ، بل كادت لفرط انحدارها ان تمس البرج ! •• وبدت غصـــــون الأشجار العارية من الأوراق كأذرع ممتدة تضرع للسحب • ولم يكن يحتفظ بطابع الربيع الدائم سوى قمة برج المحفوظات • وبالرغم من نوافذ حجرة المكتب الأربع ، فقد خيمت عليها كآبة ذاك اليوم المقبضة ، فاذا خزانات الكتب ، واللوحات ، والمنظر الطبيعى الذى رسمه « هوجار » ، تلقى على المكان طابعا حزينا •• بينما صفت آخر أعداد المجلة القانونية على نضد صغير ، اذ لم تكن قد جمعت فى مجلد واحد على نمط أعداد الســـنوات السالفة • أما المنضدة الكبيرة ، المتخمة بملفات ـ كان أحـدها مفتوحا ، وقد كشف عن مستندات قانونية وعقـود مدنية ـ فكانت تنم عن عمل دائب لم تعرقله أقسى الهموم •• بينمـــا وضعت أمام صورة مدام فالنتين روكفيار ـ أم مرجريت ـ باقة من زهر البنفسج اليانع ، تدل على أن يدا نسوية تتعهدها بالعناية

فى كل يوم

ورجا المحامى ضيوفه ان يجلسوا ٠ وكان مطــرقا برأسه ، وقد بدت عليه أمارات التفكير ٠ لكم اكتهل خلال عام واحد ، فشاب الشعر الذى كان يتوج رأسه وشعر شاربيه القصير الحاد، وأحاط بفمه خطان غائران ، كما تخلل مقدم عنقه الناحل خط متغضن ظاهر ، وكان تهدل وجنتيه واسمرار بشرتهما يكمل هذه المجموعة من امارات التداعى ، التى لم تكن مرجريت تشهدها دون ان ينقبض فؤادها ٠٠ **فما أشد اختلاف هذا الرجل الغارق فى افكاره وهو يجلس الى تلك المنضــدة ، من ذاك الذى كان واقفا على التل ـ فى موسم الحصاد من العــام الماضى ـ وقد انتصبت قامته المتينة البنيان نحو السماء فى جلال !**

وكانت دعوته اياهم الى الجلوس هى الاشارة الوحيــدة التى نمت عن انه كان يفطن الى وجودهم ٠ ومن خلال أهداب عينيه العميقتى الغور ، انبعثت تلك النظرة المهيبة التى يتعذر الصمود لها ، والتى استقرت على الوجوه وكأنها تتغلغل فيما وراءها ! وأكد بمسلكه هذا ـ قبل ان يتكلم ـ انه الزعيم ، وان المحــن لن تجد طريقها سهلة للنيل من قوة نفسه وعزتها ٠ وتكلم أخيرا قائلا : « لقد دعوتكم لأن الأسرة تتعرض لخطر ٠ ونحن جميعا نحمل اسما واحدا ، ما عدا شارل مارسيلاز ، الذى يتخذ منزلة الابن لأنه يمثل جيرمين ابنتى ٠ ومع ان فيليسى وهوبير أبعد من أن يستشارا ، الا ان حياتهما حافلة بانكار الذات والتضحية الى درجة لا تستدعى وجودهما ٠٠ وانى لأعلم مدى زهدهما فى الحياة ! » ٠٠ وهنا سألته مدام كاميل روكفيار : « ألديك انباء سارة من الكابتن ؟ » ٠٠ كان الزى العسكرى لابن أخى زوجها يستهويها دائما ، كما انها لم تكن تقوى على أن تفكر فى أكثر من شخص فى آن واحــــد ، لذلك نسيت كل شىء حين ذكر الضــابط !٠٠ وكانت مرجريت هى التى تولت الاجابة قائلة : « لم تصلنا منه انباء منذ أمد ليس بالقصــير ، ولم تكن آخر

انباء ـ قبل ذلك ـ طيبة ، اذ انه كان مصابا بالحمى »
وعاد السيد روكفيار الى حديثه قائلا : « لسوف تبدأ محكمة الجنايات جلساتها فى ٦ ديسمبر ، أى بعد ثلاثة أسـابيع ، وسيقدم اليها موريس فى نهاية الدورة » .. فقال ليون ـ الذى كان فخورا بأنه يدير مصنعا كبيرا وهو لم يتجاوز الثـامنة والعشرين من عمره ، ومن ثم كان يحاول الظهور بمظهر رجل الأعمال الواقعى ، الذى لا يعبأ من الأمور الا بنتائجها : « انها مجرد اجراءات رسمية ، اذ ان البراءة أكيـدة ! » . واذا بكلمة « لا » تنطلق حاسمة من فم المحامى فتغلق فم الشاب . وارتجفت مرجريت ، بينما تبادل الرجال نظرات الدهشـة والقلق ، ثم توالت اسئلتهـم : « كيف لا ؟ » ، و « مادام غير مذنب » ، و «مادامت السيدة فرازن هى المذنبة» . وكان شارل مارسيلاز آخر من تكلم ، وهو الذى ذكر اسم غريمة الأسرة ، فهتفت الأرملة ـ مدام كاميل ـ وهى ترفع عينيها الى السقف : « يالهـا من تعسة ! » .. قالتها وهى تشفق على سـمع مرجريت من ان يخدشه ذكر اسم المرأة . فقد كانت تقسم النساء ـ ببساطة ـ الى فريقين : شريفات ، وساقطات . ومع انها كانت ترعى ملجأ للأطفال ، فانها لم تحاول ـ وهى تحدد هذا التقسيم ـ ان تبحث عن أصل أولئك الذين كانت ترعاهم ! وفى مهب تيارات الفكر المتحررة فى هذا العصر ، ظل أفقها فقط ـ دون حبهـا للخير ودون اخلاصها ـ محدودا !

واستأنف رب الأسرة حديثـه قائلا : « **ان البراءة ليست أكيدة ، بسبب قيود يفرضها ابنى على الدفاع . ولقد زرته مرارا فى السجن ، ولكنه لم يتزحزح قط ، فهو لا يوافق على أن نتولى الدفاع عنـه ، اذا لم نتجنب ذكر اسم مدام فرازن !** » .. وثار رجل الصناعة ، ورجل القانون ـ شارل مارسيلاز ـ فصاحا معا : « هذا مستحيل . انه معتوه ! » .. وتوالت التعليقات : « هذه خيانة ! » .. « ما ينبغى الاصغاء اليه ! » .. « فليكن ،

دعوه وتخلوا عنه ! » . وكان ابن العم « ليون » ـ رجل الصناعة ـ هو الذي عاد فنصح بهذا الرأى الأخير المنطوى على نذالة . فرمقه المحامي بنظرة امتزج فيها الغضب والازدراء ثم انقلبا فورا الى ألم مرير . كانت الأسرة فى حل من الأمر ، ما دام أحد اعضائها قد نقض تضامنها . على أن أكبر أفرادها سنا ـ العم اتيين ـ قال بلطف ، فى غمرة الصمت الذى ران على المكان : « أما انا فأرى ان موريس على صواب » . وعلى أثر هذه الملاحظة غير المرتقبة ، استأنف الأستاذ روكفيار عرضه للأمر قائلا : « هذه المروءة من موريس قد يقدرها محلفون من أبناء الطبقة الوسطى فى المدن ، ولكن المحلفين من الفلاحين الساذجين لا يفهمونها . وهم لا يحفلون فى المداولة بغير نقطة واحدة ، هى : احتفاء مبلغ مائة ألف فرنك .. وهو رقم يذهلهم !.. انهم أكثر اهتماما بالاعتداءات التى تمس الممتلكات ، منهم بتلك التى تمس الأشخاص . ولسوف يتجه فكرهم على هذا النمط : « لم يكن فى وسع أحد ـ غير الشاب أو المرأة ـ سرقة هذا المبلغ ، فاذا كانت « هى » السارقة ، فليقل لنا حتى نبرىء ساحته . أما اذا تركنا للتخمين فسنحكم عليه من جديد .. واذا لم يجرؤ على اتهامها ، فهو اذن السارق » .. ذلك لأنه ليس لدى هؤلاء فكرة أخرى عن الشرف ! »

وهنا ردد ليون : « الشرف ! الشرف ! » .. كان ما خصه به المحامي من ازدراء واضح قد أثاره . وكان يرى وجوب تفادى أى حكم يشين الشرف ، قبل كل شىء .. ومن ثم أردف قائلا : « لست أرى ان المسألة مسألة شرف ، وانما هى مسألة قانون ! »

.. ورمقه أكبر آل روكفيار سنا ـ بدوره ـ فى ترفع ، وتمتم بصوت انبعث كالصفير لخلو فمه من الأسنان : « انني أرثى لك ! » .. فصاح رجل الصناعة ، فى غير توقير للسن : « ولماذا ؟ » . فأجاب الشيخ : « لسبب واضح ، هو انك لم تعد تفهم شيئا مما تعنيه بعض الكلمات ! » .. فهتف الشاب :

« تماما ٠٠ انها كلمات ٠٠ مجرد كلمات جوفاء تلك التى تستخدمونها ! » ٠٠ وهنا ، اراد شارل مارسيلاز ان يوفق بينهم ، فأدلى بهذا الايضاح القانونى : « ان مدام فرازن مذنبة ، ولكن جريمتها لا تقع تحت طائلة القانون ، لأن السرقة التى تقترفها امرأة للاضرار بزوجها لا عقاب عليها ٠ ومن ثم فان موريس لا يدفع بها الى اى خطر حين يشى بها ، ولكنه يقرر الحقيقة ! » ٠٠ ولكن العم اتيين ـ الذى كان شبابه البعيد عاصفا ـ قال وكأنما قوله فصل الخطاب : « **ان الانسان لا يفضح امرأة كان عشيقا لها لأى عذر من الاعذار ! انني أدرك ابنك يا فرانسوا !** » ٠٠ أما الارملة التى كانت منذ بداية الاجتماع تلوم ـ بصوت خافت ـ ابنها الذى أخذ عنها ذكاءها الرخيص دون طيبتها ، فقد رأت ان تناصره ضد ذاك الشيخ الذى كان يبشر بمبدأ خلقى غريب ، فقالت : « أو تريدنا على أن نحترم هذه المخلوقات ؟ »

وحسم زعيم الأسرة النقاش غير المجدى بحركة من يده ، قائلا : « دعونى أتم كلامى ، فاذا حانت اللحظة المناسبة فسوف أدعوكم للنقاش ٠ **ان موريس يعارض اى تشهير بمدام فرازن ، ولسنا بصدد تحرى الخطأ أو الصواب فى رأيه ما دام يتشبث به ، وما دمنا لا نملك شيئا ازاءه ٠ واذا نبذ الدفاع رغبته ، فانه سيتهم نفسه بدلا من ان يؤيد الدفاع ، مفضلا ان يتحمل عبء الجريمة !** وفى هذه الحال ، ما الذى سيحدث ؟ ٠٠ هذه هى المسألة ، ولا مسألة سواها ٠ ان المحلفين ـ ازاء واقعة السرقة المادية التى لم تواجه بانكار ، وفى تأثرهم بضياع مبلغ كبير كهذا ـ سيبحثون فيما أتوقع عن متهم ٠ فاذا ما كانوا مجردين من اى توجيه الى مدام فرازن فلابد ان يتحولوا ضد ابنى ٠ أما ان يعاملوه ـ أو لا يعاملوه ـ بمقتضى الظروف المخففة ، فهذه مسألة ثانوية محضة ! » ٠ وهنا أفلتت من مرجريت صيحة : « أواه ، يا ابت ! »

ـ ان الخطر جد جسيم ، فهل تقدرون مداه ؟ على أننى فكرت فى أنه قد تكون ثمة وسيلة لتفاديه

فداخل الامل مرجريت ـ التى لم يكن أبوها قد انبأها قبل الاجتماع بما يعتزم عمله ـ وصاحت : « يجب استخدام هذه الوسيلة يا أبت ، مهما تكبدنا ! » ـ

ـ هاهى : **لقد لاحظت دائما فى قضايا سوء استغلال الثقة ـ أمام محكمة الجنايات ـ ان تسديد المبلغ يشفع للبراءة ٠ فان أهم ما يؤثر فى نفوس المحلفين هو ضياع النقود ٠ فاذا أبعدتم هذا العنصر ، لم يجدوا داعيا لادانة المتهم ٠ فلا عقاب ما دام لا ضرر هناك ٠٠ ولا مدان اذا لم يكن ثمة ضحية ! ٠٠** هذه الآراء مجتمعة تخامرهم فى العادة

واستخلص زوج ابنة روكفيار من حديثه النتيجة : « أتراك تبغى أن ترد الى الأستاذ فرازن المال الذى سرقته زوجته ؟ »

وأجاب روكفيار : « هو ذاك » ٠ فصاح ليون : « مائة ألف فرنك ! انه لمبلغ جسيم ! » ٠ وسارع شارل مارسيلاز يقول معترضا : « ولكن فى هذا اعترافا بذنب موريس ٠ فهو مذنب مادام يدفع ! » ٠ ولكن حماه قال : « **لا ، ان الضامن الذى يدفع بدلا من المدين الأصلى لا يعتبر فى وضع المدين ٠ ولسوف يبين موريس ـ على لسان محاميه للمحلفين ـ انه لايبغى اتهام أحد ، ولكنه يريد أن ينأى بنفسه عن الشبهات ٠ واذا تسلم السيد فرازن المبلغ ، لم تعد هناك سرقة ٠ أما ترك السيد فرازن يطالب بماله ، فمعناه الزج بابنى فى السجن !** » ٠٠ وهنا هز العم اتيين رأسه الشبيه برأس عصفور مجرد من الريش ، وهتف محبذا : « أحسنت يا فرانسوا » ، فدفع هذا التقدير الأرملة الى أن تبدى ودها ، ومن ثم قالت : « لست أفهم هذه الحيل والاجراءات ، ولكن الصيت الحسن خير من الغنى ! اننى معكم بكل قلبى يا فرانسوا » ٠٠ ولم يطمئن ابنها ـ وهو يصغى ـ الا الى كلمة « قلب » ، لأنها لم تكن تعنى أى التزام ٠ وتبادل

مع الموثق ـ شارل مارسيلاز ـ نظرة تحمل فى طياتها هــذا المعنى : « ان هؤلاء المسنين يترفعون على الثروة ، مع أنهـا هى وحدها التى تكسب الأسرات احتراما وتتيح لهـا الرفعة ! » ٠
أما مارسيلاز ، فقد تولته الحيرة ٠ وما لبث أن تساءل فى رفق: « وهـل تملك أن تدفـــع مائة ألف فرنك يا أبى ؟ » ٠ فأجاب السيد روكفيار فى شىء من الخشونة ، وقد بدأ الغضب يتولاه : « هذه مسألة أخرى سأعالجها فورا ٠٠ انما نبحث المبادىء أولا، ثم نعالج تطبيقها ! »
على أنه قلب ترتيب الحديث بنفسه ، اذ كان قد اتخذ قراره، فقال : « سأبيع مزرعة البرج اذا دعا الأمر ! » ٠٠ وكانت هذه أعظم تضحيـــة ، أدركت مرجريت مبلغ ما فيهـا من بطولة ، فشحب وجهها ٠ وتردد شارل موزعا بين الاحترام والمصلحة ، وبين الاعجاب والاستهجان ، وراح يبحث عن منفثلهذه المشاعر المتضاربة ٠ وما لبث أن قال مجادلا على أثر غمزة ســاخرة من عين ابن العم ليون : « تبيع المزرعة ؟! ان الوقت لا يتسع للبيع قبل ٦ ديسمبر ، والا بعتها بثمن بخس ٠ ان المزرعة تســاوى مائة وستين ألف فرنك عـلى أقل تقدير ، وبغير الغابات التى اشتريتها فى (سان كاسان) منذ أربع سنوات ! » ٠٠ ولاشك فى أن المحامى كان قد استعرض هذه المسألة أثناء البحث ، فقد كان متأهبا للاجابة ، وبادر قائلا : « هذا ميسور٠ وتبقى أمامنا وسيلة أخرى هى القرض الرهنى »
ـ أجل ، بفائدة قدرها خمسة فى المـائة ، أو أربعة ونصف ٠٠ خمسة فى المائة على الأرجح ، نظرا للحاجة الملحة التى لايفوت رجال الأعمال استغلالها ، لا سيما وأن الأرض لا تغل ســوى ريع لا يكاد يصل الى ثلاثة فى المائة ، كما أن سقوط الصقيــع أو الجليد قد يكفى لاتلاف المحصول ٠ ان لك من الخبرة يا أبى مالا يجعلك تجهل أن القرض الرهنى ـ بالنسبة للأرض ـ مرض عضـال ، قاتل ٠ ان العقارات الثابتة أصبحت اليوم خطرا عـلى

أولئك الذين لا يعيشون فى أراضيهم ويفلحونها بأنفسهم ، أو الذين لم يؤتوا ريعا طيبا يستطيعون بفضله مواجهة تقلبات الظروف والمنافسة . ان هذا يعرض المستقبل لنوائب لا سبيل الى اصلاحها . ثم ان المزرعة هى تراث الأسرة .. التراث المقدس الذى يجب أن لا يمس !

وتركه السيد روكفيار يتكلم ، حتى اذا عيل صبره ، قال بصوت مرتفع : « ليس هناك من يفوقنى حبا للأرض ، وفهما لها ، وسماعا للنصح ، وكشفا لمواطن العلل التى تنتابها .. فأنا الذى ألام اذا نسيت شئونها ! ولكن عليكم أن تعلموا - اذا لم تكونوا تعلمون - ان فى ميدان الشئون الانسانية نظاما قدسيا يجب احترامه . **اننى أقدم التراث الأدبى والمعنوى على التراث المادى . فليس الميراث هو الذى يخلق مكانة الأسرة ، ولكن تعاقب الأجيال هو الذى يخلق الميراث ويصونه . والأسرة التى تنزل عن أملاكها تستطيع أن تسترد هذه الأملاك . أما اذا فقدت تقاليدها ، وايمانها ، وتضامنها ، وشرفها .. واذا هى انحدرت الى مجرد جماعة من الأشخاص الذين تتقاذفهم المصالح المتضاربة ، والذين يقدمون مصالحهم الخاصة على رفعة المجموع ، فان الأسرة تستحيل اذ ذاك الى مجرد جسد خال من الروح .. الى جثة تفوح منها رائحة الموت .. ولن تستطيع أعظم الثروات أن ترد اليها الحياة بعد ذلك ! .. من الممكن شراء الأرض ثانية ، أما فضائل السلالة فلا يمكن شراؤها اذا هى بددت .** ولهذا فان ضياع مزرعة البرج أقل أثرا عندى من تعريض ابنى واسمى للعار . على أنه لما كانت مزرعة البرج ملكا لأسرة روكفيار قرنا بعد قرن ، لم أشأ أن أقطع هذا الاسترسال الطويل العمر دون اخطاركم ، ودون استشارتكم .. فادلوا الى بآرائكم - كل بدوره - فى اخلاص ، ولست أعد بأن أحفل بها اذا كانت تعارض رأيى . اننى زعيم الأسرة المسئول . ولكن أى قرار يحطم بضربة

واحدة عمل عدة أجيال خليق بأن يعتبر قرارا خطيرا ، ومن ثم طاب لى أن أحصل على تحبيذ من مجلس يمثل الأسرة ! »

* * *

◆ **وأظهر** له الصمت الذى أعقب كلامه ان جلساءه قدأدركوا أهمية القرار الذى يوشكون أن يتخذوه . وتطلع الى خريطة المزرعة المعلقة الى الجدار ، والتى كانت تبين المساحات التى وسعت من رقعتها ، مع تواريخ عقود شرائها .. لطالما تأملها وهو يعد مرافعاته ، لا ليقرأ عليها حدودا وأرقاما ، وانما ليتمثل الغابات والحقول والكروم والعمل الدائب وجنى العنب .. كان ذلك الاطار الضيق ـ الذى لم يكن تأمل معالمه السوداء عبثا ـ يضم قطعة من الأرض ، ومن الجهود الزراعية ، ومن تعاقب الفصول ! .. وأشاح ببصره عن الخريطة ، ونظر خلال النافذة فرأى تحت السماء المكفهرة حصن الدوقات آل أقدمين ـ الذى شيد على مهل فى كافة حقب التاريخ ـ وقد انهار نصفه ، وبدت اطلاله الباقية مهيبة ، وكأنها تقوم على حراسة الماضى .. كانت هذه الأطلال شهود عيان تفوق جميع المستندات ، وجميع المحفوظات ، وجميع المراجع والتقاويم . وكانت تبعث فى ذهنه ـ هو وحده ـ ذكرى (السافوا) القديم ، وعصر الجدود والحروب الطاحنة ، بينما كانت قباب الكنيسة المقدسة تمثل نزعات التقوى التى تعتمل فى القلب . ما الذى كان يتبقى من الأموات ـ ومن أعمالهم ومشاعرهم ـ لولا هذه المعالم المادية التى يتجسدون فيها ، والتى تذكر الناس بهم ؟ .. **وهذه المزرعة ـ مزرعة البرج ـ التى طالما فلحت ، واينعت ، واتسعت ، واستصلحت .. أتراها كانت شيئا عديم القيمة فى مصير آل روكفيار ؟ .. واذا هى فقدت ، أفلا تحرم السلالة من نقطة ارتكازها ، ومن الدليل المرئى على استمرارها ؟ .. ان الأجيال ـ فى الأسرات التى تعيش على ملكية الأرض ـ تتناقل الفأس ،**

كما كان العداءون القدامى يتناقلون الشعلة .. وها هو ذا آخر زعيم للاسرة يترك الفأس تهوى من يده !

على أن المحامى رفع رأسه ، وقمع كل تردد . فما كان التراث هو قوام الأسرة ، اللهم الا اذا كان البرج هو مصدر شجاعة المقدام ، والكنيسة هى مصدر تقوى المصلى !.. لقد كان هوبير وفيليسى ـ فى غربتهما عن وطنهما ، فى السودان وفى الصين ـ يحملان فى أطوائهما النشاط الحيوى والهمة اللذين ورثاهما عن عراقة أصلهما . ولو أن موريس رجع الى الحياة العادية لكفر بعمله عن ذنبه . أما مرجريت ، فان جذوة التقوى والوفاء تذكو فى أعماقها . وما لبث المحامى أن وجه الكلام لابنته ، بوصفها أصغر الحضور سنا ، ورغبة منه فى أن يسمع منها صدى أفكاره : « أنت الأولى فى الكلام ! » . فقالت : « أنا يا أبت ؟ كل ما تفعله أنت حسن ، فأنقذ موريس .. اننى أضرع اليك ! **فاذا رأيت أن بيع مزرعة البرج ضرورى فلا تتردد فى بيعها ، اذ أننا لسنا فى حاجة الى الثروة . وعلى كل حال ، فاننى فى صفك ، وينبغى أن لا تشغل بالك بى .. فلست محتاجة فى عيشى الا للقليل ، وبوسعى أن أقنع بأى وضع !»**.

فأمن السيد روكفيار على قولها : « كنت أدرك هذا » . ثم ربت يدها فى لطف ، وهو يقول لابن أخيه : « وانت يا ليون ؟ » .. ولما كان سىء الظن به ، فقد أردف : « تذكر أباك ! »

واصطنع الشاب مظهر الوقار الذى ينتحله الوصوليون الناجحون ، أذا ما تأهبوا لأن يفضوا الى الغير ـ دون مقابل ـ بخطتهم للنجاح .. وخيل اليه انه سيلقى درسا على هؤلاء الكهول الذين يجهلون الحياة العصرية ، ليعلمهم ان الظروف الجديدة فى الحياة تقوم على السرعة والأنانية والواقعية : « **انك ياعمى من رجال العهود العتيقة الذين كانوا يبحثون عن الحروب ـ من أجل المبادىء ـ فى كل مكان ، وينازلون طواحين الهواء ! ان افلاسك لن يجديك شيئا ، فانظر الى الامور من ناحية**

ايجابية • ان موريس يشهر – فى هذه اللحظة – سلاح الشرف ضدك ، فى حين أن شرف مدام فرازن لا يساوى مائة الف فرنك • ان ابن عمى الظريف يتظاهر بالشهامة فى السجن، ولكنه لن يلبث أن يتخلى عن هذا التظاهر فى لطف اذا ما وقف أمام المحكمة !•• اننى لست محاميا ، غير اننى كثيرا ما قرأت ما يقرأه كل الناس فى الصحف عن الجرائم العاطفية ، فان المتهمين دائما – لاسيما أكثرهم غطرسة – يميطون اللثام عن شركائهم أو ضحاياهم ، ويشهرون بهم أو يتهمونهم ليبرئوا أنفسهم • ان الخوف من الحكم هو بداية ركونهم الى الحكمة • وموريس ولد ذكى ، تواق الى المستقبل ، ومن ثم فانه لن يلبث أن يدرك مصلحته • فاذا قدر له أن لا يفهم ، فليتحمل مسئولية اصراره ، آخر الامر !•• ومن المحزن أن أقول هذا أمامك يا عمى ، وانى لأعرب لك عن أسفى وحسرتى ، ولكنه هوالذى أراد هذا لنفسه • وانى لأعرف انك تحب الصراحة • ان الخطر الذى يتهدده لا يحوم الا حول شخصه • وتضامن الأسرة ماعاد يجر الانحطاط على الجميع ، بسبب ذنب واحد منهم •• فتلك كانت نظرية سخيفة دفنها عصرنا نهائيا فى أكفان الماضى • **كل مسئول عن نفسه • هذا هو الشعار الجديد • ولا يلزم أحد بديون الغير، ولو كان هذا الغير أباه أو أخاه أو ابنه ! فالمال الذى أكسبه انما أكسبه لنفسى ! وكذلك حسناتنا وسيئاتنا • ان لدى المرء من أعباء تدبير سعادته الخاصة ما يثقل عاتقه ، فلا حاجة به الى أن يحمل أعباء عشرين جيلا !** وبوسعك أن تمنح موريس نصيبه من ثروتك مقدما – اذا شئت – ولكنك جدير بأن تحتفظ لأخويه وأخواته بأنصبتهم ، وبأن تحتفظ لنفسك بقوت شيخوختك • أما المزرعة فلك أن تبيعها ان وجدت ثمنا مغريا ، ولكن •• لا لتبتاع بها رأفة المحلفين ، وانما لأن الأرض لم تعد ذات نفع الا للفلاح الذى يقضمها كما يقضم الفأر الخبز اليابس • ان المستقبل للصناعة والآلات ، **فهى بالنسبة له كالفرد**

بالنسبة للمجتمع ! »

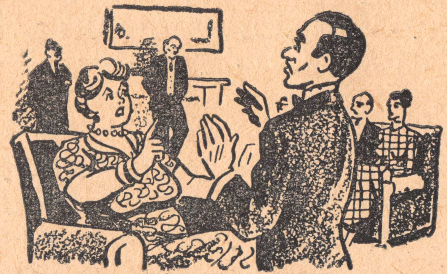
وعلى أثر هذا الخطاب ، أطلق أكبر الحضور سنا ضحكة لاذعة ، وتمتم : « انه يحسن الكلام ٠٠ صحيح انه يسهب ، ولكنه يجيد القول ! » ٠ واغتاظت الأرملة ، فضمت راحتيها لتدعو الله ٠٠ بينما تساءل السيد روكفيار في شيء من الاستهجان: « هل فرغت من الكلام ؟ » ٠ فأجاب الشاب : « أجل » ٠ فعاد المحامى الشيخ يقول : « اذا كنت قد فهمتك حقا ، فانى أراك على استعداد لأن تلقى بموريس من حالق ! » ٠٠ وقال الشاب : « معذرة يا عمى ٠٠ بل هو الذى يلقى بنفسه ، وهذا الوضع يختلف عن ذاك ٠ ولوانه كان عاقلا ، لاستطاع أن ينجو بسلامته من براثن العدالة ٠ ولكنه لا يريد أن يكون عاقلا ٠٠ وأنا فى صف العقل دائما ! »

واتجه زعيم الاسرة الى زوج ابنته متسائلا : « وانت ياشارل ٠٠ أتراك من أنصار العقل كذلك ؟ » ٠ فتردد مارسيلاز قبل أن يجيب : كان يحتمل بصبر نافد سمو مركز حميه عليه ٠ **وكان تفوق مكانة أسرة زوجته على مكانة أسرته يثير حنقه عند كل مقارنة ، لاسيما بعد أن نقل أعماله قريبا من مسقط رأسه ٠ ولما كان مجتهدا ومقتصدا ، فقد حرص على أن يعمل بحماس من اجل مستقبل أبنائه ، ومن ثم كان يبدى غيرة فى حماية ثروته المتواضعة التى اكتسبها بعناء ٠ ولقد استغرقه العمل ، فأورثه ذلك مرارة نفسية وصلابة ٠** ولكنه كان يحب زوجته « جيرمين » ، واذا كان قد أساء الظن ببعض تصرفات لها توحى بالترفع ، فما ذلك الا لأنه كان محروما مما يدعوه للترفع ! ومن ثم فقد انحرف عن الموضوع الاصلى ، لينحى باللوم على الماضى ، قائلا : « لماذا يفضل موريس مدام فرازن علينا ، حتى وهو فى السجن ؟ انه لسخف ، لاسيما وانها غير معرضة لأية عقوبة ٠ انه يغدر بالأسرة متذرعا بالشرف فى تعلل خاطىء ! ٠٠ مائة الف فرنك ! ألا ترى ان دفع مائة ألف فرنك أمر يفوق

طاقتك ؟ ! ليس من الواجب أن تقدم على المستحيل ! » ٠ فقالت مرجريت : « بل من الواجب عمل المستحيل لانقاذ موريس » ٠ وهنا قال السيد روكفيار الذى كان ينشد جوابا واضحا محددا: « مجمل القول انك انت أيضا يا شارل تنصحنى بأن أتخلى عن ابنى ٠٠ أليس كذلك ؟ »

وطأطأ الموثق الشاب رأسه حتى لا يلتقى بصره بنظرات ليون الساخرة ، وتمتم فى خزى : « لا ، لست أذهب الى هذا الحد » ٠ فلما رفع رأسه ، أدهشته النظرة التى كان والد زوجته يرمقه بها ، والتى تجردت من سطوتها المألوفة ، وبدت غامضة ، رقيقة ، ذات لطف غير معهود ٠٠ كنظرة المرء الذى يكشف ـ تحت بعض الحشائش الندية ـ المنبع المتواضع الذى يتدفق منه نهر سيال ! ٠٠ وما لبث السيد روكفيار ان قال : « هذا دورك يا تيريز » ٠ وكانت المرأة لا تصغى الى أى قول بعد أن ألقى ابنها خطابه ، ولكنها حين سمعت اسمها ، بادرت الى تلبية الدعوة ٠ ولما كانت ذات فطرة ساذجة بسيطة ، فانها لم تزج بنفسها فى مناقشة المبادىء ـ التى كانت تطبقها فى حياتها دون أن تعرف لها كنها ! ـ وانما عمدت مثل كثيرات من النساء الى النظريات المتعلقة بالأمور الشخصية ، الامرالذى ساعد على اقصاء الحلول المبهمة ، وعلى تبديد الضباب المتخلف عن المناقشات الفلسفية ٠ ولم تكن قد استوعبت من كل الجدل سوى قول واحد ، ولكنه كان أفضل الأقوال ٠ واذكانت لاتقوى على مواجهة أكثر من فرد واحد باجابتها ، لذلك وجهت خطابها الى ليون ، غير حافلة بالباقين : « هل قلت ان كل امرىء مسئول عن نفسه ؟ لو أن عمك الجالس هنا اتبع هذه السنة يابنى ، لما كنت اليوم تدير مصنعا يدر عليك مئات ومئات ! »

فقاطعها الشاب وقد مس قولها اعتزازه بنفسه : « أتهزئين بى يا أماه ؟ » ٠٠ ولكن السيدة الطيبة كانت قد انطلقت ، فما من سبيل الى ايقافها : « لا ، لا ٠٠ انك لتدرك تماما ما أريد



قوله ، لأننى قلته لك من قبل · واذا كنت قد نسيت ، فاننى أذكرك : كان ذلك منذ خمس عشرة سنة ، حين استثمر أبوك كل مدخراته فى المصنع الذى أسسه · ولما لم تصادف أعماله رواجا فى الحال ، فانه لم يلبث ان اضطر يوما الى أن يتوقف عن دفع التزاماته · وكانت الصناعة اذ ذاك حديثة عهد فى البلاد ، ولا يثق فيها أحد · **فذهب أبوك الى أخيه الاكبر - عمك فرانسوا - وأطلعه على ما كان يتهدده ، فما كان من فرانسوا الا أن أقرضه فى الحال ، وبغير فوائد ، العشرين ألف فرنك التى كان فى حاجة ماسة اليها ، اذ كنا مهددين بالافلاس ·· وهكذا تم انقاذنا يا صغيرى !** ·· ومنذ تلك الساعات العصيبة ، تولد عندى ذعر طاغ من الفاقة · فليسامحنى الله ! ان الفاقة هى التى جعلتك أنانيا ، سىء النية ! » ·· فاعترف ليون فى استياء وضجر : « حسن ·· حسن ، اننى لم أكن أذكر هذا ! »

ولكن مدام كاميل روكفيار كانت مفعمة الصدر بما لديها ، فلم تشأ أن تتراجع ، وهى التى اعتادت أن تنزل عن آرائها أمام حجج ابنها ، بعد مناوشات هينة · فان المرء اذا عاش الى جوار غيره ، لم يفطن الى نفسه · ومن ثم فان الدهشة تأخذه

أحيانا ـ اذا أتاحت له الظروف العصيبة فرصة ـ حين يتبين انه فى عزلة ٠ ويزداد هذا الشعور فى عصرنا ، جيلا بعد جيل، بسبب تفكك الروابط العائلية ، وسرعة إنتقال الآراء من مكان الى آخر !

وتحولت مدام كاميل تقول لأخى زوجها : « **لست قريبتكم الا بالنسب يا فرانسوا ، غير اننى لا أنسى اننى أحمل نفس الاسم الذى تحملونه ٠ ومن ثم فاننى أضع تحت تصرفك عشرين ألف فرنك ، اذا كنت بدورك فى حاجة اليها ٠٠ لست أفقه من أحاديثكم شيئا ، ولكننى أدرك أنك تعس ٠ أما مدام فرازن فأمرأة فاجرة !** » ٠٠ وهتفت مرجريت : « لكم أحبك يا عمتى ! » ٠ فأضاف السيد روكفيار الى حديث ابنته : « شكرا ياتيريز ٠ من المحتمل أن لا أحتاج الى هذا المبلغ ، ولكننى سعيد وأنا مدرك ان بوسعى ان أركن اليك اذا دعا الأمر »

وحان دور العم الاكبر ، فأدلى برأيه فى بطء ، وبصوت واضح جازم ، كان يجد عناء فى ارساله أحيانا ، فيبدو كرنين جرس مصدع : « ان الأب هو خير من يحكم على ممتلكاته يا فرانسوا ٠ فانت وحدك المسئول ، ولست مقيدا بأحد ٠ لقد كنت أنا الأخ الأصغر لأبيك ، وتيتمنا معا منذ صبانا ٠٠ وكان أبوك هو الذى كفلنا ، وأرشدنا ، وساعدنا ، اذ كان هو الوريث وزعيم الأسرة ٠ وكان المتبع اذ ذاك ان الفتيات لا يرثن سوى نصيب ضئيل ، اذ لم يكن الرجال يتزوجونهن من أجل الصداق ٠ أما تراث الأسرة ، فكان يؤول الى فرد واحد ، بكل تبعاته التى لم يكن الوريث يملك التخلف عن ادائها ، مثل تغذية ، وتمويل ، وتنشئة الصغار ، وكفالة العجزة والمحتاجين والمكتهلين !٠٠ ان شبان اليوم يجهلون ما كان يعنيه الميراث ، وهو القوة المادية للأسرة ٠٠ لكل الأسرة ، مجتمعة حول زعيم واحد ، آمنة من العوز ، بفضل تماسكها ٠ أما اليوم ، فما جدوى الاحتفاظ بتلك

الضيعة ؟٠٠ اذا انت لم تبعها ، فسيتولى القانون تفتيتها ٠٠ فان التقسيم الاجبارى للميراث لم يترك مجالا للتراث العائلى ٠٠ بل لم تعد هناك أسرة بفضل مبدأ « كل مسئول عن نفسه » ، وبفضل تدخل الحكومة الدائم وتقاضيها نصيبها فى كل العقود التى تتصل بالحياة ٠٠ ولسوف نرى ما الذى يستطيع ان يحققه هذا المجتمع المؤلف من أفراد تستعبدهم الدولة ! »

وارسل ضحكة استهجان وازدراء ، ثم اختتم كلامه قائلا : « ومع ذلك ، فأنت على حق عندما تفضل شرفنا على أموالك ٠ ومن الصواب ايضا انك اطلعتنا ، فلقد كنا نتبعك فى رخائك ، واذا كان القدر قد ناوأك ، فنحن لن نتخلى عنك ٠ **ولست أملك شيئا يذكر ، فالى جانب معاشى كمستشار ، لا أملك سوى سندات تبلغ قيمتها خمسة وعشرين أو ثلاثين ألف فرنك ، أستعين بريعها على الحياة ٠ أما وقد أصبحت طاعنا فى السن ، فاننى أمنحك اياها بعد موتى ٠٠ بل اننى أمنحك اياها فورا ، اذا شئت !** » ٠ فأجاب السيد روكفيار فى تأثر : « اننى لفخور بتأييدك يا عمى ، ومتأثر بتعضيدك ٠ لسوف يهون على أداء مهمتى الآن ٠٠ فان هذه التضحية بالمال ستبرىء ساحة موريس ، وهذا ما تؤكده لى خبرتى بالقضايا ٠ وما أظننى سأستطيع ان أنقذ المزرعة ٠٠ وهذا هو تفتيت ثروتنا ! » ٠٠ فقاطعه الكهل وهو ينهض : « ليس هذا من شأننا ! »

ـ بل ان من واجبى آن أبينه لكم ، حتى اذا خرجت مزرعة البرج يوما من قبضة آل روكفيار ، أدركتم ان هذا لم يتم دون ألم ، ودون حاجة قاهرة ٠٠ فكونوا شهودا : ان مزرعة البرج تساوى مائة وستين ألفا من الفرنكات ، كما ان غاباتى فى (سان كاسان) تقدر بعشرين ألفا ٠٠ وقد تسلمت جيرمين صداقا قدره ستون ألفا من الفرنكات

وهنا قال شارل مارسيلاز فى خجل : « هل يجب على ان أرد اليك هذا المبلغ كله أو بعضه ؟ انه مستثمر الى حد ما فى أعمال

المكتب الذى اتخذته فى ليون ! » ٠٠ وكان هذا السخاء يستحق من التقدير قدر ما صاحبه من أسف ، وندم ، وتردد ٠ ومن ثم أجاب حموه : « لا ياصديقى ، فقد أصبح هذا المبلغ نهائيا ملكا لكما ، لا سيما وان لديكم ثلاثة أطفال ٠٠ ولقد رصـدنا باسم فيليسى ــ حين دخلت الدير ــ عشرين ألف فرنك ، تستـــغل ريعها مدى الحياة ٠ كما احتفظنا لمرجريت بصداق يعادل صداق جرمين٠٠ وقد تسلمت من ريع هذا الصندوق ثمانية آلاف فرنك ، أعطتها لأخيها » ٠٠ وحسب ليـــون المبالغ التى حصـــل ــ وسيحصل ــ عليها موريس ، ثم قال بصوت خافت وهو مقطب الجبين : « مائة وثمانية الآف فرنك ٠٠ انه لثمن غـــال ! » ٠٠ وكان ما يزال يجهل المبالغ الصغيرة التى اقرضتها أمه والمستشار الشيخ لموريس ــ فى العام السابق ــ والتى احتسبت من الديون المعدومة !

وقالت مرجريت : « **تصرف فى صـــداقى يا أبى ، فاننى لن أتزوج !** » ٠ وهنا قالت الارملة : « انما خلقت النساء للزواج » ٠ ولكن مرجريت قالت فى اصرار : « ان لدى مؤهلاتى الدراسية ، وسوف أعمل ٠٠ سأنشىء مدرسة ! » ٠٠ فقاطعها العم الشيخ : « **بالرغم من ان النساء لا يورثن ، الا اننى سأحيد عن مبدئى هذا لصالح الفتاة ٠٠ وسأوصى لها بالأربعين ألف فرنك بعد وفاتى** » ٠٠ فقال ليون ــ الذى كان يقدر خسارته ــ يصحح له الرقم : « انها ثلاثون الفا » ٠٠ ولكن الشيخ صاح وقد تخلى فى الضائقة العصيبة عن شحه وتقتيره : « لا ، بل أربعون ! **لقد كذبت الآن عن غـير قصد ، وآخر قول هو انها خمســـة واربعون الفا ٠٠ سـأغير وصيتى يا فرانســوا لتصبح ريشى !** » ٠ فقال هذا متأثرا : « اننى أشكرك نيابة عن مرجريت يا عمى ، ولكننى لن أمس صداقها ــ الذى لا أراه كافيا لها ــ الا اذا بات من المستحيل على أن أبيع المزرعة بشروط مواتية ٠ **ذلك لأن بيع العقار ــ اذا** تيسر ــ خير من الاقتراض ٠٠ **هذا ما استقر رأيى عليه ، فان**

غلة الأرض ضئيلة فى هــذه الأيام ، وقد أصبحت كرومنا وقمحنا معرضة لمنافسة شديدة من محصولات الاماكن النائية - بفضل سهولة المواصلات - بحيث لم يعد فى وسعنا ان نطمئن الى دخلها • وانني لأوثر أن اؤمن مستقبل مرجريت ، تاركا أولادى الذكور يكافحون فى ســبيل رزقهم • واذا انا لم أبع الأرض ، فانها ستكون ذات نفع دائما ، كضمان للاقتراض » • واذ ذاك قالت الأرملة مؤكدة : « ونحن أيضا نضمنك » • فأمن العم اتيين على ذلك ، قائلا : « تماما ! »

* * *

◆ **وانفرط** بذلك عقد مجلس الأسرة ، فحيا الحضور بعضهم بعضا فى صفاء ومودة ، ما عدا ليون الذى أبدى بعض الفتور • ومالبث أن نبه أمه - وهما يهبطان السلم - قائلا : « **ان الضامن هو الغارم دائما » •• فقالت فى حرارة : « فليكن •• سأدفع ! » • واذ ذاك ، قال ساخرا : « انت •• ما أعظم طيبــة قلبك ! » • فأجابته : « وانت •• ما أجحدك ! » • فقال مبررا تصرفه : « ان ما حدث كان مع ابى ، لا معى أنا » • فتساءلت فى اسـتنكار : « أولست وأبوك سواء » • ولـكنه أجاب فى قحة : « لا ! »**

وقاد شارل السيد اتيين روكفيار فى عودته الى داره • وظل المحامى مع ابنته وحيدين • وكان النهار قد بدأ ينصرم ، وخيم على الحصن وبرج المحفــوظات ضباب كأنه معطف يلقيه الليل عليهما • ورانت على المكتب تلك الكآبة التى ترافق نهاية النهار فى الشتاء ، فغذت مرجريت المـدفأة بقطعة من الوقود • وقال أبوها : « انني مغتبط ، فقــد انتهى كل شىء على خير وجه » • وهنا قالت الفتاة محنقة : « ان هذا الـ « ليون » شرير خبيث •• وانني لأكرهه ! » • فقال أبوها : « ولكن أمه طيبة القلب ! »

ولاذا بالصمت ، ثم تأملا معا خريطــة المزرعة المعلقــة على الجـدار • وبدلا من أن يريا الورقة المعتمة ، تمثلت لأعينهما

الكروم التى تسبغ عليها الشمس الساطعة لون الذهب ، والحقول المحصودة ، والأرض المتأهبة للحرث ، والدار الكبيرة ، العتيقة ، المريحة .. كانت هذه الصورة هى الصرخة المدوية التى خالا أنها تنطلق من التراث الذى قضى عليه بالضياع !

وفعلا ما كان موريس قد فعله من قبل ، حين أطل من أعلى هضبة (كالفير دى ليمنك) قبل رحيله ـ وان صدرا فى فعلهما عن نوع آخر من الحب ، لم يبتغيا من ورائه سعادتهما الشخصية ـ فقد ودعا المزرعة !

٣ ـ صفقة رابحة



◆ لم يكن من ضجة فى (شامبيرى) بأسرها سوى تلك التى أثارتها الصفقة الرابحة التى عقدها الأستاذ فرازن !.. وكانت هذه الصفقة من الموضوعات العامة التى دار حولها الحديث ، فى الحفلة الساهرة التى أقامها السيد والسيدة « ساسيناى » ، لمناسبة بلوغ ابنتهما « جان » عامها الثامن عشر . فقد كان من خصائص المجتمع الريفى ، أن يصطحب الرجال الى المجتمعات

ما يشغلهم ويهمهم من شئون الحياة العامة والعمل ، فلا يتخلون فى أوقات فراغهم ولهوهم عن المتاعب التى يعانونها • ومن ثم فانهم لم يلبثوا ـ بين رقصتين من رقصات الفالس ـ أن تركوا السيدات يتنافسن فى اظهار أناقتهن ، وتجمعوا فى كافة الأركان ليستأنفوا الحديث عن متاعبهم المالية ، وشواغلهم المهنية • ثم تحولوا الى المأساة العائلية التى هزت مكانة آل روكفيار الاجتماعية العريقة ، والتى قد تقوضها بعد يومين ـ وكانت الحفلة فى ٤ ديسمبر ـ حين تعرض القضية على محكمة الجنايات • **وكان الرأى العام متحمسا •• فقد كان ينقم على هذه الأسرة : قوة نفوذها ، وعراقة أصلها ، وتفوق مكانتها ، ومن ثم استبدت به الرغبة فى ان يراها تنحدر لتتساوى مع غيرها ! •• ولقد أثارته بوجه خاص ، تلك الكبرياء الصامدة ، التى ابت ـ حتى فى النوائب ـ ان تئن وتشكو وتطلب العطف • ولهذا كان الرأى العام يرقب نهاية المسرحية ، كى يرى السقوط النهائى لسلالة كانت ـ فيما مضى ـ تعتبر بمثابة زينة تزهو بها البلدة !**

وكان بين المدعوين بعض رجال القانون والطب والصناعة ، وبعض أصحاب الضياع ، الذين انتحوا جانبا فى حجرة التدخين ، فلم يكن يسعى منهم ـ فى أول كل رقصة ـ الى الشابات والفتيات الجالسات فى قاعة الاستقبال ، سوى أفراد قلائل ، كانوا لايلبثون أن يغادروا القاعة وكأنهم غزاة مظفرون ينفذون من مكان محاصر ، ليعودوا الى أماكنهم بين الرجال • ولم يكن بينهم سوى شخص واحد يجهل الصفقة الرابحة التى وفق اليها الموثق ، والتى كان البعض يؤاخذونه ـ والبعض يقرونه ـ عليها •• أما ذاك « الجاهل » فهو الكونت ديلا مورتيلليرى • وكان عذره فى ذلك ، انه كان يعيش فى القرن الرابع عشر ، لانهماكه فى دراسة تاريخ حصن الدوقات • ولقد حاول عبثا ان يحدث من كانوا حوله عن عبقرية « اماديه

الخامس » الذى ابتكر – فى سنة ١٣٢٨ – أنابيب من الخشب لنقل المياه من عين (سان مارتان) الى مطابخ الحصن الواسعة ، حيث كانت تلك الأنابيب تصب فى حوض ضخم من الحجر ، كان مستودعا تربى فيه الاسماك لاعدادها لمائدة الدوق !.. ولكن أحدا لم يصغ الى ذلك الثرثار الذى كان يرجع الى ماقبل عصره بستمائة سنة . وكان السيد لاتاش ، رئيس غرفة الموثقين ، يعارض – فى تفلسف وتكلف ولجاجة كان يظنها تليق بكرامة مهنته ومكانته – الموثق الناشىء كولانج ، الذى بدا معطرا – وقد نثر المساحيق على وجهه ، وحرص على تجعيد شعره ! – والذى تولى باسم « مدرسة الشباب » – أو باسم الناشئين – الدفاع عن السيد فرازن ..

وراح السيد لاتاش يقول مؤكدا فى وقار : « **لا ، لا .. ان المجرم مواطن له حقوق المواطنين . وكان من الواجب انتظار حكم المحلفين قبل قبول التعويض عن الضرر المادى . أو كان من الواجب على السيد فرازن ان يسحب شكواه ، بعد ان تقاضى التعويض ، فلا يجمع بين الكسب والانتقام !** » . فبادر الموثق الشاب يقول وكأنه يتأهب للنزال : « معذرة ، عفوا .. لنترو من فضلك ! لقد قدم السيد فرآزن شكوى ضد موريس روكفيار ، يتهمه بأنه اختلس مبلغ مائة ألف فرنك للاضرار به ، وادعى لنفسه بالحق المدنى ، فعرض عليه الأب – السيد روكفيار – ان يرد هذا المبلغ قبل النطق بالحكم . فكيف تلوم فرازن على قبوله المبلغ ؟! »

– **لست ألومه على القبول ، وانما على مضيه – رغم ذلك – فى اجراءات الدعوى . كما أننى لا أفهم السيد روكفيار !**

– آه ! انه يعلم ان ابنه مذنب ، وهو يشترى بعمله عطف المحلفين . أما فيما يتعلق بتصرف السيد فرازن ، فانه – نظرا لأن الحكم بالادانة أمر غير مؤكد فى محاكم الجنايات دائما – قد آثر أن تكون لديه وسيلتان لبلوغ غايته . ومن ناحية أخرى ،

فانه سيستغل دفع هذا المبلغ ليعتبره - فى الجلسة - بمثابة اعتراف . وهى سياسة قويه جدا !

- بل انها سياسة مربحة ، قبل كل شيء ! أما السيد روكفيار ، فانني ولو لم أكن أملك ان أشرح الدوافع التي حملته على هذا التصرف ، الا أنه - فى الوقت ذاته - عظيم الحنكة ، بحيث انه لا يسلم سلاحا كهذا الى خصمه دون ان يتخذ احتياطاته . ولابد ان الايصال الذى طلبه قد تضمن انه وان أدى عن غيره التزاما ، الا انه لا يعترف قط بان هذا الغير هو ابنه !

وهنا وصل المحامى « بابيه » ، فاشترك فى النقاش دون ان يضيع دقيقة واحدة ، اذ قال : « ان الايصال يتضمن هذا التحفظ فعلا ، وفى أدق صيغة قانونية ! » . فصاح السيد لاتاش مظفرا : « لقد استنتجت ذلك . **وكان الأحرى بالسيد فرازن أن يدع الأمر رهنا بحكم القضاة ، بدلا من أن يقف موقفا يتعارض مع توقيعه على مثل هذا التحفظ !** » . بيد ان السيد كولانج ابى التسليم بالهزيمة ، فصاح : « وأى دليل يقوم عليه ايصال كهذا ؟ أفهناك من يدفع مائة الف فرنك عن شخص مجهول ؟ »

وأقر الحاضرون رأيه ، وتمتموا معربين عن تحبيذهم لهذا الرأى الذى كان يعنى أن مثل هذا الكرم لم يقدم فى الواقع إلا بدافع ضرورة ملحة . على ان نجاح الشاب كان قصير العمر ، اذ سرعان ما أخفاه المحامى « بابيه » كما يخفى الساحر كرة صغيرة .. فقد كان مرحا ، قصيرا ، بدينا فى تناسق ، لا يلم بكل شيء ، ولكنه يحشر نفسه فى كل مكان ، فيسيطر على الألباب . وقد قال اذ ذاك : « أرى انك تجهل الصفقة الأكثر براعة ، التى عقدها السيد فرازن »

- هات ما عندك   - آه ! آه !

واستحوذ على اهتمام الحضور بالنبأ الذى يحمله ، ثم انتهز

فرصة شروع الفرقة الموسيقية فى عزف احدى المقطوعات الراقصة ، وترك فى غير اكتراث مستمعيه المأخوذين ، وأسرع - ككرة تتدحرج ! - الى احدى السيدات فدعاها للرقص ٠ ولما لم يكن لدى اولئك السادة ما يصنعونه ، فقد راحوا - خلال مصراعى الباب - يرقبون الراقصين ، متظاهرين بعدم الاكتراث لما سمعوا ، مصطنعين الاعجاب بالراقصين والراقصات الذين كانوا يتقدمون ثم يتأخرون ثم يتبادلون التحية ، ثم يدورون حول أنفسهم ، تبعا لأنغام الموسيقى ، ونظام خطوات الرقصة ٠ وكانت جان‌ساسيناى متوردة الخدين ، وقد سوت شعرها بحيث بدا فى فوضى متناسقة متعمدة ! وبدت أبهى ما تكون رشاقة ونضارة ، فى ثوب ازرق شاحب كشف صدره عن « زاوية » ناصعة راح النور يداعبها ٠٠ وانهمكت فى الحفاوة بجميع المدعوين ، وفى الاقبال على المرح واللهو ، فأثارت بذلك تعليقات الكثيرين : **« لا بأس بهذه الفتاة الصغيرة ! » ٠٠ « ولكنها غاية فى النحافة ٠٠ انظر الى ردفيها ! » ٠٠ « انها لم تزل فى الثامنة عشرة من عمرها » ٠٠ « آه ! ولكنها لن تلبث ان تتزوج عما قريب » ٠٠ « ولماذا ؟ » ٠٠ « لأن لها صداقا ضخما » ٠٠ « هذا صحيح ، ولكن شقيقها غارق فى الديون » ٠٠ « وممن تراها ستتزوج ؟ » ٠٠ « لا أحد يدرى بعد ٠٠ يقال انه ريمون بيرسى ! » ٠٠ « الخطيب السابق للآنسة روكفيار ؟ » ٠٠ « انه طبيب ناشىء » ٠٠ « حقا ٠٠ لم يذبح أحد بعد ! »**

وبعد الرقصة الاخيرة ، احس المحامى بابيه بتعب ، فقاد زميلته الى المقصف ، حيث تناول قسطا من الشمبانيا ، وأكل شطيرة محشوة بالكبد الدسم ، وبذلك استرد نشاطه ، فعاد الى الظهور فى الوسط الذى تركه يتقلب على جمر الفضول ٠ ولكنه تفادى سخطهم بأن بادر ضاحكا : « لن تعرفوا شيئا اذا وبختمونى ! » ٠ فصاحوا : « ها نحن منصتون اليك ! » ٠ واذ ذاك قال يستأنف الحديث السابق : « انكم ما زلتم عند نقطة

قيام السيد روكفيار بدفع مائة الف فرنك الى السيد فرازن » ·· فقيل له : « وانها لنقطة هامة ! » · ولكنه مضى قائلا : « بل انها أقل أهمية مما توشكون ان تعرفوه ! » · وما آن انبعثت اولى انغام « البولكا » ، حتى ادار رأسه ، فظن القوم انه يعتزم ان يغادرهم مرة أخرى فى غياهب حيرتهم ، ومن ثم اتجه فريق منهم الى الباب ، وقرروا أن يسدوا عليه الطريق · وقال له السيد لاتاش : « انك تتصبب عرقا ، فليس من الحكمة ان تعود للرقص » · بينما عمد الموثق كولانج الى حيلة أخرى ، اذ ابدى تشككا فى النبأ المنشود ، واذ ذاك بادر صاحب النبأ الى فتح فمه ، فترك صيده يطير :

ـ اليكم النبأ اذن : لقد استولى السيد فرازن دون مقابل على مزرعة البرج ، التى تساوى ما يقرب من مائتى ألف فرنك !

وهنا تعالت صيحات التكذيب والاستنكار : « ما هذا القول ؟ » ·· « انك تسخر منا ! » ·· وكان المحامى باستار ، والسيد فاليروا ـ المدعى العام ـ يتحدثان على حدة ، فاقتربا وقد ارهفا سمعيهما ·· بينما قال الخطيب : « بل انها الحقيقة ·· دون مقابل ! » · وتعالى التساؤل : « وكيف حدث ذلك ؟ » · فأجاب : « اليكم الأمر : لقد عرض السيد روكفيار الضيعة للبيع ، فى سبيل الحصول على المال اللازم ، فعرض عليه السيد دودان ـ الموثق ، والوسيط فى الصفقة ـ مائة ألف فرنك تدفع فورا ، على شريطة ان لا يعلن اليه اسم المشترى قبل اليوم الخامس عشر · وآذكروا جيداً هذا الشرط ·· اليوم الخامس عشر ! ولما لم يكن لدى السيد روكفيار فرصة للاختيار ، قبل انعقاد محكمة الجنايات ، فقد قبل · وما كان يرجو خيرا فى مثل تلك المدة القصيرة · وحدث ـ بفضل ثرثرة أحد الكتبة ! ـ ان عرفت الآن ، وتوا ، أن المشترى الحقيقى هو السيد فرازن ·· السيد فرازن الذى انفق مائة ألف فرنك باحدى يديه ، ليقبضها باليد الأخرى ، والذى يجد نفسه الآن بحيلة بسيطة مالكا بغير

مقابل لضيعة فخمة ! »

وكانت هذه السياسة « المكيافيلية » تبز جميع الأســاليب الاحتيالية التى تعودها ابناء المــدن ، فبهت الحاضرون ٠٠ ولم يكلف احدهم نفسه عناء البحث عن الحافز المعنــوى ، ولا عناء سبر غور تضحية الســيد روكفيار بهذا التراث العريق ! ٠

وكان السيد فرازن ــ فى المحنة الأليمة التى اجتازها ، والتى هدمت بيته ، ان لم تكن قد أودت بثروته كذلك ــ قد ركز كل مشاعره فى الأشياء التى ظلت بمنأى عن التأثر ، وهى أعماله ، كالفنان الذى يستمد من فنه سلوى ، أو المرأة التى تنشد فى الاحسان عزاء ! ٠٠ وعلى هذا كان تدبير العقود والأرقام يمده بمنفذ يهرب خلاله من الأفكار المحــزنة ٠ ومن ثم تناسى ــ لفترة ــ همومه بالانشغال بشئون عملائه ، وبالرضى الذى كان يستشعره فى ادارة معركة المصالح المادية ٠ وقد أوحى اليه مصير ضيعة البرج بواحدة من تلك الخطط البارعة الجــريئة التى لم يكن يملك ان يصد نفسه عنها ٠ وكان يأمل فى ان يظــل السر مكتوما الى ما بعد انعقاد محــكمة الجنايات ، ولكن ٠٠ أى سر ذاك الذى يظل مكتوما فى بلدة يقل عدد سكانها عن عشرين الفا ، ومن ثم يعد كتمان الشئون الداخلية فيها بمثابة بدعة مكشوفة ؟ !

وكان السيد لاتاش هو أول من عبر عن مشــاعره ، اذ نطق بكلمات ثلاث كانت بمثابة خطاب كامل ، لصدورها عن رئيس غرفة الموثقين : « عمل غــير سليم ! » ٠ فرد الســيد كولانج : « كلا ، مطلقا ! هناك أرض معروضة للبيع ، وقد اشــتراها ٠ وهذا حقه ! » ٠ ومع ذلك ، فان المنــاورة الماكرة التى لجأ اليها السيد فرازن لم تلق سوى عدد قليل من التحبيذات ، انبعثت من معسكر الشبان الذين يوجهون اليوم تحمسهم ــ كما يوجهون أموالهم ــ نحو المشروعات المؤكدة الربح ٠ ولقــد لقى السيد فرازن نجاحا كبيرا فى مشروعاته المــادية ، ولكن المتمســكين بالأخلاق وذوى الادراك العملى من الحاضرين ، نقموا عليــه هذا

التصرف ، لا سيما وانهم لم يغفلوا عن انه جاء نتيجة فرار زوجته • وفوق هذا ، فان انتماء الرجل فى الأصل الى مقاطعة (دوفينيه) كان يبديه ـ فى نظر خاصة المجتمع ـ أجنبيا ، يثرى بمثل هذه المكاسب على حساب بلدهم ! •• **حقيقة ان احدا لم يأس لتدهور آل روكفيار ـ الذين كانت مكانتهم تثير حفيظة الطبقة الوسطى ـ ولكن القوم بهتوا حين رأوهم يضاعفون بانفسهم النكبة ، ويسحقون بأيديهم ما تبقى من أطلالهم •• اذ ما الذى يدعو الى التفريط فى المال اذا لم يكن موريس مذنبا ؟ فاذا كان مذنبا ، فما الداعى لتصرف ينطوى على اعتراف ؟ ذلك لأن ما قرره الشاب كان أمرا مجهولا ، اذ ان السيد هاميل كان شديد التكتم ، كما ان السيد باستار كان يلتزم في صمته خطة مرسومة : فقد كان تواقا الى القضايا ذات الضجيج المدوى ، وكان لا يزال يرجو ان يطلب عونه في هذه القضية بالذات**

على انه لم يستطع ان يكبح نفسه عن الكلام طويلا لفرط الانفعال •• وكانت الحلقة التى دار فيها الحديث قد انفضت نظرا لوصول مدعوين جدد ، واستؤنف الموضوع فى جماعات صغيرة تناثرت هنا وهناك ، كالنار يذكو لهيبها قبل ان تخمد نهائيا • وانضم المدعى العام فاليروا الى السيد باستار فى ركن منعزل ، وبادره قائلا : « ها هى ذى مفاجأة بارعة تستغلها فى مرافعتك ، لتمطر زوج مدام فرازن بلذعاتك الساخرة ! » • فقال المحامى : « ليس من المؤكد بعد اننى سأترافع » • فتساءل الآخر فى دهشة : « كيف ؟ ألن تترافع ؟ » • ومن ثم لم يجد المحامى بدا من ايضاح الأمر ، فأفشى السر دون ان ينتبه ، اذ قال : « ان هذا الشاب الغبى يأبى أى دفاع جدى ، خشية المساس بشرف عشيقته ! » •• وفاه بالكلمات الأخيرة فى سخرية وازدراء ، ثم راح يشرح لرجل القضاء المرهف السمع ، كيف كان المتهم يرفض مقدما كل اشارة تدين مدام فرازن

ـ اذا لم تكن انت ، فمن الذى سيترافع ؟

ـ ما زلت أجهله ٠ انه السيد هاميل ولا بد

ولم يخص النقيب باحترام يزيد على ذاك الذى خص به مدام فرازن ، اذ فضـفض عن رأيه فى شيخوخة النقيب وعجزه بالازدراء الذى ذكر به اسمه ! وبعد لحظات من الصمت ، قال السيد فاليروا : « اننى أفهم الآن تصرف السيد روكفيار : فهو يلغى السرقة لينقذ ابنه ! هــذه فرصته الأخيرة ، ومن ثم لم يتـردد فى التضحية بثروته ٠ هــذا بديع جدا ! » ٠٠ ولم يستسغ السيد باستار هذا الاطراء ، فندت عنه اشارة غامضة تحتمل شتى التأويلات ، ثم قال مستدركا افشاءه سر مهنته : « هذا سر بيننا ! » ٠ واتجه صوب فريق من السـيدات ، وقد استقرت لحيته الأنيقة على صدره ، وسار فى بطء وجلال كأنه طاووس يتأهب لأن يبسط ريشه ٠ وبقى رجل القضاء وحيدا ، فلم يحاول ان ينشد لنفسه رفاقا ، بل واصل التفكير فى السيد روكفيار باعجاب ، واخذ يسـتعرض حياة هــذا الرجل التى افعمت بالآلام والبسالة ٠ **فمنذ اليـوم الذى رفع فيه فرازن شكواه ، لم يظهر روكفيار سوى انكار المصلحة المادية ، والاعتزاز بالنفس ، والاستعداد للتضحية ٠ وراح السيد فاليروا يسـائل نفسه : « لماذا لا يفهم شخصيته العظيمة هنا سواى ؟٠٠ ان أى فرد من الحاضرين لا يسمو الى مواطىء قدميه ، ومع ذلك فقد كان هؤلاء السـادة منذ لحظات يترفعون فى حديثهم عنـه ، وكان النحس قد حط من قدره وهوى بمكانته ! ان الريف لحاسـد حقود ! »**

وفى هذه الحدود البسيطة ، كانت المأساة مؤثرة ، وداعيـة للعجب : كان الشاب موريس يجرد الأسرة من كرامتها ، بمثوله أعزل أمام المحلفين ، ومن ثم تخلى أبوه عن الضيعة العريقة بثمن بخس ليتغلب على الابن الضال ٠ ولكن ٠٠ اذا كان محامى المتهم مضطرا الى ان يغلق فمه ، فان ثمة صوتا أعلى ، واكثر سـلطانا من صوته ـ لأنه يصدر عن سلطة عليا ـ يستطيع أن يدوى فى

الآذان بدلا من ذاك الصوت ٠٠ أفليس من حق المدعى العام ان يعرض القضية من ناحيته ، بعد ان يتكلم المدعى بالحق المدنى ؟ وبدلا من ان يقيم « العدالة » بالطريقة المتعارف عليها فى مثل هذه القضايا ـ التى تمتاز بأنها خاصة اكثر مما هى عامة ـ أليس من واجبه ان يتدخل تدخلا فعالا فى كشف الدور المشئوم ٠٠ الدور الأعظم تأثيرا ٠٠ الدور الفريد الذى قامت به مدام فرازن ، اذ كانت الوحيدة القادرة على اساءة استغلال الثقة ، دون ان تدان لهذا السبب ؟! **ما أروعها من فرصة لخدمة العدالة ، واعطاء كل ذى حق حقه ، وادخال شيء من الفرح على تلك النفس التى حرمت منه !**

تتابعت كل هذه الخواطر على رأس السيد فاليروا ، ولكنه كان عاجزا : فقد كان يجلس فى مقعد المدعى العام ـ فى محكمة الجنايات ـ محام عام ، وليس هو ٠ ومن ثم لم تعد قضية موريس روكفيار من اختصاصه ٠ فضلا عن انه قد تعرض للوم بسبب الخطوة الغريبة التى اتخذها ازاء الموثق فى العام الماضى ، والتى لم يقدر لها ان تظل فى طى الكتمان طويلا ٠ وما الجدوى فى ان يقحم نفسه فى قضية لم تعد من اختصاصه ، ولن تجر عليه سوى العناء ؟ يجب ان يقنع بابداء العطف السلبى من أجل راحة باله وطمأنينته !٠٠ واسرع يختلط بالمدعوين حتى لا يسترسل فى التفكير ، ولا يقدر أنانيته ٠ وداخلته السعادة حين شعر بالناس حوله ٠٠ ففى وجود بنى جنسنا عزاء وتسرية لنا حين نحاول ان نقيس مدى ضآلة شأننا ٠٠ ولكن ـ من ناحية أخرى ـ لا يقدم على هذه المحاولة سوى خير الناس !

* * *

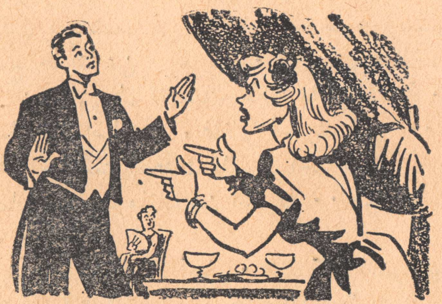
◆ **وأثار** التردد على المقصف حركة رائحة غادية فى قاعتى الاستقبال وفى البهو وقاعة المائدة ، انتهزها الشبان ليحوموا حول الفتيات ٠ وكان بين الفتيات من استهواهن الرقص فرحن

يطالبن الفرقة الموسيقية بالعزف ، ومن أظهرن سعادة في تقبل بعض المغازلات البسيطة ، لترويض أزواجهن ، بيد ان بعضهن – وكن فئة ضئيلة – لم يأبهن بالقاء نظرة سريعة للتأكد من وجود أو غياب خاتم الزواج في الأيدى اليسرى للرجال ، قبل أن يستجبن لمغازلاتهم في تحبيذ مستتر ! وكانت عيون الشباب المنتشى تتألق بوميض الابتهاج كما تتلألأ المجوهرات التى كانت تزين الشعور والصدور والأذرع والأصابع !٠٠ وكانت الوجوه المزدانة بالمساحيق تبرز بين ثياب السهرة السوداء ، فى خطوط واضحة كأنها الألوان المائية !

فالى اية طبقة منهن كانت تنتمى الآنسة جان ساسيناى ، التى تخلت تماما عن ذراع ريمون بيرسى – الذى كان فى العام السالف خطيبا للآنسة روكفيار – حين تبعتها عين أمها اليقظة ، فى قلق ، وفى شىء من الدهشة ؟٠ ترى هل كان رأسها الصغير ، المتناسق ، الشبيه برؤوس التماثيل الاغريقية – التى تبدو لنا رشيقة وأخاذة وهى تستوى فوق أكتاف حجرية – هل كان رأسها هذا ضيق العقل الى درجة لم تمكنه من ان يرعى ذكرى صديقتها التى هجرها ذلك الشاب ؟ أو لم تكن نظراتها الصافية ، المنبعثة من عينين فى زرقة السماء ونضارة الربيع ، تنم فى قرارتها عن استخفاف وعدم اكتراث ؟ ٠٠ وكانت الدماء تجرى فى وجنتيها ، نتيجة الحركة التى بذلتها فى الرقص ، ولكنها لم تكن تبتسم ، بل كانت عابسة ، تجز على شفتيها ، وكأنما اتخذت قرارا جادا لا يتلاءم مع روح الطفولة الجميلة ٠٠

وقال لها الشاب : « اننى لم أرقص معك بعد ، فهل تؤثريننى باحدى رقصات الفالس ؟ » ٠ فأجابته فى جفاء بعد أن اطمأنت الى انهما ليسا وحيدين : « لا » ٠ فهتف يسألها : « ولم لا ؟ هل جميع رقصاتك « الفالس » محجوزة ؟ » ٠٠ وكان جوابها : « ليست كلها » ٠ ولم يحمل رفضها على محمل الجد ، بل انه طفق يضحك بدلا من ان يعبس ، وقال : « لقد نبهتنى ٠

فشكرا ! » ٠٠ فأرسلت زفرة متعبة ، كتلك التى يصدرها العمال وهم يرفعون حملا ثقيلا ، ثم اندفعت فجأة قائلة : « الواقع ان من واجبى ان انبئك ياسيدى : **لقد تحدثت أمك الى أمى ، وأمى لا تخفى عنى سرا ، وحتى الذى تكتمه لا ألبث ان أحدسه ٠٠ فهل ادركت ؟٠٠ قط ـ وأرجو ان تصيخ السمع ـ قط لن أتزوجك !** » ٠٠ فهتف الشاب مبهوتا : « عفوا يا آنسة ، فأنا لم أطلب يدك »



ـ لقد استكشفت أمك الميدان ٠٠ « جست النبض » كما يقولون !

ـ ان الأمهات يرسمن كثيراً من المشروعات لأبنائهن ٠٠ ومع ما فى هذا المشروع من شرف لى ، الا انه لا يتفق مع نواياى

ـ اوه ! هذا أفضل ! ـ اننى لا أفكر فى زواج

وبهت عندما أجابت : « انك لمخطىء ! » ٠ فقد بدا هذا التأنيب غريبا ، وموجعا ، وهو يصدر من ذلك الفم الدقيق ٠ واستطردت الفتاة : « عندما يتاح لامرىء حظ مصادفة فتاة مثل مرجريت روكفيار فى حياته ، فجدير به ان لا يهدم بنفسه سعادة كهذه ! » ٠٠ وكان هذا هدفها ٠ ولقد ادرك الشاب ذلك ٠ وكان

بوسعها ان تدرك مدى الضربة التى وجهتها اليه من التطور الذى ألم بأسارير وجهه ، لولا أن العينين فى مثل سنها الغضة لا تكونان قد اكتسبتا بعد القدرة على تتبع مظاهر انفعالاتنا الداخلية ! كذلك كانت تنقصها القدرة على الاعتدال فى الانسياق لتحمس الصبايا المتحررات ، اذ استطردت تقول : « **من القبيح دائما ياسيدى ان يتخلى الشاب عن خطيبته ، لا سيما حين تكون فى ظروف تعسة ٠٠ هذا أمر لا يطاق !** » ٠ بأى حق سمحت لنفسها بأن تؤنبه بهذه القسوة ؟ واغتاظ ريمون بيرسى ، لا سيما وأنه كان يستشعر فى قرارة نفسه سرورا مشوبا بالمرارة عندما يسمع حديثا عن مرجريت ٠ وانصب غيظه ومرارته فى رده ، اذ قال : « اننى لم أنصبك حكما يا آنسة ٠ واذا كنت تتكلمين بلسان فتاة أخرى ، فاننى أجيبك بـ ٠٠٠ » ، ولكنها قاطعته قائلة : « لست أتحدث بلسان أحد »

ـ اذن فما أبعد معلوماتك عن الحقيقة ٠٠ فما أنا بالذى فسخ خطبة كانت عزيزة على !

ـ **كانت عزيزة عليك ؟! أجل ٠ هكذا أنتم أيها الرجال : تحضرون اذا اشرقت الشمس ، حتى اذا امطرت السماء ، لا يبقى منكم أثر !**

ـ ولكنك جد ظالمة ٠٠ وانى لأوشك ان أفقد صبرى

وبدلا من أن تسكت ، ظلت تطن كالزنبار الذى يبحث عن شخص يلدغه : « لا يغضب سوى المخطىء ! » ٠ فقال : « ليس هناك ما أودى حسابا عنه أمامك يا آنسة ٠ فاعلمى أن الآنسة روكفيار هى التى فسخت الخطبة ٠ فقالت معقبة : « بدافع من الشهامة » ٠ ولكنه أجاب : « انها لم تعبأ بقلبى ، ولا اكترثت لآلامى » ٠ فاشتد احتقان وجهها ، ولم تعد تتمالك نفسها ، فقالت تستنكر عمله فى عنف : « فى مثل هذه الظروف ، ما كان ينبغى أن تقبل القطيعة » ٠ ولم يعد بدوره قادرا على الهدوء ، فقال : « واذا أدين أخوها ؟ »

ـ هذا أدعى وأكرم ـ آه ! أحقا يا آنسة ؟

ـ أجل ، انه لحق · فأنا اذا أحببت لا يتغير حبي بذهاب خطيبي الى السجن · بل انني أتبعه الى هناك ! أتسمعني يا سيدي ؟ ولو استدعى لحاقي به أن أرتكب جريمة ، فانني أرتكبها ·· في الحال ، ودون تردد ؟

فقال : « انك لطفلة ! » · ثم غير من لهجته فجأة ، وتمتم معترفا بصوت أجش : « أو تظنين أنني غير آسف عليها ؟ » · واذ تبدل بهذه السرعة ، استخفها الانتصار حتى كادت تلقى بنفسها على صدره ، واذا بمدام ساسيناى تقترب وقد رابتها هذه الحركة وهي ترقبها عن بعد · وقالت جان : « آه ! كنت موقنة ياسيدى من أنه ليس فى وسعك أن ترغب فى الزواج منى ·· اذن ، فاسرع · أسرع واخطر مرجريت ، واضرع اليها باسمى أنا الأخرى ، كى تصفح عنك · واستعد بسرعة مكانك فى الأسرة قبل القضية ، والا فسوف يفوتك القطار · ان هذا أفضل من كل ما تعالج به مرضاك من أنواع العقاقير السيئة ! »

ـ شكرا ـ اذهب فى الحال

ـ ولكن الساعة بلغت الحادية عشرة والنصف

فهتفت : « اذن فاذهب غدا » · وكانت مدام ساسيناى فى طريقها الى ابنتها ، فاستوقفها فريق احتدم بين أفراده النقاش ، وأخذ يزداد حدة بين لحظة وأخرى : كان السيد فاليروا يسأل شابا ـ فى زى عسكرى ينم عن أنه من هيئة أركان الحرب : « أواثق أنت ؟ » · فأجاب الضابط : « كل الثقة · لقد نمى الخبر الى الفرقة فى الساعة السادسة ، وقد ذهب الجنرال بنفسه لزيارة السيد روكفيار » · فهتف السيد كولانج وقد أدهشته ـ وأثارت مشاعره ـ خطوة رسمية كهذه ، نحو رجل تكأكأت عليه المحن : « بنفسه ؟ » ·· وسألت مدام ساسيناى أقرب شخص بجوارها ، وكان السيد لاتاش : « عم يتحدثون ؟ » ، فأجابها : « عن موت الملازم روكفيار يا سيدتى · فقد توفى بالحمى

الصفراء ، فى السودان » • فتمتمت وقد طغت عليها الشفقة : « يالهم من تعساء ! » •• وقال السيد لاتاش مؤمنا : « أليسوا كذلك يا سيدتى ؟ »

كان هذا المصاب الفادح سببا فى أن اكتسب آل روكفيار عطف النساء ، وفى تحطيم روح العداء لدى الرجال ، بعد أن كان القوم يؤيدون انهيار الأسرة المادى والأدبى بنفوس راضية • لقد أرادوا لها الهوان ، فأجابهم القدر ، ولاحقها بالنوائب فى غير ما تردد ولا هوادة ! وران الصمت على أنصار السيد فرازن وصفقته الرابحة •• وعبر المدعى العام عن شعور القوم بقوله : « يا للمساكين ! » •• واختفت جان ساسيناى بعد هذا اللغط ، فبحثت عنها أمها فى المسكن دون جدوى ، حتى اذا لمحت ريمون بيرسى فى الردهة وهو يرتدى معطفه فى عجلة سألته : « أترحل مبكرا يا سيدى ؟ » • فأجاب دون أن يحاول تبرير هذا الانصراف المفاجىء : « أجل يا سيدتى » • وأدركت ما كان يجثم على صدر الشاب ، فربطت بين هذا وبين اختفاء ابنتها ، وبدأ القلق يساورها بشدة ! ثم سألت زوجها ـ الذى صادفته عند مدخل قاعتى الاستقبال : « ألم تر جان ؟ » • فأجابها : « لا •• أفتبحثين عنها ؟ »

وكان السيد ساسيناى رجلا مجتهدا ، صريحا ، وفيا ،ولكنه مجرد من القدرة على تفهم العوامل النفسية •• فكان فى وسعه أن يتغلب على أعظم العقبات المادية ، ولكنه كان عاجزا عن أن يعنى بتحليل العواطف• ومن ثم لم تر زوجته جدوى من مصارحته بهواجسها واكتفت بأن سألته أن يعنى بضيوفهما ، بينما اتجهت هى مباشرة الى غرفة مخدع ابنتها ، فما ان ولجتها وأدارت زر المصباح الكهربائى ، حتى ألفت ابنتها غائصة فى أحد المقاعد ، وقد انحنت على نفسها ، وانخرطت فى البكاء ، غير مكترثة لما قد يصيب ثوبها من تجعد • وبادرت تسألها وهى تربت ظهرها : « جان •• ماذا بك ؟ » •• فهتفت الفتاة : « أماه ! » • وكانت الصرخة أشبه بشكوى طفلة هدأ روعها فى الحال • فسألتها أمها:

« لماذا تبكين ؟ »

ـ انما خطرت لى أحزان مرجريت ، بينما أرقص أنا لاهيــة !

وتنهدت مدام ساسيناى ، اذ كانت تدرك الود العظيم الذى تكنه ابنتها للآنسة روكفيار . وما لبثت أن سألتها حين وجدتها لا تكف عن البكاء : « أو تذكرين الملازم هوبــير ؟ » . فأجابت الفتاة : « أجل ، كان ظريفا .. ولـكنا كنا نتخاصم فى ساحة التنس ، اذ كان دائما متفوقا » .. ولـكن هذا لم يكن مبعث أسى الفتاة . اذ استطردت دون تمهيد : « مسكينة مرجريت ! اننى أفضل موريس السجين على هوبير ! لسوف تبرأ ساحته . أليس كذلك ؟ » . فأجابت الأم : « آمل يا عزيزتى » . واذ ذاك قالت الفتاة : « **برىء يبرى القضاء ساحته ، ويدينه الناس ! انه لأمر عجيب ، أليس كذلك يا أماه ؟** » . فتساءلت مــدام ساسيناى : « أواثقة أنت أنه برىء ؟» ، فهتفت الفتاة لفورها : « **وكيف لا وهو شقيق مرجريت ؟** »

وابتسمت السيدة لهذه الفورة ، ولهذه الثقة التى تعمدت أن تستثيرها . وتذكرت وهى تسرى عن ابنتها حديثا دار منذ أمد بعيد بينها وبين مدام روكفيار حول أولادهما . فقد قالت المرأة التقية وقتئذ : « قد يحين يوم أطلب فيه يد ابنتك لموريس ، اذا أثبت جدارة ، وبذلك تبقى الطفلة بالقرب منك ! » . ومـع أن موريس لم يثبت جدارة ، الا أنه ظل يحتل فى قلب الصبيــة النبيلة مكانته السالفة . وهنا موطن الخطر ، فلا بد من الحذر . وبينما اعتزمت الأم أن تعنى بذلك ، راحت تفكر بالرغم منهــا فى بقية آل روكفيار ، الأموات منهم والأحياء ، الأفاضـل منهم والمبتلين بالمحن !

وكان ضجيج الموسيقى يصل واهنا الى الحجرة ، فقالت الأم: « خففى عنك يا صغيرتى برفق ، وانثرى بعض « البودرة » عــلى وجهك . حسنا . انك الليلة جميلة ! والآن ، لنعد الى القاعــة سريعا ، والا لاحظ القوم غيابنا » . فقالت الفتـــاة : « أصبت يا

أماه ، وقد وعدت بالاشتراك فى هذه الرقصة » • واستردت جأشها لفورها ، ثم تقدمت أمها فى الردهة

***

• **وفى** تلك الساعة ، كان ريمون بيرسى ، الذى أفجعته وفاة صديقه هوبير ، يذرع الطريق أمام دار آل روكفيار • وكانت سقوف الحصن المكسوة بالثلج تلمع تحت ضوء النجوم ببريق كئيب • وبدا برج المحفوظات وقمة برج الكنيسة كحارسين ساهرين على البلدة الهاجعة • وكان ثمة ضوء خافت يتسلل خلال مصاريع نوافذ غرفة المكتب الأربع ، التى كان الشاب يعرفها جيدا • **هناك كانت مرجريت تجلس مع أبيها ، يتألمان معا ، وقد أصابت قلبيهما طعنة جديدة !**

وتملكت الشاب رغبة فى الصعود ، ولكنه لم يجد الجرأة • كان فسخ الخطبة ، والنفور الذى أبداه أهله والرأى العام ، وظلمات الأنانية الجاثمة •• كانت هذه كلها لا تزال تحول بينه وبينهما • **ولكنه ـ فى تلك الليلة القارسة ، وخلال هذه الجولة ـ أحس بحقيقة عواطفه ، وبأن الألم والاشفاق ينميان الحب أكثر مما ينميه الفرح !**

٤ ـ الارض الملهمة

• **كان** لابد من قرار • ولكن السيد روكفيار كان يرزح منذ الأمس تحت ثقل مصابه فى ابنه •• المصاب الذى نمى اليه باخطار رسمى مقتضب ، قيل فيه انه مات فى خدمة الوطن ، بعيدا عن كل اسعاف ، فى أحد المراكز الأمامية ! بل ان الأب الثاكل لم يجد فى هذا العزاء السامى مايخفف لوعته • لقدرحل هوبير الى المستعمرات سعيا وراء المخاطر ، ليرفع الاسم الذى أهين ، فكان بذلك آخر قربان للتكفير عن خطأ موريس الذى نسى الأسرة • وكان موريس يوشك أن يمثل أمام محكمة



الجنايات ، فى اليوم التالى ، وما فتىء الجدل دائرا حول المصاعب التى تكتنف الدفاع عنه . ولاشك فى أن تضحية تراث الأسرة لم يكن عبثا ، كما أنه لاشك فى أن اصلاح الضرر الذى وقع يجعل الحكم بالبراءة جد محتمل ، ان لم يكن مؤكدا ، ويقلب ميزان الحظ فى مصلحة المتهم . **ولكن هذه البراءة بالذات ما كان ينبغى أن تنتزع بدافع من التسامح أو من الشفقة . بل كان لابد للشاب أن يغادر دار القضاء مطهرا من كل شبهة تمس سمعته ، مبرأ من كل ذنب ضد القانون أو ضد الشرف ، لكى يعود الى احتلال مكانه في البيت ، وفى المدينة ، وفى مقاعد المحامين ، ولكى يستأنف نفس تقاليد الأسرة ، وينقلها بدوره الى ذريته ..** ولكن ، كيف السبيل الى ذلك دون ذكر اسم مدام فرازن ؟ حقيقة ان السيد باستار رجع ــ بعد بيع ضيعة البرج ــ عن رفضه الدفاع ، ولكنه قال لزميله ــ بسفاهته التى تعودها : « ان هذه القضية تكلفك أكثر مما تستحق . ولكن هذا السخاء سينتزع عطف المحلفين ، فان هؤلاء القوم الذين يقيمون الدنيا من أجل بيضة ، ويقتلون من أجل شجرة كمثرى ، سيجأرون كالبقر عندما يعلمون أنك بعت أرضك لرد دين الفريسة ، ولكنهم كذلك قادرون على أن يصدروا الحكم بالادانة ، اذا انتبهوا الى المثل

السيء الذى تضربه ، واذا تكشفت صفقة السيد فرازن للمحكمة كحجة نهائية ، فى أسلوب متعمد لاثارتهم ودفعهم الى غيرة جامحة فى صالحنا ! »

كان لا يقيم كثير وزن للعدالة والانسانية ، وانما كان يدرس ملف القضية ، ويهب هذه الدراسة كل نفسه • وكان – بصيته الذائع – يفرض تأثيره فرضا • وكان من المقرر أن يزور السيد روكفيار فى الساعة الخامسة ، ليتفق معه ومع السيد هاميل على الخطوط الرئيسية للمرافعة ، للمرةالأخيرة • الا أنوالد موريس لم يكن يثق فى الأسلوب المسرحى ، وفى فن اثارة الريب ، لكسب قضية أسرته

وبعد الغداء الذى لم يكد السيد روكفيار وابنتـه يمســاه ، نهض الشيخ متأهبا للخروج •• فقد كانت أحزانه تثقل عليه وهو بين جدران البيت • ولكنه كان يجد القدرة على التفكير فى الخارج ، اذ كان الهواء ينعش أفكاره ، وقواه المستنزفة ، ونشاطه المتداعى • وما ان بلغ الباب ، حتى نادته مرجريت : « أبت ! » • فالتفت اليها فى دعة ، اذ كانت منذ وفاة زوجته – بل وقبلها – موطن سره ومشورته ، وأعظم مصدر للترفيـه فى حياته • وكان رحيل جوليان الصغير – اذ اصطحبه شارل مارسيلاز الى ليون غداة اجتماع مجلس الأسرة – قدخلفهما وحيدين ، وجها لوجه ، فى البيت الذى كان يخلو من أهله رويدا ! **وكانا قدقضيا الليلة السالفة معا حتى الصباح تقريبا ، يتحدثان عن هوبير ويبكيانه ويصليان ••**

وعندما اقتربت الفتاة من أبيها ، رفع يده فى بطء الى شعرها الجميل ، فأدركت أنهيباركها ، وان لميتكلم • وأغرورقت عيناها بسرعة ، وقدألفتا الدموع ، ثم بكت منجديد ، وقالت : «أبت •• ما الذى قررت بشأن موريس ؟ » • فأجابها : « لقداستعد باستار للدفاع عنه ، وسيحضر مع السيد هاميل فى الساعة الخامسة ، ولذلك فسأعد ارشاداتي الأخيرة في الهواء الطلق » • فسألته :

« هل أنت بحاجة الى ان اصحبك ؟ » . واجابها متلطفا : « لا يا صغيرتي ٠ لا تقلقي على ، بل انني سأفكر أثناء المشى ، اذ لاوقت لدينا كي نكفن موتانا ٠٠ فان الأحياء ينادوننا ! » ٠ واذ ذاك غمغمت الفتاة : « اذن ، فسأذهب الى السجن » ٠ فقال : «أجل ، وافضى اليه بالمصاب ! »

ـ يا لموريس من مسكين ! لكم سيتألم !

ولكن الأب قال : « ان ألمه أقل من ألمنا » ٠ فهتفت الفتاة : « **أوه ! لا يا أبت ، انه مثل ألمنا ، بل أكثر ! لسوف ينحى على نفسه بالتأنيب** »٠٠فقال :«جدير به أن يفعل ، فما رحل هوبير الا بسببه » ٠ وأمنت الفتاة على قوله : « هذا حق يا أبى ٠ اننا نبكي دون أن نؤنب أنفسنا ٠ ألا أنبئه بشيء نيابة عنك ؟ » ٠ فأجاب : « لا ، لا شيء » ٠ ولكنها هتفت : « أبت ٠٠ » ، فبادر قائلا : « **قولى له ٠٠ قولى له ان عليه أن يتذكر أنه آخر سلالة روكفيار !** »

وخرج ، فجاوز الحصن ، وصار في الخلاء ٠ وكان اليوم من أيام الشتاء الجميلة ، وقد تألقت أشعة الشمس على صفحة الجليد ، فسار ـ وهو شارد البال ـ فى طريق ليون التى تفضى الى الضيعة ، والتى كان يسلكها فى رياضته عادة ٠ وكانت الطريق تخترق حى (كونيان) ، حتى اذا جاوزت مصانع قطع الأخشاب ، عند قنطرة (سان شارل) ، اتصلت ـ بين تلال فيمين وسان كاسان المحيطة بجبلى ليبين وكوربيليه ـ بطريق طويلة تمتد حتى نهاية ممر (ايشيل) . وما أن بلغ السيد روكفيار هذا المكان ـ وهو مستغرق في أفكاره ! ـ حتى عرج يسارا ، وسلك الطريق الزراعية المفضية الى مزرعته القديمة ٠ واجتاز القنطرة العتيقة القائمة على نهر (ايير) ٠٠ ذلك الخيط الرفيع من الماء ، الذى كان يجرى بين ضفتين من الجليد ، والذى كانت أشجار الصفصاف ـ العارية من أوراقها ـ لا تخفى مجراه٠ وبعد دورة صغيرة ، ألفى نفسه عند منعرج مقفر من السهل ،

تطبق عليه سفوح (مونتانيول) التى كانت تشرئب بقمتها نحو السماء . **ولم يشعر بوحشة ، وانما انطلق يسير ببطء متخففا من أحزانه . ألم يكن فى موطنه ، تحيط به أراضيه ؟.. ألم تكن تلك الأرض هى التى اعتادت أن تسرى عنه بصداقتها القديمة الوثيقة ، وبذكريات الطفولة التى كانت تحتفظ برونقها، وبكل الماضى الانسانى الذى كان يعزو اليه ـ بعد الطبيعة ـ تكوينه ؟** .. والى اليسار : الكروم المثقلة بالعناقيد ، لا يميز منها غير جذوعها المحزومة بالاسلاك الحديدية .. تلك الكروم التى جنى ثمارها فى الخريف الماضى فقط .. والى اليمين : هذا الجدول الذى كان يعتبر الحد الفاصل بين مقاطعتين متجاورتين ، وهذا التل الذى كان مقفرا ، لا تقوم عليه سوى شجرة واحدة ، والذى زرعه بعد ذلك بأشجار الزان والبلوط التى ابتاعها بما ادخر من مال ، وحرص على تشذيبها لتحيط بأراضيه . وعند نهاية الطريق الصاعدة ، وصل الى الدار التى أصلحها ، والتى كان قدمها شاهدا على عراقة الأسرة ، وحسن ذوقها ، وقوة أخلاقها . من هنا كان ينفذ الى المزرعة ، ويلاطف الأطفال ، ويشرب كأسا من « العرق » ، الذى كان يقطره بنفسه مع المرأة التى تقيم بالمزرعة ، والتى لم تكن تخشى تأثير الكحول ! .. ثم كان يعانق بنظره الأفق الشاسع الذى كانت المرتفعات والسهول الخصبة والبحيرة البعيدة تؤلف معالمه الراسخة ، الملهمة .. ثم يرتد الى أفق المزرعة الأضيق نطاقا ، فيلم بما فيها من نباتات متباينة

هكذا أخذ يسير ساهما على التربة التى ألف السير عليها ، وبنفس الخطى النشيطة التى كان يسير بها فى الماضى ، حين كان يشعر بقوة الشباب تعاوده رغم تقدمه فى السن .. ذاك لأنه كان سعيدا ، محاطا من كل جانب بمن يحبه ويشد أزره ! على أنه ما لبث أن توقف فجأة ، اذ خطر له فجأة خاطر : « **اننى لم أعد فى ممتلكاتى ، فقد بيعت المزرعة ، ولم يعد آل روكفيار هم سادة المكان . فما الذى جئت أفعله ؟ .. لنرحل من هنا !** » ..

وعاد أدراجه منكس الرأس ، كشريد فوجىء فى حديقة خاصة ٠

ووقف عند الجدول الذى كان يفصل بين (كونيان) و (سان كاسان) ، فاجتازه ووجد نفسه اذ ذاك على بقعة من الأرض تتصل بالمزرعة - من حيث الاستثمار - وأن لم يتضمنها عقد البيع ، فهى بذلك كل ما تبقى له من أملاك !

وتوقف عند أسفل المنحدر لحظة ليسترد أنفاسه - كجيش عثر على ملاذ وهو يتقهقر ! - ثم شرع يتسلق التل فى شىء من العناء ، اذ كانت قدماه تنزلقان فيضطر الى غرس عصاه فى الأرض ليحتفظ بتوازنه ٠ ولما كانت الطريق مهجورة ، فانها صارت مسدودة تماما ، ولذلك اتجه صوب الشجرة الوحيدة القائمة على رأس التل ٠٠ وكانت من أشجار البلوط القديمة ، تركت فلم تجتث : لا احتراما لقدمها ، ولا لجمال فروعها الباسقة وقوامها السامق ، وانما لأن التلف بدأ يدب فيها ، مما هبط بثمنها ، فلم يكن ثمة ربح يرتجى من وراء قطعها وبيعها ٠ وكانت أوراقها القوية الكثيفة ملتوية - وكأنها تستجمع قواها لتحسن الدفاع عن نفسها - وقد بقيت متشبثة بالأغصان التى كانت تظهر خلال الصقيع - هنا وهناك - فى لون الصدأ ٠ وكانت جذوع الأشجار المقطوعة - التى لم ينقلها بعد قاطعو الاخشاب - ملقاة على طول الطريق المنحدرة، كأنها جثث متهالكة على الجليد!

وبلغ السيد روكفيار أخيرا غايته ، فتحسس بيده الشجرة - التى اجتذبته الى ذلك المكان - كما يتحسس المرء يد صديق، وأخذ يتأملها معجبا بضخامتها وقوتها ، وهو يقول لنفسه - بينما كان يجفف العرق المتفصد من جبينه : « **انك مثلى ٠٠ رأيت رفاقك يتهاوون ، وظللت وحيدة بعدهم ٠ ولكنا جميعا مسوقون الى السماء ٠٠ والزمن هو الفأس التى ستجتثنا عما قريب !** »

وكان صعود التل قد استغرق منه وقتا طويلا ٠ ومع أن الأصيل لم يكن قد اكتهل ، الا أن الشمس كانت قد انحدرت نحو سلسلة جبال (ليبين) ٠ فان النهار فى شهر ديسمبر قصير

جدا ، وكان تقارب الجبال وارتفاعها يزيدآنه قصرا . ومن فوق التل ، أطل روكفيار على نفس الأفق الذى كان يرآه من المزرعة تقريبا .. ففى مواجهتـه جبـل (السنيال) ، وتحتـه طريق (ايشيل) ، والى اليمـين ـ فى الطرف الأقصى ، وراء التل ـ كانت تبدو بحيرة (بورجيه) ، وسلسلة (ريفار) ، وجبـل (نيفوليه) المتناسق السفوح . وكان الجليـد يوشى الحـواف ، ويمزج المناظر بعضها ببعض ، مخففا من حدتها ، منسقا بينها .. وقد خلع عليها اقتراب المساء حمرة وردية واهنة ، فكأنها بشرة جسد حى ! .. وشعر السيد روكفيار ببرد رغم اعتدال الجـو ، فأحكم أزرار معطفه . وكان قد كف عن السير ـ الذى كان يبعث فى كيانه حرارة ـ فأحس بشيخوخته وآلامه . ما الذى حمله على تسلق هذا التل الذى ترأى له سفحه ـ بما عليه من أشـجار مقطوعة وممددة على الأرض البيضاء ـ كأنه مقبرة ؟ .. **اجاء الى هنا ، فى مواجهة ضيعته التى تخلى عنها بعد جهود أجيال عديدة لصيانتها ، كى يتأمل ما حاق به من خراب ، ويتفقد فجيعته فى آماله ؟ .. لقد كان بوسعه أن يتبين فى الجانب الآخر تلك المبانى والأراضى التى آلت اليه عن طريق الميراث . أما البيت الذى كان يضم فى العام الماضى كل أفراد أسرته ، فى ظلال السعادة وأحضان السرور ، فقد أغلق ، ولن يدخله قط بعد الآن !**

.. على هذه الأرض الموحشة الحزينة ، كان الصمت والوحدة يحيطان به من كل جانب ، كما كان الموت يحوم حوله ويتربص له ! وكما يفعل القائد المنهزم بعـد المعركة ، أخـذ يستعيد الحوادث ، ويستعرض آلامه واحدا بعد الآخر : زوجته المحطمة التى قضى عليها الحزن ، وابنته فيليسى التى وهبت نفسها لله ، وابنه الأكبر هوبير ـ خير أبنائه ـ الذى ذوى فى ميعة الشباب بعيدا عن فرنسـا ، وبعيـدا عن ذويه .. وجيرمين التى هجرت مسقط رأسها ، ومرجريت التى قدر عليها أن تظل بلا زواج لفقرها ، ثم .. ها هو ذا آخر سليل لآل روكفيار ، الذى يتوقف عليـه

مستقبل الأسرة ومصيرها ، ملقى فى غياهب السجن بتهمة مشينة ، ومهدد بأن يدان ٠٠ حتى بعد التضحية بهذا الميراث ! وأحس السيد روكفيار بأن الستين عاما التى أنفقها فى خدمة الأسرة قد ذهبت كلها عبثا ! لقدانفرط عقد الأسرة بعد أن أثقل كاهليها وزر فرد واحد من أفرادها ، فتهالكت عند أقدام الضيعة كالجذوع المقطوعة التىغاصت فى الجليد .أماهو، الذى كانت قوته وايمانه الراسخان يمنيانه بالنصر، فقددب الى نفسه الشعور بهوان الهزيمة !

واذ أحس بعزيمته تخور ، استند الى شجرة البلوط ، وكأنها رفيق له في البأساء ، وأرسل تأوها طويلاحزينا ، كأنين الشجرة التى تترنح فجأة تحتضربات الفأس المتوالية ، وتشرع في السقوط ! وخيل اليه أن السماء والأرض اللتينلفتهما ألوان هادئة ، ثابتة ، لم تعوداتصغيان الى شكاته ، فأحس بأنهوحيد، لا حول له ولا سند ! ٠٠ وانحدرت على خديه دمعتان من دموع الرجال الضنينة ، النادرة ، التى تفتت القلوب لأنها تنطوى على اعتراف بالذلة والضعف ! ٠٠ وراحت الدمعتان تنسابان على بشرته فى بطء وهما نصف متجمدتين بسبب البرد !

ولم يدر بخلده أنه كان يبكى ! لم يفطن الى ذلك الا حين لمح



شخصا يتسلق السفح بدوره ، فبادر الى تجفيف عينيه لكي لا يفاجأ وهو فى قبضة الألم ! وكان الشكل الأسود لامرأة عجوز انهمكت فى جمع الحطب اليابس وحزمه . ولم تره لأنها كانت منحنية على الارض البيضاء ، فلما اصبحت قريبة من الشجرة ، نصبت قامتها قليلا ، فاذا بها تراه . وتمتمت قائلة : « السيد فرانسوا ! » .. فتمتم بدوره : « لا فوشوا ! » .. ودنت منه ، ثم وضعت حملها على الأرض ، وراحت تبحث عن شيء تقوله ، ولكنها لم توفق الى شيء ، فأخذت تنتحب .. ولم يكن نحيبا صامتا ، بل كان عاليا مدويا . فسألها : «لم تبكين؟» . فأجابت : « أتبكى لما حل بك ياسيدى ؟ »

ــ لما حل بى ؟ ! ــ أجل !

ولم يكن قد باح بآلامه لأحد ، كما أن عزة نفسه كانت تنأى به عن مواطن الرثاء ، ومع ذلك فانه تقبل رثاء العجوز لحاله ، فبسط اليها يده متسائلا : « وهل علمت بما حل بى من مصائب ؟ » . فأجابت : « نعم يا سيد فرانسوا » .. فعاد يسألها : « وبالمصاب الأخير ؟ »

ــ أجل . علمت به من شخص من أهالى (سان كاسان) ، قدم من البلدة فى هذا الصباح !

وصمت الاثنان، ثم عادت لافوشوا تجهش بالبكاء ــ فالصمت فى أوقات الأسى لا يوائم الطبائع التى لا تزال على الفطرة ! ــ ثم أخذت تقول : « لقد كان السيد هوبير موفور الصحة ، شابا ، ظريفا مع الجميع . وكان يأتى الى المطبخ ليلقى نظرة على الأطباق ويمزح معنا ! والسيدة ؟ لقد كانت السيدة قديسة من قديسات الله ! كل هذه حسنات تجنيها فى السماء ! » . وظل السيد روكفيار صامتا ، جامدا ، يحسد الأموات على راحتهم فى القبور . بينما استأنفت لافوشوا : « والسيد موريس .. هل يردونه اليك ؟ » .. وأردفت بصوت منخفض مشوب بذلك الخوف الذى يساور الناس ازاء القضاء : « ان محاكمته غدا ! » . ورآها

تبتهل الى الله ، تسأله عونه القدسي. وتذكر - عن غير قصد - ان ابنة تلك المرأة كانت قد سجنت لأنها اتهمت بالسرقة ، فسألها عن أخبارها في تلطف - اذ أن نفسه المهيضة لم تعد تعرف الازدراء : « وابنتك ٠٠ ألديك أنباء طيبة عنها ؟ » ٠ فأجابته العجوز : « لقد عادت لى يا سيد فرانسوا » ٠٠ واذ ذاك قال روكفيار : « لقد أحسنت صنعا ! »

- آه ! ليس لها فضل فى ذلك ، وانما دفعتها الحاجة الى العودة ٠٠ لقد جاءت من ليون فى أشد حالات المرض ، ولم يزل شفاؤها مستعصيا

- وماذا بها ؟ **- الآثار المترتبة على الوضع !**

فهتف فى دهشة : « الوضع ؟ ٠٠ وهل هى تزوجت ؟ » ، فأجابت : « **لا ياسيد فرانسوا ، ولكنها رزقت بطفل ٠٠ طفل صغير ، حبيب ، مفعم بالحياة ، لا يكف عن الحركة طوال النهار ٠ وما كنت راغبة فى أن أرى هذا الملاك ، بدافع من الخزى والعار كما تدرك ٠٠ ولكننى حين نظرت اليه ، وجدته يستميل قلبى بابتسامة صغيرة ٠٠ وقد أصبح بهجتى الوحيدة ! » ٠٠**

فسألها : « أهى بنت ؟ » ٠ ولكنها صاحت : « بنت؟ ٠٠ أحسبك تريد أن تقول انه ولد ٠٠ ولد سمين مفعم بالصحة ! » ٠٠ فقال الشيخ : « انه عبء ثقيل على عاتقك ! »

- بكل تأكيد ٠ على اننى حين أعود الى المنزل فأبصر الطفل وهو يمتص « بزازته » ، أشعر بأن لمرآه تأثير كوب من عصير كرومك ، اذ يبعث فى كيانى حرارة واستساغة للحياة !

- ولكنك اكتهلت ولم يعد فى امكانك أن تعملى

- بل اننى لا أصلح لغير العمل !

وهكذا ، كانت تستمد العزاء من البؤس ذاته ! كما كان الشقاء فى أيامها الأخيرة مبعث متعة ضافية لها ! **وأعجب السيد روكفيار - الذى شغل بالقصة عن همومه - بالمرأة البائسة التى ضربت له المثل فى الصفح والشجاعة دون أن تفطن !**

وانحت المرأة لترفع حزمتها الى كتفها ، وقالت : « الى اللقـــاء يا سيد فرانسوا » . فسألها : «الى أين تذهبين ؟» . فأجابت: « الى كونيان ، لأدفع بحطبى الى الخباز » . فقال : « أنتظرى !» .. وأراد أن ينفحها بقطعة من ذات الخمســة فرنكات ، مشاركة منه فى بؤسها ، ولكنها أبت . فقال ملحا : « يجب أن تأخذيها!»

ـ ان مزرعة البرج لم تعد الآن ملكا لك يا سيد فرانســوا ، على ما يقولون

فعبس المحامى وقال : « لا ، لم تعـــد مزرعة البرج ملكا لى ، ومع ذلك فخذى هذه النقود.. انهذا سيجلب الحظ لى ! » .. وأدركت أن الرفض يجرح كبرياءه ، فبسطت يدها

وهبطت العجوز التل وهى تميل على ساقيها فى كل خطوة، حتىلاتزل قدماها . وظل السيد روكفيار يرقبها وهىتتضاءل ، حتى لم تعد أكثر مننقطة سوداء فى قاع السهل .. وألفىنفسه وحيدا ، ولكنه كان قد تغير .. **فان هذه البائسة ردت اليهماكان قد قدمه اليها فى حصاد الكروم ـ فى العام الماضى ـ من تشجيع وشحذ للهمة ، مضاعفا مائة مرة !**

وكان الليل قد أرخى سدوله فى تلك الأثناء ، فاذا بهيشيع فى الطبيعة الساكنة ـ وكأنها قد تجمدت بفعل الجليد ـ تلك المهابة الخاشعة الغامضة التى تسبق احتضار النهار . وبدت حواف الجبال وكأنها ذابت وامتزجت بحافة السماء الشاحبة.. ولم تك ثمة نأمة تعكر الهدوء الذى كان أعمق تأثيرا علىالنفس من عاصفة هوجاء !

وكان الجدول الصغير يجرى فى أسفل التل صامتا ، تحت طبقة رقيقة من الجليد تفتتت ثم تكونت من جديد. أما الارض ذات الصبغة الشاملة ، فقد بدت ملتفة فى غلالتها الناصعة كحلية وسط قطن مندوف !.. وتأمل السيد روكفيارالمزرعة المهجورة، التى فجعت فى السلالة التى ذللتها وملكت زمامها ، فاجتذبه المنظر وسحر لبه .. **لقد أيقظت « لافوشوا » فى نفسه غريزة الكفاح ، وباعدت بينه وبين اليأس . فنحى رئيس الاسرة المه**

جانبا ، ليفكر فى الابن الذى كان معنيا به . وراح يبحث عن وسيلة لانقاذه ، ولكن بصره ــ الذى تطلع وكأنه يضرع الى السماء ! ــ اصطدم بذلك الغلاف البارد القاسى الذى كان يلف الفضاء. . واذا الارض صامتة، لا تنطق بما اعتادت أن تنبىء به من تعاقب فصول الحياة .. ترى كيف يدافع عن ابنه متسلحا بالماضى وحده ؟.. وأى عون ينتظره من الارض المهجورة ، ومن السلالة التى غيبها الثرى ؟.. وبأعلى صوته، راح يردد الكلمات التى قالها له السيد باستار ، وهو ينبئه بأن المتهم رفض كل مناقشة للاتهام : « ان الانسان لا يتذرع بالموتى فى دفاعه ! »

ورمت الشمس ــ التى كانت تمس ذرى الجبال ــ آخر شعاع من نورها ، فبدا الجليد المتراكم فى منحدرات الجبال وكأنه ينتفض تحت وهجها من نعاس كان يحتويه !.. وأخيرا ، دبت الحياة فى الافق الساكن بفعل هذا الضوء ، فاذا به ــ فى صمته وصفائه ــ يحس بالحياة ويعكسها . وانفصلت الارض المرتعشة عن السماء التى كانت زرقتها الشاحبة تصطبغ بآلاف الظلال التى كان يغلب عليها اللون الذهبى . وكان الصقيع الذى جلل الاشجار والغابات القريبة يعكس أشعة الشمس الآفلة ، كتلك العدسات البلورية التى تجمع أضواء الثريات لتسلطها على بقعة صغيرة .. وكان السيد روكفيار ــ وقد ثبت عينيه على المزرعة ــ يكمل المنظر الذى كان يمثل البعث ! .. وارتدت الحياة للطبيعة بضع لحظات ، تحت لمسات المساء ، فاذا الدم يجرى من جديد فى وجهها المرمرى. وعلى طول الكروم القائمة على قمة الهضبة التى كانت بقايا أشعة الشمس تمتد اليها فى خطوط أفقية ، لم يعد المالك ــ الذى فقد ملكيته ــ يرى الارض فى لونها الأبيض الذى لا يتغير ، وانما استطاع أن يلم بحركات التربة التى ذكرته بتعاقب المواسم الزراعية : فهاهى ذى الاشجار المتناثرة هنا وهناك .. أشجار الحور الوادعة ، الباسقة ، المزهوة ، وأشجار النخيل الفارعة المستقيمة ،

واشجار الزيزفون ذات الاغصان الوارفة ، والسندس النحيل ، والكستناء المتكاثفة ، وشجيرات الفاكهة الرقيقة العود ، ذات الاغصان التى كانت – رغم رقتها ولينها – ماهرة فى حمل ثمارها .. واذا هذه الاشجار التى كانت تبدو منذ لحظة ، متشابهة مختلطة ، قد انقلبت تطفر بالحياة وكأنها أشخاص !

ولم يعد الشيخ يشعر بالوحدة ، اذ كان يعرف هذه الاطياف واحدا واحدا . وتضاربت الانفعالات فى نفسه وهو يذكر الاجيال المتعاقبة التى استصلحت هذه الاراضى ، وشيدت هذا المنزل الريفى ، وهذه المبانى الخلوية ، وتلك المزرعة ، وأسست هذه الضيعة ، منذ عرف أول ثوب لبسه أقدم فلاح من آل روكفيار عليها ، الى ذلك الزى التقليدى الذى كان يرتديه أعضاء مجلس الشيوخ – منهم – عن دائرة (سافوا) ، الى رداء المحاماة !..

كانت الهضبة التى قامت الى مثل ارتفاعه ، فى الجانب المواجه له ، كحصن احتلته سلسلة من أسلافه الذين زرعوا فى هذا الركن من الارض تقاليد الامانة والشرف والشجاعة والنبل ، مع ما زرعوا من قمح وشعير وبساتين وكروم .. وكما كان لمحاصيل هذه الارض صيت طبق الآفاق ، كذلك كانت تلك التقاليد تسطع على البلدة القابعة فى أحضان الجبال – والتى بدأ الظلام يزحف نحوها – وعلى الاقليم الذى أدت له أجل الخدمات ، وبسطت عليها حماها ، ورفعت من شأنه فى بعض فترات تاريخية .. بل لقد امتد أثر تلك التقاليد الى الوطن الذى كان يستمد قوته من استمرار قيام أمثال هذه الاسرة ، ومن عراقتها وصلابة كيانها ..

وعاد السيد روكفيار يردد مرة أخرى : « ان الانسان لا يتذرع بالموتى فى دفاعه! » ، ولكنه أردف فى الحال : « لا ، ليس بالموتى ، وانما بالاحياء .. وانهم لحاضرون جميعا ، لا يتخلف واحد منهم عن تلبية النداء !.. لقد فتحت الارض صدرها لتسمح لهم بالخروج .. ولسوف أجتاز هذا الوادى الضيق

الذى يفصل بيننا .. فأنا مشوق للانضمام اليهم ! » .. وأخذ يسبر عمق الوادى الضيق المعتم ، وكأنما احتشدت أطياف أسلافه جميعا فيه !.. وزحف الظلام على الطبيعة ، فاحتوى السهل بأكمله ، وراح يصعد والجبال تحاول أن تصده ،لاسيما جبل (نيفوليه) ذو السفح المقسم الى طبقـات ، والذى كان يقف فى وجه الغرب ، ومن ثم انصب عليه لهب الشمس الغاربة المشتعلة ، فبدا ما كان يكسوه من جليد أرجوانى وبنفسجى كأنه يشع وهجا كذلك الذى ينبعث من معدن ينصهر !

وأخذ السيد روكفيار يتتبع معركة الغروب ، وهو يطل من أعلى التل .. واذا بكل كيانه ينتفض ! فقد لمح فجأة الاطياف تصعد مع ظلال الغروب .. كل الاطياف ارتفعت مغادرة المزرعة، فى طريقها اليه !.. **كانت نفس الاطياف التى تمثلها منذ لحظة متجمعة فى الوادى الضيق ، وكأنما خفت اليه لتشعره بوجودها، وبعونها ، وبولائها !.. وانتشرت على جميع الدروب ، فكأنهـا جيش يحتشد حول قائده الواقف على قدميه عند أسفـل شجرة البلوط** . حتى اذا التأم شمل الجيش ، سمعه يناديه طالبا منه أن يقوده الى النصر : «**القد عملنا ، وأحببنا ، وكافحنا، وتألمنا ، لا لهدف شـخصى فحسب ، ولا لغرض تحقق أو لم يتحقق لكل منا ، وانما لغاية أبقى على الزمن منا .. هى الاسرة ..ولقد منحناك كل ماجمعناه للصالح المشترك، كى تسلمه بدورك لمن يليك .. وليست المزرعة هى الذخر المتوارث، فما المزرعة سوى أرض تفتنى بالعرق والدأب المنظم ، وانما الذخر هو روح سلالتنا التى تحملها بين جنبيك ، وانا لنوقن من انك قادر على الذود عنها** . ما الذى قلته فى يأسك عن الوحدة والموت ؟ .. الوحدة ؟ ألا احص عددنا ثم نبئنا : من أين انحدرت ؟.. الموت ؟ ان الاسرة نقيض الموت، ومادمت تحيا فنحن جميعا أحياء. ولسوف تبعث اذا ما لحقت بنا ، اذ ان حياتك تتجـدد فى ذريتك . انظر : هانحن أولاء جميعا حضور ، فى هذه اللحظة الحاسمة .

فارفع عنك آلامك كما رفعنا نحن الحجر عن أرماسنا ، واعلم انك أنت الذى اختص بشرف الدفاع ، وبانقاذ آخر سـلالة روكفيار . لسوف تتكلم باسمنا ، وفى وسعك - بعـد أن تتم رسالتك - أن تلحق بنا فى سلام الله .. »

واتكأ السيد روكفيار على شجرة البلوط بيده. وكان الظلام قد احاط بجبل (نيفوليه) الذى قام على أعلى طبقات سفحه صليب أخذ يتوهج قبل أن ينطفىء ، كشعاع الشمس المنحدرة للمغيب ..واذ ذاك ، استشعر الشيخ طمأنينة عارمة ، وتقبل الرسالة التى عهد الماضى بها اليه ، وهتف لنفسه : **« أنا الذى سأتولى الدفاع عنك ياموريس .. ولن أذكر قط اسم مدام فرازن ! »** .. وعندما ابتعد عن الشجرة ، أخذ يتأمل المكان الذى هم بأن يغادره ،وقال لنفسه : **« هنا ، سأشيد البناء من جديد .. أنا أو ابنى ! »**

٥ - خطبة مرجريت

• **روع** موريس موت هوبير وحطم الـكبرياء التى كانت تعزله عن الاسرة . وانصرفت مرجريت من السجن ، بعد أن أطلعته على النبأ المحزن ، فسارت فى الشـارع لاتكاد تبصر شيئا ، اذ أطبقت أحزانهـا عليها . وما أن بلغت باب الدار ، حتى سألت خادمها : « هل عاد السيد ؟ » .. كانت متلهفـة الى شـد أزر أبيها ، بعد أن شدت أزر أخيها ، وهى تقـاوم العذاب النفسى بتلك القوة المألوفة لدى النســاء أكثر مما هى لدى الرجال ، والتى تدعـو الى التسرية عن الغير ، بدلاً من الاستسلام للأحزان !

وكان الجواب الذى تلقته من الخادم : « لا ، لم يعد بعـد يا آنسة » . فهتفت فى دهشة وقلق : « لم يعد بعد ؟ » ..



كانت قد مكثت فى السجن وقتا طويلا ، وها قد حل المساء ، ولم يكن السيد روكفيار قد غادر الدار الا لنزهة قصيرة ، اذ كان يتوقع أن يزوره السيدان هاميل وباستار فى الساعة الخامسة ، ليستعرض معهما آخر وجهات النظر فيما يتعلق بجلسة الغد . ومن ثم فقد كان غيابه الطويل — فى ظروف كهذه — أمرا غريبا ! .. وقالت الخادم مستطردة : « ولكن فى قاعة الاستقبال سيدا يبغى مقابلة الآنسة » . فتساءلت مرجريت : « مقابلتى أنا ؟ » . فأجابت الخادم : « أجل ياآنسة » . فعادت الفتاة تسألها : « ومن يكون ؟ »

— لقد ذكر لى اسمه ، ولكننى لا أذكره .. انه طبيب .

وكانت الخادم ريفية لم تتأقلم بعد ، ولم تألف وجوه أهل البلدة وأسماءهم . فقالت لها مرجريت فى تأنيب : « ماكان ينبعى استقباله ياميلانى ، فى يوم كهذا » . فأجابت الخادم : « هو ذلك يا آنسة ، وما نسيت هذا ، ولكنه أبى أن ينصرف اذ جاء فى مهمة خاصة للآنسة ! »

ودخلت مرجريت قاعة الاستقبال وهى كارهة ، وقد استبقت قبعتها وقناع الحداد ، لتتعجل رحيل هذا الفضولى ،

واذا بها تجد نفسها وجها لوجه أمام ريمون بيرسي ، الذى تمتم متلعثما فى اضطراب وكأنه فتاة : « يا آنسة ! » .. وتقهقرت مرجريت فى حركة أدرك لفوره مغزاها ، فهتف فى توسل محاولا استبقاءها : « اغفرى لى مجيئى يا آنسة مرجريت .. لقد علمت مساء أمس بمصابكم ، ومن ثم .. » ، فتقدمت منه قائلة : « سيدى ! » ، ودفعته هذه الكلمة وحدها ـ بما تجلى فيها من حزم ـ بعيدا ، ومنعته من مواساتها ! فقد كانت مرجريت تكره الرثاء ، مثل أبيها ! وارتج القول على خطيبها السابق ، فطاطأ رأسه ، لائذا بالصمت. واذ ذاك قالت ، وقد لانت بعض الشىء : « لماذا أصر السيد على مقابلتى .. اليوم ؟ » . فتطلع اليها مبتهلا فى ضراعة ، وقال فى أسى : « لاننى سأكون جد متأخر ، لو انتظرت الى غد »
ـ جد متأخر ؟ غدا ؟ .. ألديك أمر تريد أن تفضى به الى ؟ .. أهو بشأن موريس ؟

كانت قد نسيت نفسها ، فلم يخطر لها انها المعنية بالزيارة. أو لم تقطع كل رابطة بينها وبين ريمون منذ عام .. منذ اليوم الذى لم تحجم فيه عن فسخ خطبتها ـ فى دار مدام بيرسى ـ دفاعا عن كرامة اسمها ؟ .. ولم يسع الشاب قط ليستعيد حبها وبدها . ثم تتابعت الحوادث كالعاصفة : بلاغ السيد فرازن ، وموت مدام روكفيار ، وصدور الحكم على موريس غيابيا ، وهوان الأسرة وخرابها ، ثم .. آخر ويلات القدر : فقدان الأب الأكبر ، الذى كان مدخرا للمستقبل . كانت هذه الأحداث من الكثرة بحيث لم تدع للشاب مبررا فى هجره ، ونأيه ، ونسيانه . ولكن ، أليس من خصائص البؤس انه يوسع الهوة بين الناس ؟ .. **لقد استنزفت مرجريت ـ فى وحدتها ـ دمعها ، وتجرعت أساها ، وعانت وحدها المرارة دون أن يقاسمها أحد . فباى حق ياتى الآن هذا الشاب**

فيفرض وجوده غير المجدى ، وعطفه المتأخر ؟ لابد أن ثمة سببا آخر دفعه الى هذه الخطوة ، ولعله يعرف شيئا يفيد الدفاع عن المتهم . ومن أجل هـذا الغرض ، وهـذا الغرض وحده ، تلتمس له العذر فى اقتحامه الباب ، ودخوله المنزل !

على ان الشاب لم يتعجل الافصاح ، وكان من الواضح انه كان يعانى اضطرابا عميقا طاغيا

وقالت مرجريت أخيرا : « تكلم ياسيدى » . فأجاب : « ان الأمر لايتعلق بموريس » . وتساءلت وهى تتقدم منه خطوة : « اذن ؟ » .. ثم رفعت القناع الذى كان يعوق حركاتها ويحجب وجهها . وبدت له فى اقترابها — وقد شدت قامتها وعضلاتها — كما لو كانت قد ازدادت بعدا عنه ! وبين الثوب الأسود والشعر الأسود ، لاح وجهها شـديد الامتقـاع ، وعينـاها ذابلتين ، وشفتاها رقيقتين كأنهما مجرد خط أحمر ! .. وحبس الشاب دموعه — لفرط احساسه بأنها بعيدة ، حزينة ، ولخوفه من أن يعجز عن الانة قلبها ، وتلهفـه الى أن يسرى عنهـا بحنـانه الفياض — واستجمع كل شجاعته ، وشرع فى الكلام متلعثما ، ثم راح صوته يقوى رويدا : « ألا انصتى لى يا آنسة .. يجب أن تصغى الى ، ولن تلبثى أن تفهمينى وان تصفحى عنى .. لابد لى من أن أتحدث اليك اليوم ! .. اننى أحترم ألمك وأحس به .. أرجوك ، لاتقاطعينى ! **ليس بوسعك أن تمنعينى من ان أحس بألمك ، فاننى أتعذب — أنا الآخر — منذ ذاك اليوم .. وان عذابى ليجعلنى أكثر ادراكا لآلام الغير . لقـد أحببتك . آه ! لاتقطعى على الحـديث .. دعينى أفرغ ما فى جعبتى ! أجل ، لقد أحببتك ، ولم أكن أتصور مستقبلى الا فى قربك . ولكننى صادفت من أسرتى مقاومة شديدة ، وعراقيل بالغة ، بسبب .. بسبب أخيك !** فان أمى — وان كانت طيبة فى قرارة نفسها — تصغى الى أقاويل الناس ، وأبى يفكر فى مستقبلى !

انه من رجال العلم ، لايعيش الا بين جدران مكتبه ، أو الى جوار مرضاه . أما البيت ، فلا سلطان له عليه !!.. وأنا .. آه ، لا .. لست أبغى أن أمضى فى اتهام الآخرين ، لكى أخفف من ذنبى . لقد كنت جبانا ، خسيسا .. ولكننى نلت عقابى، واذا كنت لم أدافع عنك ، فما ذلك الا لأننى لم أكن أعرف كيف أدافع عنك .. »

واومأت عدة مرات تحاول أن تقاطعه ، وقد وقفت منتصبة القامة ، فى ترفع غير متعمد ، فكشفت بجلاء عن ذلك الاباء الذى فطر عليه آل روكفيار ، والذى أكسبهم كثيرا من الأعداء ! وكانت فى تلك الأثناء تؤدبه بنظرة حزينة من عينيها المغرورقتين ، وبذلك الجلال الغامض الذى ورثته عن أمها . وما لبثت ان أجابته ببساطة : « ولكننى لم أطلب اليك ان تدافع عنى ! » . فقال متلعثما : « هذا صحيح يا مرجريت .. » . ونسى فى اضطرابه الاسلوب المتكلف، فناداها باسمها مجردا ، كما اعتاد ان يفعل عندما كان خطيبا لها ــ من قبل ــ ثم استطرد : « بل اننى نقمت عليك ازدراءك لى ! » .. فقالت : « لست أزدرى أحدا ياسيدى ! »

ــ بل انك طعنتنى طعنة نجلاء بنظرتك القاسية فى ذلك اليوم الذى أعفيتنى فيه من عهودى .. ماكان أشد قسوتك !

فهتفت بصوت محتبس : « أنا .. قاسية ؟ » . وقدرت ان لاجدوى من الرد ، ولكنها ثارت فى أعماقها على هذا الظلم . بينما قال الشاب : « أجل ، فما كنت أفهم حتى ذاك الوقت قيمة اعتزاز المرء بكرامته فى المحن . لقد لعنتك ، ولكن قلبى كان يتحطم ! .. كنت أتهمك بدلا من ان أعترف بتفاهة هواجسى وشكوكى ، وبافتقارى الى الرأى السليم . على اننى تغيرت كثيرا ، وأقسم لك ! .. اننى الآن معجب بك ، وأمجدك ، بل أعبدك .. أجل ! .. لاتتكلمي . دعيني أتم حديثي ! لقد حاولت

ان اسلوك ، وأراد والداى أن يزوجانى من فتاة أخرى ويطمئنا على استقرارى ، كما يقولان . ولكننى لم أستطع .. لست أحب ، ولست أملك ان أحب سواك ! » . فهتفت : « أرجوك ياسيدى » . ولكنه مضى فى حديثه : **« اذا كان ثمة قدر من الخير أستطيع ان أفعله ، فأنت مصدره . سأسمو بنفسى الى مستواك رويدا . ان الرجال الذين على شاكلتى – بل كل الرجال ! – يتأرجحون بين الخير والشر ، وبين الوفاء والأنانية .. وليس يجول بخاطرهم انهم مدفوعون بكل ما فى الحياة من سفاسف ! على انهم قد يصادفون أحيانا حافزا واحدا يرفع من شأنهم .. ولقد أمدنى حبك بهذا الحافز ! »**

وتوقف عن الكلام مترقبا كلمة تبعث فى نفسه الأمل .. فغضت مرجريت بصرها ، وتركت القناع يتدلى على جانب وجهها ملقيا عليه شيئا من الظلام . وعاد ريمون يتمتم : « مرجريت .. ردى على عهودك ، واقبلى ان تكونى زوجتى ! .. اننى أهواك ، وان حبى ليزداد لما انت فيه من آلام ! » .. ورآها ترتجف ، ولكنها أجابت فى غير تردد : « هذا مستحيل ، فلا تطلبه منى ! » . وصدمه هذا الرفض لانه صدر فى وقت كانت تساوره فيه بقية من غرور توسوس له بما فى خطوته من كرم وشهامة .. ومن ثم انفلتت منه صيحة كصيحة اليائس المتداعى ، وهتف متأوها : « ان هذا جماع هنائى ، فكيف تريدننى على ان لا أطلبه منك ؟ » . ولانت على الفور ، فاكتسب صوتها رنة جديدة ، وقالت : « ستمنحك امرأة أخرى هذا الهناء . اننى موقنة من هذا ، وأرجوه لك ! »

– لست أرى فى الدنيا امرأة سواك !

– لا ، لا .. هذا مستحيل ، فلا تعذبنى !

– مستحيل ؟ ولماذا يامرجريت ؟ لماذا تثبطين من عزيمتى ؟ انك لا تحبيننى !.. على انى قد أفلح يوما فى ان أجعلك تحبيننى ،

فهل ما زلت ترفضين ؟ .. أواه ! يا الهى !.. أتنبذيننى بغير سبب ؟

ولاح أنهـا تبحث عـن مخـرج ، فترددت ، ولـكنه كان يرتقب ردها فى لهفة . واخيرا قالت : «اننى لم اعد تلك الفتاة التى كنتهافى العام الماضى » . فقال فى حيرة : « لست أفقــه ما تقولين » .. واذ ذاك قالت : « لم أعد أملك صداقا » . فهتف : « أهذا هوالسبب ؟ .. اننى لا أستحق منك هذه المعـاملة يامرجريت . ان فى نفسك ــ فى عينيك ــ شعاعا يسطع كأنه صفاء الحياة !.. **اننى حين أنظر اليك أحس بالشجاعة تدب فى نفسى ، وبالرغبة فى الخير ، وباحتقار ونسيان جميع الرغبات الحقيرة القائمة على الماديات ! فأية قيمة للثروة اذا قيست بهذا الذى تمنحينني ، والذى يبث فى القوة ؟ »** . فقالت متسائلة « واذا حدث غدا .. » ، فلما أمسكت عن اتمام قولها ، ردد التساؤل : « واذا حدث غدا ؟ »

ــ اذا حدث أن منينا غدا بكارثة أفدح .. اذا حدث أن قضى غدا بادانة موريس ؟ !

ــ انما جئت اليوم بدافع من هذا الخطر المحدق .. جئت أنشد شرف الوقوف الى جانب أبيك فى محكمة الجنايات غدا ، كابن له .. ولهذا كان لابد لى من أن أقابلك اليوم ! »

فتمتمت : « آه ! » .. وأدرك من دهشتها ان كل ما كانت تبديه له من عدم اكتراث قد تبدد أخيرا .. وتبين امارات العطف والعرفان ــ وربما التقدير أيضــا ــ على ذلك الوجه الشاحب الذى كان يقرأ عليه كل ما كان ينتابها من مشاعر .. فتراءت له السعادة : غير مؤكدة ، وغير سافرة ، ولكنها موجودة .. يهز وجودها فؤاده . ودعمت مرجريت أمله حين مدت له يدها قائلة ــ فى غير تحرج من ذكر اسمه كما اعتادت فى الماضى أن تذكره :« أشكرك ياريمون .. لكم أنا متأثرة ، أعمق التأثر!» . ولكن هذا لم يكن القول الذى توقعه الشاب ، فأخذ يتأملها فى

ذهول قلق ، موجس . حتى اذا لاذت بالصمت ، تمتم فى حياء: « فيم الشكر ، مادمت احبك ؟ .. أحسب أن هذا الحب أعظم قيمة من أى شىء آخر » .. ثم تأوه قائلا : « مرجريت .. ألا تودين أن تصبحى زوجتى ؟ »

وقرأ على وجهها الشاحب امارات الحنان والاسى . ولكنها قالت: « ريمون .. اننى لا أستطيع » ، فهتف : « لا تستطيعين ؟ اذن .. اذن فأنت تحبين شخصا آخر » . فتأوهت قائلة : « آه ، ياصديقى ! »

ـ نعم ، انك تحبين شخصا آخر .. شخصا لم يكن جبانا مثلى ، أدرك ما تنطوى عليه نفسك ، ففهمك ، واستحقك .. بينما فقدت أنا هنائى بخطأى .. هذا عدل ، ولكن وقعه أليم على من يحب !

وانساب دمعه فمزق فؤادها . وقالت وهى تهتز انفعالا : « ريمون ، أتوسل اليك أن لاتكلمنى هكذا » . فقال : « لست أتهمك ، فأنا المذنب .. كما أن هناءك أعز على من هنائى ! » .. واذ ذاك قالت وفى نفسها أمر : « اصغ الى ياريمون ! » . فتهالك وجأة على أحد المقاعد ، مضعضع النفس ، واحتوى رأسه بين راحتيه ، غير متحرج من البكاء . وبحركة سريعة ، رفعت مرجريت قبعتها ، كالممرضة التى تتخفف مما لانفع له من ثيابها ، لتحسن اداء عملها . وتناولت يدى الشاب وأزاحتهما عن وجهه بقوة ، وقالت : « انظر الى ! » .. وسيطرت على الموقف ، لابطريقة أبيها الآمرة الصارمة ، وانما فى لطف رادع ! ولم تحاول أن تتصنع شيئا ، أو أن تكتم شيئا من مشاعرها ، أو أن تدافع عن مسلكها ، بل اقبلت عليه فى بساطة بالغة ، فاذا به يستسلم لتأثيرها ، ويطيعها بطريقة آلية . اذ أنه لم يكد يرمقها حتى كف عن البكاء . فقد تبدلت أسارير وجه الفتاة ، وأضاءتها النظرات المنبعثة من أعماق نفسها ، فبدت كالهالة التى تحف بأولئك الذين وفقوا الى الطمأنينة بعد الاضطرابات

والانفعالات .. وكساها ـ وهى حية ! ـ ذلك الوقار الصافى الذى يكسو وجوه الاموات ، فتلاشى كل أثر للالم من وجهها الشاحب وعينيها الذابلتين ، وتولاها هدوء عميق راسخ ، يكاد يكون رهيبا! .. وصاح الشاب فى لوعة ولهفة، كمن يستوقف رفيقا يوشك أن يتردى فى هاوية : « مرجريت ، ماذا بك ؟ » .. ولكنها كررت قولها السابق : « اصغ الى يا ريمون ! » . ثم أردفت : « أجل ، اننى أحب شخصا آخر ! » . فصاح ملتاعا : « آه ! كنت أعرف هذا »

ـ أحب شخصا آخر لا تستطيع أن تغار منه .. اننى لن أتزوج ، ولن أكون امرأة أحد .. لسوف أسلك طريقا آخر .. ومع ذلك ، فاننى لم أوت العصمة التى تقينى من الشعور بالزهو ازاء الحديث الذى قلته لى منذ لحظة ! .. اننى ما زلت أتمسك بالكبرياء ، وهى من عيوب أسرتنا .. ولكن توالى الخطوب علينا كان يتطلب منا أن نعتز بأنفسنا قليلا !

وارتسمت على فمها ابتسامة رقيقة ، لم تلبث أن تلاشت وكأنها أشفقت أن تغير من طهر معالم هذه الاسارير الجامدة . وعادت الفتاة تتكلم ـ بينما اعتصم الشاب بالصبر ، مستسلما للقوة الغامضة التى كانت تنبعث منها : « لا ، لن أنسى أنك اخترت الساعة التى تكاثفت على فيها أقسى الاحزان ، كى تعود لى من جديد ! » .. فهتف ريمون كالطفل : « اننى أحبك ! »

ـ يجب ان تكف عن حبى ياريمون ! .. لقد لبيت نداء آخر سبق نداءك .. سأكشف لك عن سر لا يعلم به أحد .. ولا أبى ، ولكننى لا أتردد فى أن أفضى به اليك ، فاحفظه لى : لقد عاهدت الله ـ عندما فقدت أمى ـ على أن أحل محلها فى بيتنا الذى اجتاحته النوائب

ـ أو لم تؤد هذه المهمة ؟

ـ انها لم تتم بعد

ـ وهل يمنعك الزواج من اتمامها ؟ .. اننا لن نغادر

شامبيرى

ـ ان المرء لا يستطيع أن يوزع نفسه بين اثنين ياريمون.. لقد نزلت عن سعادتى الشخصية ، وما أعظم القوة التى استشعرتها يوم نبذت هذه السعادة !

فوثب فى عنف ، وهتف محتجا : « ولكن هذا جنون يامرجريت .. ليس من حقك أن تنسى نفسك الى هذا الحد . لسوف تعيشين بعد أبيك ، ولسوف تبرأ ساحة أخيك غدا وسيعيد بناء صرح حياته بغيرك . أما أنت ، فما الذى تصيرين اليه وأنت وحيدة ؟.. وما جدوى أن تضحى نفسك من أجل وساوس زائفة ؟ » .. فقالت : « لقد طعن أبى فى الصميم ، كما أن أخى مهدد بالخطر دائما . فلا تسلبنى جزءا من شجاعتى بقولك أننى سأكون عديمة الجدوى لهما ! » .. فكف ريمون عن النضال ، اذ ساوره شعور داخلى أثارته أسارير مرجريت اكثر مما أثاره كلامها .. شعور أوحى اليه بالهزيمة . فتوسل اليها فى صوت حنون ، خجول : « واذا انتظرتك ، فهل تصدينني؟



.. اذا مكثت وفيا لك حتى تتم رسالتك العائلية ، فهل توافقين على العودة الى ؟.. اننى أحبك الى الدرجة التى أفضل عندها الصبر ، حتى لا أفقدك .. ولسوف يكون الصبر قاسيا وعذبا ،

فى آن واحد . فهلا وافقت ؟ »

ازاء هذا العرض المنطوى على شهامة وحب عارمين ، كفت عينا الفتاة عن الوميض لحظة ، فظن ريمون — حين رأى تأثرها — أنها أوشكت أن تلين ، وعاوده أمل لم تلبث الكلمات الاولى من ردها أن بددته : « **لا ياريمون .. لن أقبل قط أن أرسى أسس مستقبلى على آلامك ! هذا مستحيل ! انك لم تفهمنى تماما ! لقد وهبت نفسى لله ، فلا تحاول أن تستردنى ! »**

فصرخ الشاب فى لوعة : « أواه يامرجريت ! »

— **ان المرء اذ يهب نفسه لله ، فانما يهبها لكل من يتعذب!**

— الآن فهمت .. انك تريدين الانخراط فى سلك الرهبنة

— **لست أدرى بعد .. على أن هناك طرقا كثيرة لخدمة الله. فلا تبح بما قلت لك لأى انسان** .. أتبكى ؟.. لاتبك ياريمون . ليسكب الله عليك العزاء كما سكبه على قلبى !

فهتف : « لا .. لن أجد العزاء مطلقا ! » .. وانحدرت دموعه وهو يسألها : « ما الذى تنتوين عمله ؟ » . فأجابت : « لسوف أساعد أبى ، مابقى على قيد الحياة ، ولسوف أساعد موريس اذا ما احتاج الى . لقد عاهدت أمى على ذلك وهى على فراش الموت . وسأكرس قواى بعد ذلك لخدمة البائسين والشيوخ ، أو لرعاية الايتام . وقد أنشىء هنا مدرسة لأبناء الفقراء .. لست أدرى ، وليس بوسعى الآن ان أجزم ، فلاداعى للتعجل ، لأن الوقت لن يلبث أن يحين من تلقاء ذاته .. أفلا ترى انك الآن عليم بكل أسرارى ؟ » .. فتمتم قائلا : « وأنا ؟ .. ما الذى قدر لى ؟ .. انك تفكرين فى مواساة كل البائسين وتنسيننى ! » . فهتفت ضارعة : « ريمون ! »

— اننى أكثر تعسا من جميع البائسين . انهم لم يعرفوا السعادة ، على الاقل ، أما انا فانى ألقى بها من حالق !

— **لا ، لاتتحسر على ، فاننى لم أخلق للزواج ! .. لقد أنذرنى الله بذلك فى شىء من القسوة . أما أنت ، فانه ولا بد قد آثرك**

بامرأة أخرى أكثر مني مقدرة على اسعادك .

ـ ما من امرأة تضارعك يامرجريت .. انك لست من أولئك اللاتى يمكن الاستعاضة عنهن بسواهن !

وتسللت الظلمة الى غرفة الاستقبال مع مقدم المساء ، ولكن وجه الفتاة المشرق بالروحانية ظل محتفظا بضيائه فى هذا الظلام ، ولو أن هذه الضياء لم تكد تقوى على أن تشيع الحياة فى الصفاء الشاحب الذى كان يجلل ذاك الوجه ، حتى ليخشي المرء أن يحس فيه ـ اذا مسه ـ ببرودة الصخر ، بدلا من دفء الحياة !.. وقالت مرجريت أخيرا : « انك لن تلبث أن تنسانى .. لابد من هذا ، لاسيما وانى أرغب فيه ! » .. فتطلع اليها فى تقاعس ، كسائح يتأمل قمة لا سبيل الى بلوغها ، وقال : « لا سلطان لك على ذاكرتى » . فقالت : « اذن، فاذكرنى فى غير مرارة ، كما تذكر أختا ماتت »

ـ لا يامرجريت ، لا سبيل الى أن أذكرك دون مرارة .. لقد سموت بفكرى وفؤادى ، ثم تركتنى اهوى من حالق !

وتأثرت لقوله ، فأجابت فى لهجة جادة ، أوشكت أن تكون رهيبة : « اذا كنت قد أحببتنى ياريمون .. اذا كنت قد أحببتنى حقا ، لمنحتنى سرورا ساميا بادراكك ان رسالتى لن تكون عديمة الجدوى ، بالنسبة اليك انت الآخر .. ولما وسعك أن تقنط ازاء رفضى ، لانه يجب أن لا يضيرك ، فهو لا يستطيع أن يجرح شعورك او ان يحط من قدرك . يجب أن تكون ذكراى بلسما لحياتك لا موردا لهلاكك . ذلك لاننى أحببتك ياصديقى ، وكنت أرقب فى طمأنينة اقتراب يوم زواجنا .. وما الطمأنينة سوى هدوء النفس، وأمان المستقبل. **ولكن عاصفة غير متوقعة فرقت بيننا .. وسمعت خلالها نداء الله !.. فاذا كان الله قد شاء أن لا أحمل السعادة اليك ، واذا كان قد امتلاك انت الآخر ، فدعنى أعتقد أن هذه التجربة بالذات خليقة بان تقويك ، وترفع من شأنك ، وتسمو بنفسك**

.. واذا كنت أنا - على عيوبى ونقصى - قد ساعدت على السمو بك ، فلاتقل انك ستهوى من حالق . لسوف أصلى كثيرا من أجلك ! »

ولما كانت مستغرقة فى نجواها ، فانها لم تره وهو يجثــو أمامها ببطء ، ولكنها أحست بشفتيه على يدها ، فهتفت : « ماذا تفعل يا ريمون ؟ ألا انهض .. أرجوك ! » . ونظرت اليه وهو جاث عند قدميها ، وقد بهتت لهذا الانهيار الجديد الذى أبداه أمامها . ولم تعد أساريره تتلوى لفرط العـذاب ، وانما بدا وجهه واجما حزينا ، فى هدوء . فقد استولى عليه - دون شعور منه - ذلك الجلد وتلك السكينة اللذان كانا يشعان من ايمان الفتاة . وتمتم ريمون : « ماكنت أهلا لك .. ولكننى أحببتك كل الحب ! » . فعادت تهيب به : « ألا انهض .. أرجوك ! » . وقال وهو ينهض : **« مامن رجل جدير بك .. وهذا هو عزائى الاوحد ! »**

وتمت التضحية ، فشعرا بها كما لو كانت شيئا ماديا ملموسا ! وأخلدا الى الصمت . ودلفت الخادم - خلال هذا الصمت الجاثم ، المفعم بالحزن - الى الغـرفة التى سيطر عليها الظلام ، فوجدت عناء فى تبين مخدومتها التى ذاب شكلها فى العتمة . ونادتها قائلة : « يا آنسة ! »

- ماذا جرى يا ميلانى ؟

- لقد وصل السيدان

فقالت مرجريت :» آه ! وهل ادخلتيهما مكتب السيد ؟ » . فأجابت الخادم : « أجل يا آنسة ! » . فعادت مرجريت تسألها : « أولم يصل السـيد بعد ؟ » .. وكان الجواب : « لا يا آنسة ! »

- سليهما أن ينتظراه بضع دقائق ، فانه قادم !

وكان تأخر أبيها - دون مامبرر - قد بدأ يشغلها ، فأدرك ريمون بيرسى ان بالها قد نأى عنه . وهمس لنفســـه :

« أبمثل هذه السرعة ؟ » .. لقد كان على الاقل يشغل فكرها وقلبها عندما صدت حبه فى رفق منذ لحظة .. حتى اللوعة التى بعثتها فى نفسه ، كان مدينا بها اليها ، وكانت محببة اليه مادامت مرجريت مبعثها !.. ورمقها بنظرة أخيرة ، وكأنه يقدر فداحة الخسارة التى منى بها ، ولكى يحفر شكلها فى أعماق ذاكرته . ثم تأهب للانصراف ، متمتما : « وداعا يا مرجريت ! »

ـ وداعا يا صديقي ، فامض بسلام .. لسوف أقرن اسمك بأسماء أسرتى فى صلاتى . أفتريد أكثر من هذا ؟

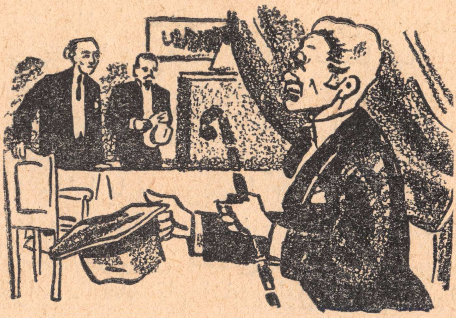
ـ شكرا .. لقد قام امامى أمل عظيم ، ولكنى هدمته بنفسى !

فأجابت بصوتها الحازم : « ان الله ـ ولست أنا ـ هو الذى أراد ذلك .. فليحفظك الله ! » . . وأنحنى لها ، ثم انصرف . وما ان ألفت نفسها وحيدة ، حتى اعتمدت جبينها براحتيها . ولكنها لم تلبث أن نهضت فسارت الى مكتب أبيها حيث رجت الاستاذين هاميل وباستار أن ينتظرا الشيخ بضع دقائق أخرى . وكان القلق يستبد بها شيئا فشيئا ، فاعتزمت أن تخرج للبحث عن أبيها .. وفى تلك اللحظة سمعت صوت مفتاحه يدور فى قفل الباب الخارجى ، فهرعت اليه قائلة : « أبى .. هأنتذا أخيرا ! » .. فجفف السيد روكفيار العرق الذى تفصد من جبينه رغم البرد ، لفرط اسراعه فى السير ، وسألها : « هل حضر السيدان يا مرجريت ؟ »

ـ انهما ينتظرانك ـ حسنا ، اننى ذاهب اليهما

ووقفا وجها لوجه فى الردهة المضاءة . **ولما كانا قد افترقا فى قنوط وتداع نفسى ، فقد أدهشهما أن طالع كل على وجه الآخر نوعا من صفاء النفس بدد ماكان يعلو أساريرهما من حزن وخوف ! واحسا بالهام روحى منبعث عن الثقة : فقد كان الاب ينصت الى نداء الماضى المنبعث من أجيال سحيقة .. وكانت الابنة تصغى الى نداء الله !**

٦ ـ الدفاع



• ما أن ولج السيد روكفيار غرفة مكتبه مسرعا ، حتى بادر زميلاه ـ اللذان كانا يتجادلان ـ الى النهوض لملاقاته . **ولم يتمالكا نفسيهما من الدهشة حين ألفيا ـ بدلا من الرجل الذى هده الاسى لوفاة ابنـه ـ زميلهما روكفيار المعهود ، الذى كان مرهوب الجانب فى المحكمة ، وموضع الشورى فى المسائل العويصة العاصفة ، لرجاحة حكمه وحزم قراراته .. والذى كانت شخصيته الطاغية تقابل ـ كنظرته الثاقبة ـ بالحرج والمضض**

وقال فى سهولة اغنت عن الاعتذار : «لقد تركتكما تنتظران» .

وكان السيد هاميل ـ بتاج شعره الابيض ، وقسماته الحادة ، وترفعه المتكلف بعض الشىء ـ يبدو فى شكل وقور .. كما كان السيد باستار بلحيته المرسلة على صدره ، ورأسـه المائل الى الخلف ، يفرض شخصيته ويحتل الصدارة فى كل مكان .. ومع ذلك فقد بدا المحاميان ـ فى حضرة السـيد روكفيار ـ كما لو كانا فى حضرة رئيس كان أولهما يتقبل رياسته عن طيب خاطر ، وكان الثـانى يتقبلهـا على الرغم منه !.. وتلاشى ماكانا يمتازان به من امارات التفوق ، امام

امارات أخرى لاسبيل الى انكارها اوتجاهلها . وتمتم النقيب الشيخ وهو يبسط يده الى السيد روكفيار : **«ياصديقى !»** .. بينما قال السيد باستار فى تكلف : « يازميلى العــزيز » . وراحا يعزيانه : الاول فى ود وتأثر ، والثانى فى عبارات عادية ، فأجاب مضيفهما وهويشير بيده ، قاطعا عليهما استرسالهما : **« أجل ، لم يبق لى غير ولد واحد . وهذا الولد سأنقذه .. أجل ، أريد ان أنقذه ، واليكما ماقررت »**

وكان هذا الاجتماع الاخير قد عقــد بالذات بين المحامين الثلاثة ليتفقوا نهائيا على خطة الدفاع ، فاذا بواحد منهم ينفرد بالرأى دون مشورة .. وهتف نقيب المحامين ، الذى أخذ بهذه الثقة وذلك الحزم : « آه ! » ، بينما رد السيد باستار فى شك ، وهو موزع بين احترام حداد رب الدار ، وبين اعتداده بقيمة نفسه : « قررت ؟ »

وفى هدوء ، وصوت رنان ، أماط السيد روكفيار اللثام عن فكرته بكلمات قلائل : « ستساعداننى انتما الاثنان .. فأنا الذى سأتولى المرافعة ! » .. فهتفا معا : « انت ؟! » .. « انت ؟! » . وكانت احدى الكلمتين مفعمة بالدهشة ،والثانية حافلة بالغضب . وحدق السيد هاميل فى رفيق الجهاد القديم بعينيه الخابيتين اللتين كان بريق الحياة يرتعش فيهما واهنا ، وان ظل محتفظا بصفائه .. فى حين تلقى المحــامى الآخر فى استياء نبأ اعفائه من المرافعة فى قضية حساسة ومدوية .. ونسى ظروف القضية والمصائب التى نالت من الاسرة واسلمتها الى اليأس بعض الوقت ، لكى يقصر تفكيره على الانتصار الذى كان يرجوه لشخصه ، ثم انتزع منه بقسوة !.. وقال السيد روكفيار فى لهجة الاستاذ اللطيف الذى يعرف ــ رغم مجاملته ــ كيف يفرض ارادته : « أجل ، انا ! .. سأطالب بابنى فى قوة ولسوف يرد الى .. فما من أحد ينكر ابنا على أبيه ! »

اما وقد أملى ارادته ، وكأنها أمر ، وأعرب عن نواياه فى الصراع ، فقد راح يعمل على استبقاء حليفيه ، فى شىء من

الديبلوماسية .. فقد كان خبيرا فى الجمع بين أسلوبه الآمر وبين فن قيادة الرجال . ولما كان موقنا من معونة النقيب ، فقد ركز كل جهوده على السيد باستار ، الذى كان خليقا بأن يتخلى عنه : « لسوف تحضران معا ، اذ اننى أعول عليكما ، واذا كنت أطلب أن أحل محلك يا باستار ، فليس ذلك لاننى أقيس كفاءتى على كفاءتك ، وانما لان هناك أمورا يمكننى موقفى الخاص الاليم ــ كرب الاسرة ــ من أن أفسرها للمحلفين ! »

ــ وماهى هذه الاشياء ؟

ــ انها سر أحتفظ به ، وستعرفه غدا . وانى لاعتقد اننى كفيل باقناعهم ببراءة ابنى ، دون أن أورد اسم مدام فرازن !

ــ هل ستتوسل لذلك بزوال الضرر الذى وقع ؟

ــ لا ، بل مباشرة !

ــ لست أفقه شيئا

ــ لسوف تسمع كل شىء . ومع ذلك ، فاذا شعرت بشىء من الضعف فى صوتى أو كلامى ، واذا كانت مرافعتى توحى اليك بالخوف من الفشل ، فانى أعتمد كل الاعتماد على مالك من خبرة عظيمة بالمحاكمات الجنائية ، وعلى مالك من حضور بديهة عجيب !.. ان وجوه هؤلاء القضاة كتاب مفتوح بالنسبة لك ، كما انك أفضل منى الماما بالقضية ، وقد تأهبت لها . ولهذا فبوسعك ان تحل محلى . وبهذه المساندة سأشعر بأننى قوى .. فهل انت راغب فى ذلك ؟

وأخذ المحامى ــ الذى أزيح بلباقة عن الدفاع ــ يحك لحيته برفق ، وهو يخفى استياءه وراء مظهر من عدم الاكتراث . وقال : « وما الجدوى يازميلى العزيز ؟.. ان معاونتى لك عديمة النفع ، فأنت فى غير حاجة الى أحد !.. انك لاتحجم عن الاضطلاع بأسمى الاعباء وأشقها ، فاسمح لى بأن أعتبر مهمتى منتهية ! » . وكان المتحدثان فى تلك الاثناء واقفين ، بينما جلس السيد هاميل فى ركن بجوار المدفأة ، يرقبهما بعينين زائغتين قليلا ، دون ان يشترك فى الجدال . وما لبث

الاستاذ روكفيار ان اقترب من زميله الذى كان يصغره سنا ، فوضع يده على كتفه فى حركة تنم عن ود، ، وقال : « **انى ادرك يا باستار اننى أسألك خدمة كبيرة . واذا كنت أطلب شرف الدفاع بنفسى عن ابنى ، فافهم ان اسمى هو الذى أنتوى الدفاع عنه .. ولست أنكر قط الفرص التى تتيحها لنا كفاءتك ، ودرايتك ، ولباقتك النادرة .. ولكنك لوكنت فى موقفى لفعلت ما أفعل .. فقدم لى هذا الدليل المعبر عن الصداقة وانكار الذات ، والتقدير ايضا . انك بذلك تثبت لى مدى ادراكك لكلامى . أرجوك !** »

وظل السيد باستار يتخلل شعر لحيته الطويل بأصابعه المضطربة وهو يوازن بين القبول والرفض ، واضعا نصب عينيه - فى كل مرة - تقاليد الزمالة فى الهيئة التى كانوا ينتمون اليها ، وكبرياءه الجريحة التى كان يجد عناء فى وضعها فى المرتبة الثانية . كان قد فرض خدماته فرضا تقريبا ، لا لانقاذ موكله فحسب ، وانما لينتزع أيضا نصرا شخصيا فى ساحة مكتظة بالناس ، ستضم ولاشك خيرة القوم ، ولاسيما النساء التواقات الى سماع مرافعته !.. وبدلا من ان يتأمله القوم واقفا فى مجده مسيطرا على الموقف ، سيراه هؤلاء القوم - صفوة المجتمع - جالسا ، وكأنه سكرتير للسيد روكفيار الغريم الخطير الذى طالما اصلاه بردوده اللاذعة فى الجلسات . فهل يليق به وضع مهين كهذا ؟! .. ثم ان حضوره الجلسة لن يكون مجديا ، فان والد المتهم قد يكون - فى غمرة تحمس بديع - واهما او مخدوعا فى قوة الحجة التى واتته فجأة ففتنته ، والتى يقدم على اماطة اللثام عنها .. والتى خطرت له بايحاء حزن قد يكون أوهن من قوته المعنوية وقوته الذهنية معا !.. ان هذه الحرارة المصطنعة التى تشيع الحياة فيه ، قد تخبو بين لحظة وأخرى ، ليحل محلها أشنع أنواع الانهيار . فكيف يأمل او يتوقع القدرة على بذل جهد

حيوى عنيف كذلك الذى تتطلبه مرافعة كهذه ـ أعدت فى أمد قصير ـ من رجل هده القدر .. رجل أفلس ، وانتزع منه ابنه الاكبر بقسوة فى الليلة الماضية ، ولكنه مع ذلك يريد أن يضطلع بنفسه بعبء الدفاع عن آخر ابنائه وانقاذه من ادانة مشينة ؟ .. ان الامر كان بعيدا عن المعقول ، ومن الخليق ان يفسر هذا القرار الجديد بانه من وحى الانفعال الغامض المنبعث عن الالم .. **ومن ثم يجدر بالسيد باستار ان يكون على أهبة الاستعداد ، فقد يدعى الى الدفاع فى آخر لحظة .. هكذا توحى الحكمة !.. وهذا مايمليه عليه ـ دون نزاع ـ واجب العناية بالدفاع ، الذى يجب ان يطغى على كل فكرة لدى المحامى ، وعلى كل مصلحة شخصية بالذات !**

على ان الاعتداد العجيب ، الذى كان السيد روكفيار يبديه ازاء الخطر ، حد من قوة هذه الدوافع الكريمة . فما لبث السيد باستار ان قال : « لا ، ليس بوسعى أن أجيبك الى طلبك . اننى آسف : فاما ان آخذ على عاتقى مسئولية المناقشات ، واما ان انسحب تماما ! » . فقال السيد روكفيار : « ان الامر يتعلق بابنى ، ومن الانصاف ان لا أتخلى عن الدفاع عنه »

وهنا غادر السيد هاميل مكانه ليتدخل فى الامر ، فى الوقت المناسب ، قائلا : « بوصفى نقيبا للمحامين ، اسألك يازميلى العزيز ان تعاوننا . اننى أفهم دواعى ترددك ، وكان من الممكن ان أقدر رفضك فى أية ظروف أخرى .. قد تكون لدى السيد روكفيار أسباب خاصة تجعله راغبا فى الدفاع عن ابنه ، رغم ان العادة جرت بأن يوكل أمر الدفاع عن الاقارب الى الغير . ولما كانت الخطوب قد أبهظته ، فلابد ان تكون الى جواره ، اذ انه قد يتعرض لخطر المبالغة فى الثقة بمقدرته .. وانى لاصر على رأيى » .. أما وقد تطور الامر الى التذرع بالواجب بدلا من الاستجداء ، والى اللجوء الى السلطان بدلا من الاقناع ،

فقد طرح المحامى عنه كل تردد ، وعمد الى البت ، فقال للشيخ فى لهجة أقرب الى الفلظة : ((**لا ، لا .. مستحيل ! لقد عرضت مساعدتى فى أكمل صورها ، ولكنها اقتضبت ، وتغيرت خطة الدفاع دون استشارتى ، وأخفيت عنى حجة لابد وأنها حاسمة قاطعة .. وفى هذه الظروف ، لا أملك سوى أن انسحب ، وانى لمنسحب !**)) . ولم يتبد على وجهه المتجهم سوى امارات الكبرياء الجريحة ، والتفت الى السيد روكفيار ليضيف فى مجاملة مصطنعة : ((هل ترغب فى مذكرات مرافعتى ؟ انها توفر عليك بعض الجهد ، وانى لاضعها تحت أمرك))

— فكر جيدا يازميلى .. يا صديقى .. لا تهجرنا فى المعمعة !

— ان قرارى حاسم

— نهائيا ؟ — نهائيا !

واحتفظ السيد روكفيار فى حديثه الاخير بمظهر متعال ، هادىء ، ادهش زائريه . ولما كان النقيب غير مطمئن تماما الى نتائج هذا الرفض ، فانه حاول استبقاء السيد باستار ، بالرغم مما كان يحسه نحوه من نفور طبيعى . فقال له : ((أتوسل اليك ان لاتحرمنا من معونتك !)) . ولكن المحامى أجاب : ((اننى لحزين لهذا .. صدقانى !)) .. فقال والد المتهم ، دون أى انفعال : ((اذن ، فاننى أسترد منك ملف القضية ، ومحضر المعاينة — على الاخص — وتحليل الادعاءات ، وصيغة الحكم الذى صدر غيابيا)) .. وكان فى عدم اكتراثه هذا ما أشعر باستار باهانة .. فعلى الرغم من أنه لم يكن ينتوى أن يلين للرجاء ، الا انه — بمافى الطبيعة الانسانية من تناقض — لم يكن يصدق أن فى الامكان الاستغناء عنه ؟.. ومن ثم استأذن زميليه فى الانصراف وقد اكفهر وجهه غضبا . وفى خارج حجرة المكتب ، شد مضيفه على يده بقوة — على السلم — وهو

يشكره بحرارة اذ وافق على ان ينسحب من تلقاء نفسه . **ولم ير السيد باستار فى هذه المجاملة المصطنعة سوى اهانة بالغة ، فراح يذرع البلدة ، محطما لدى الرأى العام عدالة قضية آل روكفيار ، معلنا غرور الاب ، واحتمال ادانة الابن !**

ولم يفلح السيد هاميل ـ بعد انصراف المحامى ـ فى أن يخفى أساه ، وهواجسه ، وقلقه الذى راح يعذبه ويزيد من وطأة السنين على كاهليه . أليس ابعاد المحامى المعروف فى القضايا الجنائية ـ طواعية ـ تصرفا بعيدا عن الحكمة ؟ .. أوليس ينطوى على مغامرة قد يدفع آل روكفيار ثمنها غاليا ؟ .. ما الداعى الى الاقدام فى الساعة الاخيرة على اتخاذ هذا الاجراء الذى من شأنه ان يشيع الاضطراب والفوضى فى معسكر الدفاع ؟.. وأعرب عن هذه الآراء فى تلطف مشوب بالحزم ، فلما رأى حديثه يضيع عبثا ، كف عن الاسترسال فيه ، وقال فى لهجة حزينة : « ياصديقى : لقد جئت منذ لحظة ووجهك مشرق بالهام نفسانى ، فأدركت وانا أنظر اليك انك لن تصغى الى أحد . فمن اين كنت قادما ؟ » . فأجاب السيد روكفيار ، الذى كان قد احتمل تأنيبه فى احترام : «من ضيعة البرج .. **لقد تحدث الموتى الى .. انهم لا يريدون من دجال ان يتذرع بما يناقض فضـــائلهم من أجل خطأ أحد أحفادهم ! ..** فهتف النقيب الشيخ مأخوذا : « الموتى ؟ »

ـ أجل ، أمواتى .. أولئك الذين كونوا عشيرتى وصانوها . لسوف يكونون غدا الضامنين لشرفنا . فكم عدد الذين ضحوا بأنفســـهم ـ منذ أول اسم منا الى اسم ابنى الاكبر ـ فى سبيل المصلحة العامة .. أفتريد ان لايكون لهذه التضحيات حساب ؟

ـ اننى أؤمن بعودة الروح وأفهمها . ولكن ، هل يفهمها المحلفون ؟

فقال مضيفه فى اعتداد اهتز له الشـــيخ : « يجب أن

يفهموها ! » .. وقال النقيب : « ان ثمة شيئا يسرى فى كيانك ويؤثر فى اولئك الذين يتحدثون اليك ، فينساب الى نفوسهم ! أجل ، لسوف تدافع عن ابنك خيرا من أى محام آخر ، فان لديك القوة والسطوة ، وسيكون لى شرف معاونتك غدا . لأتركك الآن للعمل ، فوداعا ! » .. ولف كتفيه النحيلتين بمعطفه البالى ، وسار الى الباب بسرعة مباغتة

وبعد أن اصطحب السيد روكفيار النقيب الى الباب الخارجى ، نادى : «مرجريت !» . وظهرت الفتاة فى التو ، قائلة : « هأنذى ! » . فقد كانت فى الحجرة المجاورة ، تنتظر اللحظة التى يعود فيها ابوها .. وقال الشيخ : « تعالى ، فانى أريد ان أتحدث اليك » . وقادها الى مكتبه وسألها فى عجلة : « هل رأيت موريس فى السجن ؟ » فأجابته « نعم يا أبى ، وقد بكينا معا ! »

ــ بكيتما ؟ .. نعم ، ان قلبى قد انتزع من مكانه ، ولكننى لا أبكى مع ذلك . ولسوف أغدو حرا ــ مساء غد ــ فى ان أبكى ماأسعفنى الدمع . أما قبل ذلك ، فلن أزرف دمعة واحدة !

وكانت مرجريت قد ارتاعت بعض الشىء لذلك التحمس الذى رد الشباب وأضاء ذاك الوجه العزيز الذى طالما تتبعت ماتعاقب عليه من امارات الالم التى سببها ماحل بالاسرة من نكبات . لذلك انتهزت الفرصة دون ابطاء ، لتتم مهمتها فى اصلاح ذات البين بين أبيها وأخيها ، فقالت : « ان موريس يطالب بمكانه فى قلبك يا أبى » . فقال : **«انه لم يفقده قط !»** .. وهتفت الفتاة وقد أشرق وجهها : « كنت اعرف هذا جيدا .. أتصفح عنه ؟ » .. وقال الاب : **« لقد صفحت عنه منذ أمد طويل »** .. فصاحت الفتاة : « آه ! »

ــ أتراك شككت ياصغيرتى فى أبيك ، ليلة عاد أخوك ؟

ــ آه ! لا ، فلماذا لاتنبئه بذلك ؟

ــ انه لم يسألنى اياه

ـ بل انه يسالك اياه .. وهو يرجوك أن توجه الدفاع عنه الوجهة التى ترتضيها ، دون اى قيد . فهو يوقن انك ستعنى بكل مايمس شرفه !

ـ دون أى قيد ؟ .. لقد فات الأوان !

ـ ولماذا فات الاوان ؟

ـ لاننى أعفيت محاميه ، مسيو باستار

ـ ومن الذى سيتولى الدفاع ؟ ـ أنا !

فهتفت مرجريت وهى ترتمى بين ذراعيه : « آه ! كنت قد كففت عن الامل فى ذلك ! لقد طالما رغبت فى ذلك ! » . وضم السيد روكفيار ابنته الى صدره بقوة ، وهو مشغول البال بمهمته الجديدة العاجلة ، وقال : « انك تثقين دائما فى يا صغيرتى ، فاذهبى واحضرى لى سجلات الاسرة كلها ، حتى القديم منها » . وفى غيبة ابنته عن الحجرة ، تسلم ملف القضية الذى أرسله السيد باستار ، ففتحه وراح يقلب أوراقه وهو يتأمل ساعته : « لقد ناهزت الساعة السادسة ، فهل سيكون لدى متسع من الوقت ؟ » .. وراح يتأمل ـ فى كرب ! ـ أكداس الكتب الضخمة التى أخذت مرجريت تحضرها على دفعات .. وأخيرا قالت الفتاة : « هاهى ذى .. ان لدينا الكثير مما هو أقدم منها عهدا » .. **كانت هذه المجلدات تضم عمل وكرامة وشرف خمسمائة عام !.. وقدمت مرجريت لأبيها فى النهاية كتابا أقل حجما من سواه ، وقالت وقد تضرج وجهها قليلا : « هنا لخصت تاريخنا ، وسجلت خطوطه الرئيسية ، لاسيما الخدمات التى اديت من أجل الوطن .. انه ملخص فى كثير من التوسع ! »**

ـ هل حدست أننا قد نحتاج اليه يوما ؟

ـ لا ، يا أبت .. انما كتبته فى الشتاء الماضى ، لأرد على الشانئين الذين حاولوا النيل منا . وقد قرأت على امى فقرات منه ، فأقرتنى !

ـ انك كنت بهذا تعدين الدفاع عن موريس !
ـ بهذا ؟ ـ أجل ، فدعينى أنصرف للعمل
وما ان ابتعدت حتى ناداها ثانية وقال : « لدى أمر آخر أريد أن أقوله لك يامرجريت » .. فارتدت اليه الفتـــاة مسرعة . وقبل أن يتكلم أخذ يغمرها بتلك النظرة الابويةالتى تهب دون أن تأخذ ، وتذود دون ان تحقد . وتأمل هدوء أساريرها وشحوبها وحلاوة ملامحها . ثم قال : «لقد صادفت ريمون بيرسى وأنا ألج الدار ياصـغيرتى .. كان فى الطابق الاسفل ، على عتبة الباب الخارجى ، جامدا بلا حراك ،مستغرقا فى التفكير ، مضطربا .. ولقد تقدم نحـوى خطوة ، وكأنه يريد أن يتحدث الى . ولكنه لم يجد الفرصة ، لاننى سرعان ماتجاوزته ! » .. فلم يبد على الفتاة أى تأثر ، بل أجابت : « لقد كان منصرفا من هنا يا أبى »
ـ آه ، وماذا كان يبغى ؟ ـ ان يقف بجوارك غدا
ـ يالها من فكرة ؟ .. وبأية صفة ؟
ـ بوصفه ابنا لك ـ ابنا ؟ اذن فقد طلب يدك ؟
ولما أجابت الفتاة : « نعم » ، هتف : « ومعذلك فانك أخفيت عنى النبأ .. **لقد رثى الله لحالنا يا مرجريت .. لقد أشفق علينا لفرط مامسنا منمحن ! وان تصرفريمون بيرسىلنبيل ، فهو لم ينتظر حتى نبرأ أمام الرأى العام من كل اتهام ثميعود الينا ! .. وبماذا أجبته ؟ »** . فقالت : « لقد رفضت ! » .
واذ ذاك أجفل السيد روكفيار فى دهشة ، ثم جذب اليه ابنته فى حنان ، وراح ينظر الى أعماق عينيها الصافيتين . وقال : « رفضت ؟ ولماذا ؟ أستطيع ان أحدس السبب : لقد فكرت فى امرى يا عزيزتى ! انك تضحين بنفسك من أجل أبيك ، ولكن أباك يرفض هذا ياعزيزتى ، فلطالما قلت لك ان الآباء يضعون حياتهم فى المرتبة الثانية بعد حياة أبنائهم .. هـذا هو الأمر الطبيعى ، والعكس خطأ ! » . فتمتمت الفتاة قائلة :

« لكم أحبك يا أبت ، وانك لتدرى ذلك . ولكنك تخطىء فى حدسك ، واقسم لك ! »

ـ الم يكن الرفض من اجلى ؟

ـ لا يا أبت !

وتبين على الوهج النقى ـ الذى كان ينبعث من عينيها الصافيتين وينعكس على الوجه الشاحب ـ حقيقة نفس ابنته . ألم تسنح له الفرصة ، مرة قبل اليوم ، كى يفهم هذه الحقيقة ؟ **كان الله ينتزع منه أولاده واحدا بعد آخر ، فاية حمى تلك التى كانت تستبد بهم وتكويهم وتدفعهم الى الزهد فى الحياة ؟! ألم يكن خليقا به ان يرى فى هذه القرابين المتعاقبة كفارة عن المذنب ؟!** .. وتذكر اذ ذاك صباح يوم من ايام الصيف ، وقد وقف على ميناء مارسيليا يرقب ـ على بواكير ضوء النهار الوليد ـ تلك الباخرة التى أقلت ابنته فيليسي الى الصين . ولم يتمالك ان ضم مرجريت بقوة الى قلبه المرتجف ، وتمتم : « أنت ايضا ؟ » . فطوقت عنقه ، وهمست فى أذنه ، وهى تقبله : « ليس الآن يا أبى »

ـ أتنتوين ذلك بعد موتى ؟ ـ نعم !

واستبقاها برهة متكئة عليه كما تفعل الطفلة المدللة .. وكما كانت تفعل فى الايام الخوالى ، حين كان يمسك بها فى حذر . وأخذ يفكر فيما كان يشعر به وهى لاتزال بقربه .. وتردد فى أن يقبل منها تلك المهلة التى انبعثت عن اشفاقها من ان تتركه وحده . ولكن مرآة كانت فى مواجهته عكست أمامه صورة تلك الوحدة التى جمعت بينه وبين مرجريت . ولمح بنظرة واحدة ما اعترى وجهه من تغيرات خلال العام الاخير ، ثم قال لنفسه : « غدا سأكون قد أنقذت موريس ، وبذلك تنتهى مهمتى . ولن اعمر بعد ذلك طويلا ! » .. وانحنى على ابنته فلثم وجهها الحبيب ، اشارة الى موافقته . ثم عاد الى الفكرة الرئيسية التى كانت تختمر فى رأسه ، فطرح

العواطف جانبا ، وشرع يتأهب للمعركة ، وهو يقول : «اعدى العشاء فى الساعة الثامنة . ان أمامى عملا يستغرق حوالى الساعتين ، هما الفترة اللازمة لاستعادة تفصيلات هذا الملف ، وان كنت أعرفها . ولسوف آوى الى فراشى فى الساعة التاسعة ، لاستيقظ فى الثالثة صباحا . ثم أعد دفاعى من الثالثة حتى التاسعة .. أى الى ما قبل بدء الجلسة ! »

ــ حسنا يا أبى . لقد تسلمت خطابا من جيرمين .. ان قلبها معنا !

ــ اقرئيه على أثناء تناول العشاء

ــ ولسوف يحضر شارل غدا بقطار الساعة الواحدة ، فليس بوسعه أن يأتى قبل ذلك

ــ سأنتظره ! ــ والآن أتركك يا ابى !

وما أن اغلق الباب خلف مرجريت ، حتى أمسك فى وجد بصورة لهوبير كانت على المنضدة ، فتأمل طويلا رسم ابنه الاكبر ، وقال فى سريرته يخاطبه : « **اغفر لى لأنى أقصر كل تفكيرى على أخيك . غدا أناديك ، وأتحدث اليك ، وأبكيك .. فلا تخش أن أنساك ، ولكنك ترى اننى لست حرا .. غدا سأخلو اليك . أما الليلة فاننى ملك لسلالتنا بأسرها !** » ..

ووضع الصورة أمامه فى رفق ، وطوى لوعته ازاء الضرورة الملحة .. وانهمك فى العمل

٧ ــ جان ساسيناى

• **مثلت** مرجريت روكفيار أمام المحكمة ، اطاعة لابيها ، فادلت بماكان لديها من بيانات عن المال الذى كان معدا لجهاز عرسها ، والذى أسلمته الى أخيها موريس ، فى ليلة رحيله الى ايطاليا .. وعن المال الذى ارسلته اليه فى (أورتا) ، ثم عادت الى دارها فى عجلة ، وكأنما طغى عليها الخجل اذ ألقت ضوءا على جودها وسخائها !.. لقد استطاعت بهذا الجهد

المحدود ان تساهم فى الدفاع عن المتهم !.. وراحت تلوم نفسها على ما اعتراها من ضعف ، وما تولاها من خجل وارتباك وهى تجيب عن اسئلة رئيس المحكمة .. فقد كانت تضمر مروءتها فى أعماقها ، وكان اظهارها للملأ لا يروق لها . وأخذت تنعى على نفسها تواضعها الذى تراءى لها كما لو كان جبنا ، فخشيت ان تكون قد أساءت بترددها الى ماكانت ترمى اليه من جعل شهادتها واضحة صريحة

ترى ماالذى جرى قبل دخولها الى قاعة الجلسة ، وبعد خروجها منها فى عجلة ، كما لو كانت هاربة ؟.. لم تكن تذكر شيئا من هذا ، وكان ماتذكرته هو ذلك الوجل الذى استحوذ عليها من جراء هذا الاتصال القصير بالعدالة ، والذى لم تستطع أن تتغلب عليه . فما أن ضمها مع الشهود الآخرين المكان المخصص لهم ، حتى سمعت الحاجب يستدعيهم واحدا بعد آخر ، ثم رأتهم يختفون .. وكان عم ابيها « اتيين » ، وزوجة عمها « تيريز » من بينهم . وظلت وحيدة تقريبا ، حتى حل دورها ، فاقتيدت الى قاعة الجلسة . وكالممثلة الجديدة حين يدفع بها على المسرح ، راحت ترتجف وهى تلمح الحشد الذى زخرت به القاعة : تحت المنصة التى فى الصدر ، وفوقها ، وفى القاعة ، وفى الشرفة .. كانت ثمة انظار كثيرة تحدق فيها وكأنها تخزها وتجرحها .. **كانت بلدة (شامبيرى) بأسرها هناك ، تحملق فى غير اشفاق ، فى ابنة وجلة ، ولعلها ستحملق بعد قليل بنهم فى أسرة عريقة تحتضر !**

والفت نفسها أخيرا أمام ثلاثة قضاة فى زى أحمر ، والى يمينهم مقاعد المحلفين . وكادت تسقط على الارض وهى تذكر اسمها ، لولا أن جلجل فى أذنيها صوت أبيها .. هذا الصوت العذب ، الدافىء ــ الذى كانت تألفه ــ فشد من أزرها فى الحال ، وكأنه دواء مقو للقلب !.. وكان المحامى يقف أمام موريس وكأنه يحميه .. وكان هادئا الى درجة ادهشتها

وتقلت اليها عنه عـدوى الطمـأنينة . وكان يملى فى نبرات واضحة صيغة السؤال الذى يريد أن يوجهه اليها . ولقيت عناء فى سبيل الاجابة بوضـوح ، ثم اذن لها بالانصراف ، فانطلقت الى خارج القاعة كصيد يلوذ بالغـابات ، وهى تلوم نفسها قائلة : « **لن يرضى أبى عنى .. ما أقواه فى اعتـداده وطمأنينته !.. وما أعظم تمالكه نفسه ، وما أشد مهابته ! لقد نهض مرتين ، فأحسست فى كل مرة بصمت عميق يسـيطر على القاعة .. وكانت عيناه تشـعان لهيبا .. وكان يبدو شابا .. انه قوتنا وعمادنا !** »

وعاد السيد روكفيار ـ فى منتصف السـاعة الواحـدة ـ للغـداء ، فما أن بلغ الباب ، حتى قال للخادم : « أعدى لنا الطعام بسرعة يا ميلانى ، فانى فى عجلة ! » .. وكانت تبدو عليه سيماء المجاهد : فقد تجعـد جبينه ، وانطلقت نظراته سديدة ، لا سبيل الى تحاشيها ، ومن الصعب الصمود لها ، بينما تقلصت عضلات وجهه .. كانت الليالى الاخيرة التى قضاها مسـهدا قد تحالفت مع الأسى والقلق فمكنت للشـيخوخة من أن تدب الى قسـماته ، وان كانت ارادته الفولاذية قد حدت مؤقتا من أثر تألب السنين والتعب والحزن عليه !.. وسألته مرجريت فى رجاء : « ما الانباء يا أبى ؟ » . فقال مطمئنا : « ستستأنف الجلسة فى الساعة الثانية »

ـ ألم تنته القضية ؟ ـ لا ، لا

ـ وما الذى جرى ؟ ـ كأنك لم ترى شيئا

ـ أوه ! لا يا أبت . لقد غادرت المكان ، فقص على كل شىء .. الا انظر ، اننى ارتعش !

ـ ينبغى أن لا ترتعشى يا مرجريت .. كونى واثقة !

وخلال تناول الطعام ـ بسرعة ، ودون شهية ـ شرع يلخص لها المناقشات : « لا شك أنك لم تفهمى شـيئا من الاجراءات الرسمية الخاصـة بالمحلفين ، وبحلف اليمين ،

وبالاتهام ، وباستدعاء الشهود ! » . فقالت : « لقد كنت على مقربة منك فى القاعة يا أبى . وعند ما نودى اسمى نهضت وأرشدت الى حجرة أخرى ، وجدت بها العم اتيين والعمة تيريز »

— هذه كانت قاعة الشهود . لقد ابتدأت أقوال الشهود بعد قراءة قرار الاتهام ، والمحضر الذى أعده رئيس البوليس عن سرقة المائة ألف فرنك ، واستجواب موريس الذى أصر على أنه برىء ، ورفض أن يتهم أحدا رغم الحاح رئيس المحكمة .. ثم شهود الاثبات . ولقد كان رئيس كتبة فرازن أكثر الناس تحاملا على موريس . ان هذا المدعو فيليبو يكرهنا لسبب أجهله ، اذ أدلى بشهادته وقد استبد به سعار التشهير والتعريض ، وراح يورد قرائن اخترعها وفسرها وفق هواه — فى خبث ولؤم — وصاغها فى شكل أدلة لا تقبل الدحض !

وتساءلت مرجريت : « وما هذه القرائن ؟ » . فأجاب : « معرفة وجود نقود فى الخزانة الحديدية ، وامكان اكتشاف الارقام السرية لقفل الخزانة — من المفكرة — وان لم يستطع اقامة دليل على ذلك .. ثم بقاء موريس فى المكتب ومعه المفاتيح الى ساعة متأخرة من الليلة التى سافر فيها الى الخارج .. واستحالة تصور وجود متهم آخر .. وغير ذلك . ولقد ردد الكتبة الآخرون شهادته كتلاميذ يرددون درسا لقنوه ، ولكنهم كانوا أقل تفصيلا وتأكيدا . وحان فى النهاية دور خادم مدام فرازن ، التى أغروها — ولابد — بالمال ، لانها ادعت بأن سيدتها لم تلج حجرة المكتب قط ، فى غياب السيد . ولكن ، أية قيمة لهذا ؟ أكان على مدام فرازن أن تستدعى خدمها كى يشاهدوا عملية اختلاس المال ؟.. على أنى مضطر الى أن لا أتهمها أنا الآخر ! »

— ولكن موريس لم يعد يعارض فى ذلك ؟

— **لن أفعل ذلك . لقد دفعنا فديته ، وليبق السر دفينا**

الى الابد !.. ولقد ذكرت اسمك واسمى عمك أتيين وعمتك تيريز كشهود نفى ، لاثبت أن موريس لم يسافر وهو معدم بلا مال . كذلك ذكرت اسم الموظف الذى يعمل فى شركة الائتمان ، الذى سلمك فى آخر اكتوبر الماضى اذنا بمبلغ ثمانية آلاف فرنك تصرف باسم أخيك من المصرف الدولى بميلان .. واخيرا ، اسم الاستاذ دودان الموثق

فتساءلت مرجريت : « ولم ذكرت هذا الأخير ؟ » . فقال : « ليبين حقيقة المائة الف فرنك التى دفعتها عن طريقه للسيد فرازن ، واسم المشترى الحقيقى لمزرعة البرج . ولقد أحله الرئيس – بعد مشورة السيد لاتاش ، رئيس غرفة الموثقين – من سر المهنة ، فاستوجب هـذا ان يكشف للمحلفين عن الصفقة الرابحة التى دبرها السيد فرازن » . فسألته الفتاة : « اذن ، فالسيد فرازن هو الذى اشترى المزرعة ، لنفسه ، وليقيم حيث كنا ؟ » . فسألها الاب بدوره : « أو لم تعرفى هذا ؟ » . فأجابت : « ماكان ليخطر ببالى .. وما أكثر الاشياء التى لا أفهمها !.. لقد كان يبدو عليه – فى موسم حصاد العنب الماضى – الاهتمام بالاستقصاء والتحرى .. كان مهتما بكل شي ! »

– أجل ياصغيرتى .. انه هو الذى سيحل محل آل روكفيار، ويستأنف عملهم . لقد استولى على كل شيء ، دون مقابل !

ثم أستأنف الحديث بعد هذا التعليق المرير : « لقد بدأ محاميه الكلام فى الساعة الحادية عشرة » . فسألته : « وأى محام هو يا أبى ؟ » . فأجاب : « محام يدعى بورتيريو ، من ليون . **فانه لم يوفق الى محام من شامبيرى !** »

– مراعاة لخاطرك ؟

– بلا شك !

– وما الذى جرؤ على قوله ؟

ـ انه رجل ماهر ، بارع الاشارة ، عنيف فى اتزان وبرود .. ولقد شرع يرسم لموريس صورة مغرضة ، تمثله كشباب اليوم الذى لا يقوى على كبح جماحه شيء ، ووصفه بأنه متطرف فى تفسير حقوقه الفردية ، حريص على تنمية شخصيته وعلى الفوز بسعادته ولو داس فى سبيل ذلك سعادة سواه ، ويأبى الانضواء تحت لواء مجتمع منظم ، وانما هو ـ فى النهاية ـ من أولئك المثقفين ، الفوضويين ، القادرين على أن يتجاوزوا نطاق الافكار ، الى نطاق الاعمال . واستطرد يقول : **« سلوا زملاءه وأصدقاءه .. انهم لايستطيعون ان ينكروا انه لم يكف فى مناقشاته قط عن ازدراء وهدم الاوضاع القائمة ، وانه يقصر اعجابه على النظريات الهدامة التى ينادى بها فيلسوف المانى يرى أن المثل الاعلى للانسانية ـ أى الرجل المثالي ـ هو ذاك الذى يبنى صرح سعادته على أنقاض وآلام الصغار ، والعزل ، والضعفاء ! .. ومن ثم لم يوفق المتهم الى التفاهم مع أبيه ، لانه كان يضيق ذرعا بسلطانه عليه ! »**

فتمتمت مرجريت مستنكرة : « أقال هذا ؟ » . فأجابها أبوها : « أجل ، فأنا أوجز لك ماقال .. لقد اتخذ منى حجة ، ومن اسرتنا حجة أخرى تذرع بها ليزعم ان المتهم لايستطيع ان يلتمس لنفسه عذرا ، متعللا بسوء تربية ، أو بنقص تعليم ، أو بقدوة سيئة ، أو بطفولة تعسة تملأ نفسه مرارة الى الابد .. ولست أحب أن أروى لك ما صور به اغراء الشاب لمدام فرازن ، من اجل مصلحته الشخصية » . فهتفت الفتاة : « مصلحته الشخصية ؟ » . فأجاب أبوها : « أجل ، فان موريس فى استهتاره بجميع القيم الخلقية ـ كما صوره المحامى ـ اشتهى المرأة والمال معا ، دون وازع من ضمير .. ولما تمكن الاستاذ بور تيريو ـ أو ظن انه تمكن ـ من أن يجعل سوء استغلال الثقة أمرا ملموسا ، طرق موضوع الاتهام ، وتلك التى لم يتورع عن ان يسميها بالادلة المادية : مدام فرازن

توافق على الرحيل ، والزوج غائب ، واليوم مناسب ، والساعة ليس لها مثيل . ولما كان العشيق لا يملك ثروة خاصة ، فلا بد من ان يبحث عن نفقات الرحلة .. وهو يعلم بوجود المبلغ الذى قبض ثمنا لمزرعة (بيلفاد) ، وقد اكتشف الرقم السرى فى مفكرة ، فعمل على ان يستولى على المفاتيح ، ودبر البقاء بمفرده فى المكتب ، ثم أخذ المبلغ وفر مع عشيقته الى الخارج .. فهو ليس المذنب الوحيد فحسب ، بل لا مذنب هناك سواه ! »

وسألته مرجريت : « ومدام فرازن ؟ » . فقال : **« مدام فرازن ؟.. ليتهمها .. ليجرؤ على اتهامها ! .. لقد لاذ بالصمت فى التحقيق ، وهو يتشبث به فى الجلسة .. اننى اتحداه أن يتهمها ! » .. « هكذا قال المحامى الذى علم ولابد ـ عن طريق عدم حيطة باستار ! ـ بعناد موريس الكريم . واستطرد مبينا أن هذا الصمت يدينه ، لانه بمثابة اعتراف ! »**

وغادرا قاعة المائدة الى غرفة المكتب . وكانت مرجريت تسمع خلال هذا التلخيص اللاذع ـ الذى حرص ابوها على سرده بأمانة ـ هدير الغضب والاسى الابويين ، فذعرت ، وتمتمت : « أنعتبر فى حكم الضائعين يا أبى ، أم لايزال لديك أمل ؟ » . فأجاب : « بل لايزال لدى أمل » . وعادت تسأله : « ومتى تنتهى القضية ؟ » . فقال : « سيستأنف السيد بورتيريو مرافعته فى الساعة الثانية .. بعد أربعين دقيقة » . فهتفت : « ألم يكتف بما أساء به الينا ؟ »

ـ لايبدو عليه ذلك . فان لديه حجة أخيرة يريد ان يسوقها وتساءلت مرجريت فى قلق : « وماهى ؟ » . فأجاب السيد روكفيار : « مايعتبره اعترافا جديدا ، ممثلا فى تسديدى مبلغ المائة الف فرنك . وأعتقد ان دورى سيحين قبل الساعة الثالثة . وفى الرابعة ، أو الرابعة والنصف ، أكون قد فرغت

من مرافعتى » . ثم اردف متظاهرا بهدوء البال : « ان قطار شارل يصل فى الساعة الواحدة . فلا بد من ان يكون زوج اختك قد وصل » .. وفعلا ، لم يلبث شارل مارسيلاز ان طرق الباب بعد قليل . وأقبل على حميه قائلا : « ما الانباء يا ابى ؟ لقد بكت جيرمين وهى تودعنى — فى هذا الصباح — فحذا الاولاد الثلاثة حذوها . ان البرقية التى ارسلتها أمس أحزنتنا كل الحزن . يالهوبير المسكين ! »

— لقد كنت فى انتظارك ياشارل ، فان مكانك الى جوارى .. ستطلعك مرجريت على الانباء ، ريثما تتناول غداءك . فاتركانى بضع دقائق ، وكن مستعدا ياشارل فى الساعة الثانية الا خمس دقائق

— لسوف تجدنى متأهبا . آه ! .. أريد أن أنبئك بأننى دبرت اجراءاتى لأرد لك نصف صداق جيرمين ، على أن ادفع الباقى فيما بعد

وكانت لهجته تنم عن عدم الرضى ، كمن لم يألف فعل الخير ، ومن ثم فهو يفعله مكرها ! .. كان تيار الصالح العام قد جرفه ، ولكن عقله ظل يعترض ، وان أبى ان يعلن تخلفه .. على أن السيد روكفيار قال له : « لست أقبل ! » . وكان تأثره بهذه التضحية أقوى من تأثره بالعوامل المعارضة التى اكتنفتها وحاولت منعها ، فأردف : « ألا قبلنى ! » .. وهكذا توثقت عرى الالفة بين الاسرة فى البأساء ..

وخلا المحامى الى نفسه ربع ساعة ليستجمع الحجج التى سيسوقها فى مرافعته .. وكان مارواه لابنته ، فى ثورة نفسية عاتية ، قد خفف من الغضب والهوان اللذين تكاثفا فى نفسه منذ الصباح ، وهو يصغى الى الاتهامات المشينة التى وجهت الى ابنه . لذلك استراحت أعصابه ، وانفثأ غضبه كبحر تعاوده السكينة بعد هبوب الريح !.. **وعندما حانت اللحظة التى كان عليه ان يعود فيها الى دار القضاء ، تبينت مرجريت فى اساريره**

انه صار أهدأ نفسا .. ورأت فى نظرته ذلك الصفاء الذى عاد به من المزرعة ليلة أمس .. فقالت تودعه : ((الى المساء يا أبى .. وليساعدك الله !)) . فأجاب مسرعا وقد بلغ البـــاب الخارجى : ((الى المساء ياصغيرتى .. مع موريس !))

* * *

• ما احتبست الفتاة نفسها فى غرفتها لتصلى ، حتى أقبلت جان ساسيناى تنشد مقابلتها قائلة للخادم : « الآنسة مرجريت ، من فضلك » .. ولما كانت الخادم قد أصبحت أكثر صلابة ويقظة ، منذ الوقت الذى أصر فيه ريمون بيرسى على مقابلة مرجريت ، فقد رفضت فى اصرار أن تجيب هـذا الطلب غير المناسب ، قائلة : « ان الآنســة متعبــة ، وهى لا تســتقبل أحدا » . فهتفت الزائرة : « فليكن .. ولكنى سأراها رغم ذلك » . وازاحت الخادم المشدوهة عن طريقها ، قبل أن تتمكن هذه من أن تعترضها ، وركضت فى الردهة نحو غرفة صديقتها ــ وكانت تعرف موقعها ــ ثم راحت تطرق الباب فى عجلة ، وولجت فألقت بنفسها فى أحضـان مرجريت هاتفة : « أنا القادمة ، فلا تطرديني .. ليس لميلانى ذنب فى ذلك ! » . وصاحت مرجريت : « أهذه أنت يا جان ؟ لماذا أتيت ؟ » . فأجابت الفتاة : « لانك وحيدة مهمومة .. ان هناك عددا كبيرا من السيدات اللاتى ذهبن الى الجلسة وكأنهن ذاهبات الى حفلة اللهو والسمر . أما أنا ، فقد رأيت أن مكانى هنا ، بجوارك . اننى أحبك كل الحب » . فربتت مرجريت خد صديقتها قائلة : « ما أطيبك ! »

ــ آه ، لا ! كل ما هنالك هو اننى أكن لك ودا كبيرا .. لقد كنت أعجب بك منذ صغرى ، ولكم أود أن أكون مثلك !

وغيرت الفتاة مجرى الحديث فجأة ، اذ قالت وكأنها تسر اليها بأمر خاص : « تصورى انهن اتخذن أبهى زينة ، ليذهبن الى دار القضــاء .. تماما كما لو كن ذاهبــات الى حفلة

صباحية ! » . فتساءلت مرجريت : « من ؟ » .. وأجابت الفتاة : « هؤلاء السيدات ! » . فقالت الآنســة روكفيار فى حسرة : « أجل .. ان الامر يمس شرفنا ، ومن ثم فهو مشهد ممتع ! » .. فأمسكت جان ساســينای بيـدها وقالت : « اما انا فلا يساورنى أى قلق » ، ثم أردفت فى لهجة المسيطر الذى يحسم نزاعا : « وعلى العموم ، فبأى وزر خطير يؤاخذ اخوك ؟ .. أبأنه اختطف امرأة ؟ .. ليس هذا بوزر يذكر ! » .. وابتسمت مرجريت بالرغم من حزنها ، فتشجعت صديقتها على المضى فى حملتها : « انك لتفهمين جيدا ان المرأة لاتنتزع كما تنتزع الشائبة عن الثوب ! .. اننى أنشب أظافرى فيمن يقدم على أختطافى ، وأعضه ، وألحق به ضررا جسيما .. مالم أكن راغبة فى الرحيل معه ! » .. فهتفت مرجريت : « صــه ياجان ! »

ـ آه ! من يدرى ؟ ان المرء اذا احب صار قادرا عـلى كل شىء .. فالحب شىءفظيع !

ـ وما الذى تعرفينه عنه ؟

ـ ولم لا أعرف عنه شيئا ؟ .. اننى لى أعد صبية صغيرة !

وضغطت الآنسة ساسيناى قبعتها التى فقدت التوازن فوق شعرها الاصفر ، ثم أخذت تنسق الخصلات التى تهدلت على جبينها ، وتصنعت شرود البال ريثما تتغلب على حمرة الخجل التى سرت فى وجهها . ثم تساءلت : « وهـذه المرأة الشريرة ، أتظنينه لم يعد يحبها ؟ » . فقالت مرجريت : « موريس ؟ .. لا أظن ! »

ـ أواثقة انت ؟

ـ انه لايتحدث عنها

ـ أولم يرها أحد بعد فرارها ؟

فأجابت الآنسة روكفيار : « لا » . فاندفعت جان تقول : « هذا أفضل ! اننى اكرهها ، فهى ـ أولا ـ لم تكن جميلة الى

هذا الحد . صحيح ان عينيها كانتا جميلتين ، ولكن نظراتهما كانت متكلفة . ولقد كانت لها ابتسامات ، وغمزات ، وتكلف مفر ، وفن فى تصنع اوضاع رأسها على عنقها ، وهزات اكتاف وارداف » .. ونهضت عن مقعدها بسرعة ، وراحت تسير فى الحجرة مقلدة مدام فرازن ، ممثلة حركاتها واشاراتها العصبية التى كانت تنم عن فورات داخلية . فصاحت مرجريت : : «جان .. أرجوك!». ولكن الفتاة استأنفت حديثها، وقد استبد بها الحماس ، قائلة : « لا ،لا، أؤكد ان السمراوات لايضارعن الشقراوات ، لا في اللون ولا فى البهاء . فانت بشعرك الكستنائى تجمعين جمال النساء جميعا .. ولكنك لاتتكلفين ولا تتصنعين .. ثم اننى اكرهها ! »

ــ ولكن .. من تقصدين ؟

ــ **مدام فرازن ، لانها امرأة مشئومة ، تجلب النحس . ولقد أصاب أخاك من ورائها شر وبيل ! .. لقد أشقته ، ولم تكن تحبه ، فهى الجديرة بأن تلقى فى السجن . أما اخوك ، فسوف تبرأ ساحته . ولعلك تعلمين ان ابى وأمى يتحمسان له . وقد كان والدى ينفر منه ، ولكننى أنبته ولمته . ولكم اود ان أراه مطلق السراح . فاذا تحقق ذلك ، فهنيئه عنى .. لابد ان الامر سينتهى على خير وجه ، فيقضى ببراءته**

وكانت تثرثر دون توقف ، فقاطعتها مرجريت فى لطف : « هل تحبين ان تصلى معى ياجان ؟ » . فأجابت الفتاة : « اذا راق لك ذلك » . ومن ثم جثت الفتاتان جنبا الى جنب ، ولكنهما لم تكادا تشرعان فى صلاتهما ، حتى دوت طرقات على الباب . واذا الخادم تقول وهى تدفع الى الآنسة روكفيار ببضع رسائل : « البريد ياآنسة » . وهنا قالت مرجريت لصديقتها : « أتأذنين لى ؟ ان اليوم هو الموعد الذى اعتدت ان أتلقى فيه خطابات هوبير . آه ! ها هو ذا خطاب منه .. لقد كنت أرتقبه ! » . وبيد مرتجفة فضت غلاف الخطاب

الوارد من السودان . وهكذا اشترك الضابط الشاب فى مأساة الاسرة من وراء حاجز الموت ! .. وما أقل الامـور التى تهـز المشاعر قدر مايهزها تسلم ادلة الود من اولئك الذين لم يعد لهم وجود ! وأفلت من مرجريت ذلك التجلد الذى كان يبديها - حتى ذاك الوقت - فى مظهرمن الهدوء والسكينة ، فأرسلت صرخة مفعمة بالامل ، وهى تتلو الخطاب . ولاذت جان بالصمت وقد تغلب عليها الارتباك ، فلم تجد ما تواسيها به . ولكن مرجريت مالبثت ان تمالكت جأشها من تلقاء نفسها ، فما كانت تلك ساعة البكاء او الاستسلام للاحزان .. الم يرسم لها أبوها خير مسلك يحتذى ؟

وتمتمت مرجريت : « هوبير ! » ، وبدا عليها برهة أنهـا كانت تفكر فيما يجب أن تفعل ، ثم هتفت : « يجب .. يجب أن أذهب الى دار القضـاء فى الحال » . فسـألتها جان : « ولمـاذا ؟ » . وكان الجواب : « آه ! لان هوبير كان هو الآخر يفـكر فينا ! » . وحملقت فيهـا جان مذهولة ، وغمغمت : « هوبير ؟ »

- أجل ، كان يعرف أنه موشك على الموت ، وقد حاول فى بداية الخطاب أن يموه علينا ، وأن يدخل علينا السرور . ثم .. ثم كتب .. اليك ماكتب . يا الهى ! ان عينى لم تعودا تبصران .. اليك : « ومع اننى مضطر الى البقاء هنا ، دائما ، الا أننى سأجود بحياتى ضحية من أجل اسمنا ، ومن أجل سـلامة موريس ونجاته .. » ، ومن ثم ترين اننى مضطرة للذهاب الى دار القضاء ..

وانفجرت جان باكية . وكان التحمس قد بلغ بمرجريت مداه ، فقالت وهى ترتدى قبعتها وقناعها : « اننى واثقـة من أن أبى فى حاجة الى هذا الخطاب ، ومن ثم لا أملك أن أحجم عن الذهاب ! » .. لقد كان من خصائص الاسرة أن ثمة رباطا غامضا يربط - عبر الزمان والمكان - بين أمواتها وأحيائها !..

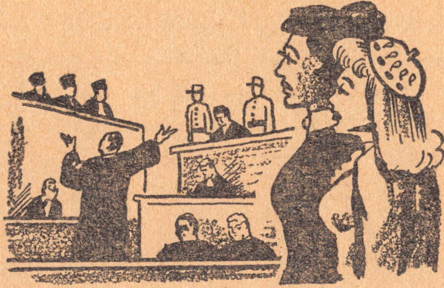
وقالت جان — فى اصرار — بدورها : « ســأصحبك ! » . فهتفت مرجريت : « أجل ، تعالى ! ســأزداد شـجاعة فى صحبتك ! » . واندفعت الفتاتان الى الخارج ، واجتازتا موقع القصر الذى كانت واجهته القاتمة تتدفأ تحت شمس الشتاء ، وسلكتا دروبا تساعد على تقصير المسافة . حتى اذا اجتازتا ساحة السوق ، أشرفتا على دار القضاء فى دقائق قلائل . فسألت مرجريت حارس الباب فى أدب : « أين تعقد الجلسة يا سيدى ؟ » . فأجاب : « هنــاك يا ســيدتى ، فى الطابق الاسفل . ولكن القاعة مكتظة ، وان تستطيعا الدخول » . فقاطعته جان ساسيناى قائلة : « بل لا بد لنا من الدخول ! ان معنا خطابا .. مستندا هاما يجب أن نسلمه لمحامى المتهم »

— مستحيل يا سيدتى ، فقد بدأت المرافعة ، والوقت جد متأخر . ولكن ، من تكونان ؟

فرفعت أخت موريس النقاب ، قائلة : «الآنسة روكفيار » . واذ ذاك قال الحارس : «آه ، لابأس .. اتبعانى !» . كان الاسم قد أحدث فى نفسه مفعولا عجيبا ، فقادهما الى الباب المخصص للشهود ، وقال : « ماعليك سوى ان تفتحى الباب يا آنسة ، فتجدين مقاعد المحامين امامك .. الى اليسار قليلا . وبعد ذلك ، اخرجى من الباب عينه ، مالم تجدى مكانا خاليا لتجلسى فيه ! » .. ولما كان الحارس فى خوف من تصرفه ، فقد أردف قائلا وهو يترك الفتاتين : « أرجو — بوجه خاص — أن لاتذكرا اننى انا الذى قدتكما الى هنا »

وكانت مرجريت فى المقدمة ، فوضعت يدها على مقبض الباب . وسمعت حديثا فى القاعة . ولكنها لم تستبن صوت أبيها .. كان مصير موريس ، ومصير آل روكفيار ، يتقرران معا فى تلك الساعة ، خلف ذاك الباب ! ولكنها كانت تحمل التميمة العظمى .. من لدن هوبير !

٨ ـ صوت الاموات



• **ودخلت** الفتاتان . وكانت الساعة قد تجاوزت النصف بعد الثانية ، وقد اوشك الاستاذبورتيريو ان يفرغ من مرافعته المسمومة المهينة ، ليترك الجمهور ــ الذى ضاقت به القاعة والردهة ، واختلط حابله بنابله ــ كى يلتهم كل فرد منه نصيبه من الاكلة الساخنة التى قدمها اليهم المحامى المحنك القاسى ، والتى صنعها من قلب آل روكفيار النابض ! .. وشوهدت الفتاتان تتمشيان على وجل ، بعد ان اجتازتا الباب، فقال الموثق كولانج : « انهما قادمتان للبحث عن زوجين ! » .. وكان الموثق اذ ذاك يشرح ــ مع الاستاذ بايبه ــ ماكان يجرى فى الجلسة ، لبضع سيدات من الطبقة الراقية ، وقد خيل اليه ، اذ قال ماقال ، انه يتظرف ! .. وصاحت احدى هؤلاء السيدات ، وهى تبدى اشمئزازا : « انظر الى هذه الوقحة ! » .. **ذلك ان « جان » استهانت باحتقار البلدة كلها ــ بينما كانت مرجريت تسعى الى أبيها لتسلمه خطاب هوبير ــ فاستدارت فى جراة وهدوء ، بل فى زهو ، نحو موريس روكفيار الذى كان يجلس فى مقعد العار ، وأومأت اليه بيدها وقد ارتسمت على فمها ابتسامة عريضة !**

وكوفئت على جرأتها فى الحال ، اذ رأت اشراقة العرفان بالجميل تسطع على وجه المتهم .. ذلك الوجه الذى أصابه الضمور والتغضن ، وكأنما كان يتقلص فى محاولته أن يظل جامدا تحت وابل السباب والتشهير . وسرعان ما أثار هذا الحادث تعليقات الحضور جميعا . ولما كانت مرجريت مطأطئة الرأس ، فانها لم تلق بالا الى شىء مما حدث . وكانت هى الاخرى قد حيت أخاها ، ولكنها كانت أكثر تحفظا من زميلتها . ثم همست فى أذن هذه : « فلننصرف ! » . فأجابتها جان وقد تملكتها الرغبة فى حضور المناقشات : « أوه ! لا .. سأمكث ! »

وأومأ لهما السيد روكفيار ــ بحركة سريعة ــ الى مكانين خاليين فى مقاعد الشهود ، كى تجلسا . وكانت الشمس تنفذ خلال النوافذ الزجاجية ، ولكنها كانت بعيدة عن مقاعد المحلفين ، فتركتهم فى الظلال لتلقى ضوءا على مقاعد القضاة ، والمحامى العام والمحامين والمتهم بوجه خاص ، وكأنها تبرز مشهدا يعرض فى مسرح . وهكذا ظهر الاستاذ بوتيريو وهو يهتز ويكرر اتهاماته ، مختتما مرافعته بملخص مركز لحججه ، وهو يضفى لهجة التأكيد تارة على قائمة من القرائن أخذ يكدس بعضها فوق بعض ، ويفسر تارة أخرى امتناع المتهم عن ذكر اسم مدام فرازن وسداد مبلغ المائة ألف فرنك بالكامل الى السيد فرازن ، على أنها اعترافات لا تقبل الدحض . ثم انتهى الى أن طالب ــ بعنف ! ــ بصدور حكم صارم رادع على هذا الشاب الذى احترف الحب النفعى ولم يتورع عن أن يسلب مع شرف المرأة خزانة الزوج !

ثم جلس المحامى وقد أثارت مرافعته المسهبة ــ التى ألقاها مبالغا فى اصطناع الاشمئزاز والغضب ــ همسات غامضة لا تحصى ، تشبه وسوسة الموج .. همسات تتناقل من شفاه الى شفاه دون أن يعرف مصدرها . كانت المرافعة كوابل من

السهام المسمومة تصوب تباعا ، وفى غير هوادة ، وفى اتجـاه واحد .. بل من الممكن أن يقال ان المحامى كان يصوب سهامه الى الاب ، وهو يتظاهر بتسديدها الى الابن .. كان يصوبها الى الاب – الذى أجبره الشعور بالعار على رد المبلغ – ويهدف من وراء تصويبها الى أن ينال من الاسرة التى كانت تتمرغ ، مع ابنها المذنب ، فى الوحل !.. كان أقسى مما ينبغى عـلى فريسـته ، وأثبت أنه خصم عنيد لا يتـورع عن أن يدوس جثث خصومه بقدميه ! والواقع ان الموثق أحســن اختيار المحامى الذى يتحدث باسمه ، فما كان يتصور أن يتدفق كل هذا السم وهذه المرارة من فم واحد !.. ولقد اضطر السيد روكفيار الى أن يلتفت الى ابنه وزوج ابنته – أكثر من مرة – ليهدىء ثائرتهما ، ضاربا بنفسه المثل فى الهـدوء وضبط النفس أثناء العاصفة .

وقال رئيس محكمة الجنـايات : « الكلمة الآن للمحامى العام » .. وكان صوته حزينا ، وكأنما أراد ان يقول : «ماالداعى الى محام ثان للاتهام ؟ » .. ودفع الفضول المدعى العـــام – السيد فاليروا ، الذى كان يجلس وراء المحامى العام – الى ان يميل الى الامام ليسر ببضع كلمات الى زميله . ولكن هذا أبدى ماينم عن رغبتهفى استبعاد رأىلاداعى له ، واكتفىبأنذكر أنه يعتمد على تقدير المحلفين فى قضية رفعت بناء على شكوى المدعى بالحق المدنى ، وسبق للقضاء ان أصدر فيها حــكما غيابيا . فما لبث الرئيس ان صــاح فى لهجة قوية : « الكلمة للدفاع ! » ، وكأنه يبدى اغتباطه لاعفائه من الاصغاء الى اتهام آخر . وهنا سأل الاستاذ هاميل زميله روكفيار – اذ كان يجلس الى جواره : «أمستعد انت ؟» . فهتفالسيد روكفيار : « بلا شك . ولماذا ؟ »

– تكلم انت اولا ، واذا دعت الضرورة فسأحل محلك !

وأدرك السيد روكفيار ان النقيب الشيخ كان لايزال يتأرجح

تحت وطأة تقاليده العتيقة التى لاتسوغ له الدفاع فى أمثال هذه القضايا ، ولكنه ادخر جهوده ليبذلها اذا ماتعطل الدفاع بتأثير الانفعال والضعف والعجز ! على انه وافق على اقتراح زميله قائلا : « حسنا ! »

وفى خلال هذا الحوار المتبادل همسا بين الشيخين ، أخذت الاحاديث الخاصة بين أفراد الجمهور تزداد شيئا فشيئا ، هنا وهناك ، فتشيع فى جو المكان كما يشيع الغبار بعد مرور موكب ما : قال كولانج ــ الموثق الذى كان من أنصار السيد فرازن ــ معلقا على حملات محامى هذا الاخير : « لن يبرأ آل روكفيار قط من هذه الجراح ! » . فعارضه السيد بابيه ــ الذى كان حاضر الدعابة دائما : **« ايه ! ايه ! .. انتظر رد الاب ، فلن تلبث أن ترثى للاستاذ بورتيريو ! »** .. وعقب واحد من عامة الشعب ــ سمع هذا الحديث ، وكان من المترددين على قاعة محكمة الجنايات ــ فقال لجاره فى تحمس : **« أجل .. ان الشيخ لشديد المراس »** .. وكان السيد بابيه فى تلك الاثناء يضحك ويقول فى اصرار : **« سترى انه يعرف كيف يعض ، وانه حاد الانياب »** .. وتمتمت احدى السيدات فى اشفاق : « لشد مايبدو متعبا ! » . فقال السيد كولانج وهو يسوى هندامه الدقيق : « تريدين ان تقولى انه يبدو منهارا .. ان شيخين لايعادلان شابا ! » .. وأضاف بلهجته المبتذلة : « لاسيما عند النساء ! » . ثم أشار خلسة نحو المحاميين الشيخين وهما يتبادلان ملاحظاتهما ، وقد جلسا غير بعيدين عن السيد باستار ، الذى غاصت أصابعه فى لحيته ، وهو يتأهب متربصا للدفاع ، أملا منه فى ان يشهد روكفيار وهو يتداعى !

ورفع السيد روكفيار قلنسوته عن رأسه ، ثم نهض .. ونظر على التوالى ، وفى غير عجلة ، الى ابنته وابنه ، فتزود مما كان يبدو عليهما من أمل وثقة فيه .. وسرعان ما سيطر الصمت عميقا ، مثقلا بالانتظار الذى حبس على الحضور انفاسهم

وخفقات قلوبهم !.. كان وقوف هذا الرجل ذو الشعر الاشيب ، بل الابيض تقريبا .. كان وقوف هذا الشيخ الذى تمثلت فى شخصه سلالة طويلة من الاجيال الشريفة ، وصفحات حافلة بالخدمات التى ظلت تبذل فى الحياة خلال نيف وستين عاما ، عن مواهب واقدام . كان مجرد وقوفه احتجاجا بليغا على السباب والتشهير اللذين خيل للبعض - اثناء مرافعة المدعى المدنى الطويلة - انهما قادران على النيل من أسرته : **ألم يذكر خصمه ان ثمن المزرعة دفع وفاء لمال لم ينفق جميعه بوساطة السارق ؟.. ان جميع المحامين من أمثال باستار - فى العالم باسره - ليعجزون عن سوق اعتراضهم بمثل هذا الوضوح الذى ساقه روكفيار - ممثلا فى مجرد وقوفه ! - قبل ان يتكلم !**

ودقت ساعة القاعة مؤذنة بالثالثة ، فشد المحامى قامته - فى بطء - منتصبا ، ولاح رأسه مرفوعا وسط هالة من ضوء الشمس التى كانت قد بلغت من الشحوب درجة لا تجعل المرء يضيق بأشعتها . وتجلى الجبين العريض ، والقسمات الجميلة الحادة ، التى زادتها السن حدة وارهافا ، والتى ظلت محتفظة بشممها وعزتها . واضفى عليه شارباه - بشعرهما القصير الكثيف - منظر المناضل ، والزعيم الذى لا يتطلع اليه أمرؤ الا واستمد منه شعورا بالقوة وحب الحياة ! **أما اللهب الذى كان يتقد فى أغوار عينيه عادة ، والذى كان ينبعث منهما حادا قاهرا ، فقد انقلب هادئا صافيا ، يوحى بالجلال بدلا من الرغبة فى الانتصار !**

وقالت السيدة التى كان السيد كولانج يغازلها : « تقول انه منهار .. الا انظر اليه ! » . فعقب السيد بابيه قائلا : « اننى لم أعد أعرفه لفرط سلطانه ! » . اما مرجريت والسيد هاميل ، فان يقظتهما والقلق المستحوذ عليهما كشفا لأعينهما الحماسة الخارقة التى تملكت روكفيار منذ نزهته فى المزرعة !

وبدأ الأب المحامى يتكلم بصوت خافت - بعض الشىء -

مما أوحى الى السيد باستار بخاطر جعله يقول فى رضى : «لقد فقد صوته المجلجل ! » .. ولكن الصوت وصح فجأة ، وكأنه دوى نفير شق الحجب ، لينادى الاموات على سـفوح التل الثلجية ــ التى كانت مستلقية تحت الظلام بالامس ــ فيحشد من أطيافهم جيشا يشد أزره ! .. وأخذ صوت الشيخ يدوى منسابا وسط الصمت الحى ، الجاثم كالفيوم المتجمعة ، وكأنه قارب يشق البحر . وشرع يقول ان لابد من معرفة المتهم لكى يتسنى الحكم عليه .. وفى سبيل معرفته ، لا بد من تعقب الاصول التى نبت منها ، فان مصير الانسان يختلف تبعا للبقعة التى نبت عليها ، وللاصل الذى انحدر منه ، والقدر مكتوب لابد لعزيمته من ان تستمد منـه القوة والهدف « .. فأنتم يامن تنتمون الى سلالة أناس أشراف ، ويامن أسستم أسرات عريقة ، يجب ان تنصتوا الى تاريخ أسرة عريقة قبل ان تنطقوا بحكمكم ! »

وما كان فى وسع اولئك الريفيين القادمين من السهل والجبل ، والذين تألفت منهم هيئة المحلفين .. ماكان فى وسعهم ــ بحكم طبيعتهم وتفكيرهم ــ ان يظلوا بمنأى عن التأثر بهـذه القصة الانسانية الواقعية التى هزت حقيقتها عقولهم هزا عنيفا ! .. وهكذا انطلق السيد روكفيار يروى تاريخ أسرته الطويل : فلقد غرس الجد الاول ــ حين أرسى أول حجر فى أساس البيت العتيق ــ جذور شجرة حياته ، فى الارض التى صارت موطنا لأسرته . وراح الشـيخ يسرد تاريخ جهود الاجيال المتعاقبة ، والعرق الذى سكب على الارض المستصلحة ، والحوادث التى تعرضت لها والتى تسببت فى تلف المحصول تحت وطأة الصقيع ، والقناعة التى كانت تتقبل القليل فى رضى ، والاقتصاد الذى كان يعبد طريقا للمستقبل على حساب المتعة الشخصية والذى يعتبر مثالا للتجرد من المصلحة الخاصـة وينطوى على ثقة فى الذرية المقبلة ! ..

هكذا سارت الحال فى المزرعة الجميلة ، التى كانت كرومهـا وغاباتها وحقولها ومراعيها تنبت محصولا يتمثل فيه الدأب والاقتصاد والصبر على المشاق التى ناءت بها سلالة بأكملها كانت تسير فى الطريق المستقيم كالدوحة الباسقة .. **ان الارض المزروعة تتخذ شكل الوجه البشرى ، فنحن حين نتطلع الى ممتلكاتنا انما نتأمل وجوه أجدادنا !**

ومع كل هذا ، فما الثمار التى أجداها العمل الذى اشترك فى ادائه آل روكفيار ؟ .. ان الارض التى كانوا يمتلكونها ، باتت اليوم ملكا لخصمهم الذى استولى عليها بلا مقابل . **أفكان كد آل روكفيار وكفاحهم زهاء خمسمائة عام ، من أجل ان يقدموها هدية ؟.. لا ، انما هم افتدوا بالميراث – الذى كونوه بالجلد والعناء – آخر سليل من ذريتهم . فمن الخاسر ، ومن السارق ؟.. ان السيد فرازن – فى مقابل مائة ألف فرنك اختفت – تقبل أرضا تساوى ضعف هذا المبلغ ، فمن الذى أثرى ؟ ومن الذى فقد ثروته ؟ .. فباسم الأموات الذين دفعوا الفدية ، يجب ان يبرأ المتهم !**

ولكن ، أليست الاسرة قوة مادية ضخمة ، تتجلى – فى ظاهرها – فى توارث الارض ، وتمكن بصلابتها وتماسكها من المساهمة فى تسديد ديون جزء منها بثمرة أعمال الجزء الآخر ؟ .. ثم ، أليست هى كذلك شيئا آخر ، أقل مادية وأكثر قداسة ؟ أليست سلسلة متينة من التقاليد ، ومن الشرف المتوارث ، ومن الشجاعة والقناعة ؟ .. **فما جدوى تناقل الحياة من جيل الى جيل ، اذا لم يكن من أجل احاطة هذه الحياة باطار يليق بها ، يتمثل فى مؤازرة الماضى ، وفى تهيئة مستقبل مشيد على أسس وطيدة ؟ .. ذلك لان تناقل الحياة تمكين للخلود !**

ثم أخذ يروى الاعمال العامة ، وما كان لآل روكفيار من وجود نافع كان يرقى أحيانا فى نفعه الى المجد !.. فذاك كبير العشيرة : وافته منيته وهو فى مقر عمله أثناء وباء تولى ادارة

المعركة ضده .. وذاك آخر أشرف ـ فيما بعد ـ على ادارة بلدة (شامبيرى) أثناء فترة من القلاقل والاضطرابات ، فانقذ ماليتها من أخطار كانت محدقة بها .. وهناك من كانوا منهم رؤساء امناء لمجلس أعيان (سافوا) ، ومن كانوا جنودا ماتوا وهم يقاتلون الاعداء فى حروب طاحنة .. كانوا جميعا ـ سواء من لبسوا منهم أوشحة المناصب المدنية ، أو من ارتدوا الثياب العسكرية ـ يحملون نفس القلب الجرىء الباسل الذى طالما خفق بين جوانح الاجداد الاقدمين !.. وكان هوبير آخر الجميع .. هوبير الذى لفظ أنفاسه فى خدمة الوطن ، وحيدا ، بعيدا عن ذويه ، فى أرض عدوة ملتهبة ، وقد عبر عن رغبة الاسرة فيما كتبه ، قائلا : « اننى أجود بحياتى من أجل شرف اسمنا ، ومن أجل خلاص أخى ! » .. **فهل فى وسع امرىء أن يرفض هذا القربان وينسى القرابين السالفة ، التى تشهد بالفضيلة المتجددة فى الاسرة عبر القرون دون انقطاع ؟.. ان مثلها فى ذلك مثل النيران ، تطهر الحقول من الاعشاب اليابسة فى الامسيات !**

وهكذا ألقى الشيخ فى الميزان بفضائل الاسرة ، فرجح الكفة . وراح جيش الاموات ، الذى هبط بالامس من مزرعة البرج وانتشر فى الوادى الصغير خلال القمة لينضم الى زعيمه الذى كان واقفا الى جوار شجرة البلوط على هضبة (سان كاسان) .. راح هذا الجيش يمر أمامه وكأنه فى عرض عسكرى !

وتحول السيد روكفيار يضيف الى فضائل الاموات ، فضائل الاحياء ! فما كانت الساعة ساعة تواضع واخفاء للحياة الخاصة : ففى مستشفى هانوى كانت فيليسى تثبت جدارة لا تقل عن جدارة أختيها اللتين ارتضيتا الفقر لتمحيا عن أخيهما مجرد شبهة الاختلاس .. اذ أن المبلغ الذى دفع الى السيد فرازن لم يكن ـ وما كان من الممكن أن يكون فى نظر

الاسرة والقضاة ـ سدادا لمبلغ أو اعترافا بجريمة ، وانما هو دحض قاطع لاى اشتراك فى الذنب ، ولو عن جهل أو غير قصد ! .. واعتذر المحامى الاب عن اسهابه فى تعداد هذه الخدمات الكثيرة ، فقد كان فى تعدادها تأنيب لخصومه على جحودهم .. ففى الجانب الآخر من القاعة ـ جانب الخصوم ـ أناس لم ينسوا هذه الخدمات فحسب ، بل انهم لم يتورعوا عن اتخاذها ذريعة للتحامل على المتهم ، اذ كانوا يريدون ان يتسللوا الى الماضى عن طريق المتهم المزعوم ، وأن يتخذوه معولا يحطمون به أمجاد هذا الماضى العريق ، وأبوا فى تعنت ظالم ان يبقوا عليه ليكون حمى للمتهم !.. على أن فضائل اية سلالة تظل تحميها ، الى اليوم الذى تتكالب فيه المثالب فتجرفها ، وبذلك تكون السلالة قد اختارت سقوطها بنفسها !.. ولكن ، منذا الذى يجرؤ على الزعم بأن سيل المثالب قد جرف آل روكفيار ؟ أجل ، ان الاموات قد قدموا لآخر سلالة روكفيار ضمانا أدبيا ، كما قدموا له ضمانا ماديا تمثل فى التضحية بالمزرعة .. واذن ، فلن يحكم قضاته بادانته ـ ولو كان مذنبا ـ دون أن يتجنوا على العدالة !

ولكن ، كيف يمكن ان يكون مذنبا ؟ وكيف استطاع سليل امثال هؤلاء الاشراف ان يتحول فى استسلام الى مجرم ؟ واية ادلة قاطعة تقدم على جرمه ؟ .. أى وزن لهذه القرائن الهزيلة ـ التى ساقتها المصادفات ، وجسمها تأويل الظروف ـ امام قرائن ادبية ومعنوية تنساب من بيئته العائلية فى تدفق مياه السيل ؟!..

أهى مفاتيح المكتب ؟ لقد تداولتها يد بعد يد ! .. أهى الارقام السرية ؟ وكيف بحث عنها المتهم ، وعثر عليها ، وفسرها .. ومتى سجلها الكاتب فيليبو فى مفكرته ؟! .. أم هى الحاجة الى المال ؟ لقد دفع المتهم جميع النفقات الرئيسية والثانوية التى تكبدها فى رحلته ، اما من المال الذى حمله معه والذى اثبت التحقيق هنا حسابه ، واما من المال الذى تلقاه فى (أورتا) .

وقد شهدت بذلك اوراق حساب الفندق ، التى تسنىالحصول عليها ! .. فما الذى فعله بالمائة الف فرنك اذن ، مادام قد دفع جميع نفقاته من المبالغ التى امدته بها أسرته ؟ واذا كان قد اودعها مكانا ما ، كما اشير فى معرض التلميح ، فلماذا عاد وسلم نفسه ليسجن ، بمجرد أن علم بالحكم الذى صدر عليه غيابيا؟

لم يبق شيء من أدلة الاتهام قائما ، سوى شهوة انتقام لم تقو على أن تقاوم شهوة الكسب الاستغلالي .. انها لقضية فريدة في نوعها ، يستحوذ فيها المسروق على مال سارقه المزعوم ! .. وختم السيد روكفيار مرافعته بهذه الكلمات : « لقد انتهت مرافعتي أيها السادة المحلفين . فباسم كل موتانا الذين يتألف من تعاقب ذريتهم شرفنا الحى على الدوام .. وباسم الارض – التى اكتسبت فى بطء ، والتى فلحتها جهود الاجيال المتعاقبة ، والتى تخلينا اليوم عنها لتكون قربانا لتدعيم هذا الشرف ! – اسألكم ان تردوا على ابنى .. اعيدوه لى ، لابدافع من الشفقة ، وانما بدافع من العدالة .. ولا كمنحة ، وانما كحق تقررونه بالاجماع . ان عشيرتى كلها ، وانا معهم ، لبراءته لضامنون ! »

* * *

. وجلس . . ولم يكن قد قضى فى الكلام أكثر من ساعة . وما ان تلاشت انغام صوته العذب الهادىء ، الذى ظل محتفظا طيلة الوقت بقوته ، حتى خيم على القاعة صمت دام بضع لحظات ، له مالصمت الكنيسة من وقار قدسى !.. فبدلا من فورات الغضب المريرة التى كان الجمهور يتوقع سماعها من المحامى الشيخ الذى عرف بحماسته الدافقة ، ردا على الهجمات المسمومة التى شنها السيد بورتيريو .. وبدلا من اثارة غبار الفضيحة ، والقاء التهم الملصقة بالعشيق على العشيقة .. بدلا من هذا وذاك ، سمع الجمهور دفاعا كريما مترفعا ، تسامى على السباب اعتدادا منه بقوته ، وسلك خطوطا بسيطة مستقيمة أثارت اعجابا كذلك الذى تثيره التماثيل الجامدة ، الرفيعة ، التى تطهر الرغبات من دنسها وتفطر النفوس الى ان تخشع أمامها .. كل ذلك ، دون اى ذكر لاسم مدام فرازن !

وفجاة ، انبعثت صيحة مدوية : ((عاش آل روكفيار !))

وكانت ((لافوشوا)) هي التي بعثت هذه الصيحة من أعماق قلبها . واذا الجمهور المكبوت المأخوذ يضج بالتصفيق .. وبينما كان الرئيس يهدىء هذه الجلبة ـ التي اضطرت السيد بالستار الى ان يهرب من القاعة في ضيق ـ انحنى الاستاذ فاليروا من جديد على السيد باريه ، المحامي العام ، الذي طلب الكلمة بعد أن تنحى السيد هاميل عن الكلام ، معتذرا لعدم استعماله حق التعقيب بعد أن تنحى عن حق استهلال الدفاع .. ومالبث السيد باريه ان قال للمحلفين : ((لقد سمعت مثلكم مرافعة الاستاذ روكفيار .. لا ، ليس المذنب هذا الشاب الذي ستصدرون حكمكم في أمره بعد دقائق .. بل ان المذنب غير موجود هنا . ومادام المتهم قد أوتى من الكرم ماجعله ينأى عن الاشارة اليه ، فانني بدوري أتجنب الاشارة اليه كذلك ، ولكنني استنكر التدبير البارع الذي انتزع به الاتهام العطف من قلوبنا ، متخذا من مصائبه الشخصية سبيلا لانماء ثروته . فبادروا الى تبرئة موريس روكفيار ، وردوه الى أبيه الذي يتمثل فيه شرف مهنتنا . واذا كان المتهم قد ارتكب في حياته الخاصة مايؤاخذ عليه ، فمن الواجب الا يطول حبسه بتهمة سوء استغلال الثقة !))

وبدأ النهار في الانصرام ، مسلما القاعة الى ظلمة المساء المتكاثفة . وانسحب المحلفون ليتشاوروا فيما بينهم ، وسرعان ماعادوا ليعلنوا اجماعهم على البراءة . واذ ذاك صاحت جان ساسيناى بصوت جهير : ((برافو !)) .. وتمتمت مرجريت في هدوء : ((أبي .. لسوف تهنأ أمي !)) .. وانصرف الجمهور وهو يتبادل التعليقات . أما السيد لاتاش ـ الذي كان يتكلم بتحمس مع فريق من الناس ـ فقد راح يهز رأسه في انفعال صارم ، وهو يقول : ((انها صفعة للسيد فرازن . وعليه ـ بعد التأنيب الذي وجهه اليه النائب العام ـ ان يصفي اعمال مكتبه ، ويغادر البلدة)) .. فقال السيد بابيه : ((لسوف يبيع المزرعة ثانية)) .. أما السيدة التي رافقها الموثق كولانج ، فقد كانت تبدى السرور استثارة لمرافقها ، وقالت تعابثه : ((ولســـوف تكون ابنة ساسيناى هي المشترية ، فان لديها صداقا ضخما . أتراك لاحظت تلك الابتسامات التي وجهتها الى الشاب المعتقل ... الى المنتصر ؟ لسوف تتزوج منه !)) . فعقب السيد كولانج على قولها مكتئبا : ((أجل ، هذا ماسوف يحدث . لقد كان الحظ دائما حليف آل روكفيار !))

٩ ـ قوة الحياة

• عجلت الرغبة الصادقة ـ التى أبداها رئيس محكمة الجنايات ـ باجراءات اطلاق سراح موريس ، وبينما كان الجمهور الذى غادر القاعة يتجمع أمام دار القضاء ارتقابا لخروج المتهم ومحاميه ، ليحييهما فى حرارة بالغة ـ اذكاها تبكيت الضمير الذى ثار متأخرا ! ـ كان السيد روكفيار ينتظر ابنه فى البهو الداخلى وحيدا ، اذ عهد الى شارل مارسيلاز باصطحاب السيد هاميل . وما ان انتهت المعركة ، حتى أحس الشيخ بوطأة التعب والاعياء ، واستغرق فى تأملاته . واذا بصوت يناديه فى استحياء : ((أبت !)) .. فهتف : ((أهذا انت ؟))

وبدلا من أن يرتمى كل منهما فى أحضان الآخر ، ظلا واقفين بلا حراك ، وكأنهما سمرا فى موقفيهما !.. كانت أول بادرة تصدر من أحدهما ـ دون روية ـ فى مثل هذه الظروف ، كافية لان تخلق النفور والعراقيل !.. وقرأ الاب على وجه ابنه امارات الاعجاب والعرفان وحنان البنوة .. وقرأ الابن على وجه ابيه علامات الحب والطيبة ، ودلائل الالم المبرح الناجم عن الاعياء والشيخوخة . وسادهما صمت أليم لا قبل لهما باحتماله ..وكانت الهتافات تتعالى مدوية فى الخارج . وفجأة ، قال السيد روكفيار : ((تعال !)) . واقتاد موريس الى حديقة عامة خلف المبنى ، كانت اذ ذاك خالية من الناس ـ لحسن الحظ ـ ثم اجتازا القنطرة الحديدية القائمة على مجرى (الليبيس) ، والتى كان الماء العكر يجرى تحتها .. حتى بلغا المقابر ، دون ان يتبادلا كلمة واحدة !

وكانت مدافن (شامبيرى) تقوم فى شرق البلدة ، عند مدخل السهل الفسيح الممتد الى بحيرة (بورجيه) ، يطل عليها تل (ليمنك) الصخرى ، يعقبه جبل (نيفوليه) ذو الطبقات المتدرجة . وكان الظلام قد خيم على الحقول، وأخذ يمتد الى الهضاب شيئا فشيئا . ولكن ألسنة شمس الغروب المحتقنة كانت تحيط بالجبل ، الذى دبت الحياة فى لونه الابيض وكأنما سرت فيه دماء !.. كان لأمسيات الشتاء الباردة ، الهادئة ـ التى تبدو وكأنها صيغت من رخام ـ جمال ذو نقاء قدسى !.. وتبين موريس ـ فى مواجهته ـ أعمدة هضبة (ليمنك) ، التى اجتاح الحب قلبه فوقها .. وتلكأ شعاع أخير ليبدى معالم الهضبة ، ثم لاح كأنما كانت الهضبة تأوى الى المعبد الصغير وتغيب فيه، فهمس لنفسه : ((ما أبعد العهد بالذكرى !))

واجتاز الاب وابنه اشجار الصبار ذات الفروع الصلبة كأنها الحراب ، وقد كساها الصقيع ، وبدت مهيبة كأنها حراس يسهرون على المنطقة . وكان الدرب المزدوج ، المؤدى الى المدافن الخاصة ، يمتد خلف قبـــور الفقراء التى كانت تشير اليها مرتفعات من الارض لم تكد تبدو تحت الجليد .. وتمتم موريس أخيرا ، وهو يفكر فى أمه : «كنت أدرك يا ابى الى اين تقصد؟».. فقال السيد روكفيار مؤمنا على قوله : « اننا نسعى الى مقبرة الاسرة ، لنشكر للاموات أن أنقذوك ! » .. فهتف الشاب : « بل انت الذى انقذتنى يا أبى ! » .. ولكن الشيخ قال : « انما كنت أتكلم باسمهم ! »

وما أن بلغا مدخل المدافن ، حتى لمحا شبحا أسود جاثيا على حجر أمام حائط ملىء بالنقوش . فهتف الشاب : « هاهو ذا القبر يا أبى .. هناك انسان ما » . فأجاب الاب : « انها مرجريت .. لقد سبقتنا » . وتناهى الى اذنى الفتاة صوت تحطم الجليد تحت اقدامهما ، فالتفتت . وما ان تبينتهما حتى تضرج وجهها ، ووقفت جامدة وكأنها خشيت ان تعكر عليهما التئـام شملهما . ومالبثت ان قالت : « جئت أزور أمى ! » . فقال الاب مترفقا « امكثى ! »

وكان المساء قد أطبق على حواف جبل «نيفوليه» ، فلم يعد يبدو سوى الجليد المتراكم على طبقاته العليا . وأخذ النور ينسحب فى انسياب سهل كأنه جدول من ذهب أو أرجوان . وبعد اشراقة سريعة رائعة ، صعد الظلام المظفر عبر الطبقة الاخيرة من الجبل ، واحتل القمة . وكان فى صدر المدفن حائط منقوش ، حمل لقبا واحدا ،هو لقب الاسرة ، وتحته اسماء عديدة وكثير من التواريخ ، وقد حف به سعف ناضر ، ذو فروع خضراء ، انحنى متقاربا بعضه من بعض كتاج من تيجان الربيع !

وقال السيد روكفيار ــ الذى بدا وجهه فى نفس ماكان عليه من صفاء فى الجلسة : « انصت ! .. هاهو ذا الليل ، وهاهى ذى ساحة الموتى ! ومع ذلك ، فانك لن تسمع فى أى مكان آخر على الارض أقوالا عن الحياة اقوى مما تسمع هنا !.. تامل ، قبل ان يخيم الظلام . هاهو ذا الافق الذى يفضله قلبك ، يحيط بك .. وهاهى ذى أسرتك تهجع مستريحة ! »

وجثا موريس .. وما ان تذكر تلك التى رحلت دون ان تودعه ، وذاك الذى قدم حياته قربانا من أجله ، حتى اخفى وجهه فى راحتيه . ولكن اباه لمس كتفه ، وقال بصوت حازم : « اننى أصبحت شـيخا يابنى ، ولسوف تخلفنى عما قريب ، فاصغ الى فى هذا اليوم الذى يدعونى فيه الواجب ان أتحدث اليك : ان ما تراه هنا لهو الصورة الباقية .. وان

تمجيد الموتى لهو لب مصيرنا الخالد . فما قيمة حياة امرىء ما ، بل ما قيمة حياتى انا ، اذا لم يخلع عليها الماضى والمستقبل معناهما الحقيقى ؟ لقد نسيت انت هذا المعنى حين انقدت لاهوائك الشخصية ، فما من مصلحة فردية يمكن ان تكون جميلة ، وما من مجد الا فى خدمة المجموع . يجب أن يخدم المرء أسرته ، ووطنه ، والله ، والفن ، والعلم ، والمثل الاعلى . ويالعار من لايخدم سوى وطنه !.. وانت : لقد وجدت فينا سندك ، ولكنك تبينت ايضا ان لا استقلال لك عنا .. ان شرف الانسان وكرامته ، فى قبوله لهذه التبعية ! »

ولمح موريس ـ وهو ينهض ـ الشفق الراحل عن (كالفيردى ليمنك) ، فتمتم لنفسه فى اسى : «والحب ؟» .. وكأنما قرأ أبوه ماكان يدور بخلده ، فقال : « ما أضأل الفارق الذى يفصل أحيانا بين الرجل الشريف والرجل الخسيس . والحب هو الذى يزيل هذا الفاصل بين الرجلين ، فى حين أن الاسرة تعززه . ومع ذلك ، فلست أعيب الحب ـ حتى فى هذه الساعة ـ لو انك عرفت كيف تفهمه ياموريس : انه العزاء الذى يواتينا رغم المحن .. هذا هو الحب ، فصنه فى فؤادك ، لانه ملك لك !.. ولسوف تجده فى جلائل الاعمال ، وفى الصمود للطبيعة ، وفى خوض مصيرك دون خوف أو وهن !.. وقبل ان تحب امرأة ، فكر فى أمك ، وفكر فى شقيقاتك ، وفكر فى السعادة التى قد تكون مدخرة لك ، اذا مارزقت ابنة وعكفت على تربيتها !.. لكم اغتبطت انا عند مولدك ـ كما ابتهجت عند مولد شقيقك وشقيقاتك ـ فعملت على حمايتك بكل قواى . وانى لانذرك بأنك ستشعر عند موتى كأن جدارا قد انهار ، وتركك أمام الحياة وجها لوجه . واذ ذاك ، ستفهمنى خيرا مما تفهمنى الآن ! »

وتمتم موريس وقد تهدجت أنفاسه لفرط الانفعال : «اغفر لى يا ابتاه .. لسوف تجدنى أهلا للانتماء اليك ! » . فلم يزد السيد روكفيار على أن قال ببساطة : « يا بنى ! »

وما ان رأتهما مرجريت ـ وقد تأبط كل منهما ذراع الاخر ـ حتى تذكرت الامنية التى طالما ساورت امها !

وفى السماء التى كساها الظلام ، وفى اتجاه المزرعة ، بزغ أول نجوم المساء ، متألقا . ورأى السيد روكفيار ـ وهو يضم الى صدره ابنه الضال الذى عاد اليه .. آخر ابنائه .. ابنه الوحيد ـ رأى فى النجم بارقة أمل !

وفى المقبرة المعتمة ـ التى جاءها ردا لزيارة موتاه له بالامس ـ وعلى الرغم من شعوره بان منيته هو الآخر باتت وشيكة ، فقد عزز رب الاسرة ثقته فى الحياة !

القسم الاول

القسم الثانى

القسم الثالث



شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩